لمشروع القومى للترجمة

مذكرات ضابط

فى الحملة الفرنسية على مصر

تأليف
چوزيف مارى مواريه

ترجمة وتقديم
كاميليا صبحى



٢٠٠٠

هذه ترجمة لنص كتاب

Joseph-Marie Moiret

Mémoires
Sur
L'expédition d'Egypte

Pierre Belfond

Paris

1984

الناشر بيار بيلفون باريس (١٩٨٤ م)

مقدمة

كتب الكثيرون عن الحملة الفرنسية ، ولكن من قرأ ثم كتب ليس كمن رأى رأى العين ، حتى وإن كان ما رآه وما كتب عنه ينم عن وجهة نظر شخصية لا تخلو من مبالغة أو مغالطة .

فهذه مذكرات ضابط شارك فى الحملة الفرنسية . كان يقتل ويحرق ثم يجد لنفسه الوقت ليكتب عن شئون قلبه . وقد عنى بوصف النيل والأهرامات والحيوانات والطيور وظاهرة السراب . كذلك أفرد العديد من الصفحات للحديث عن «العدو» .

وبمنطق الحرب بديهى أن هناك «عدوا» وإلا ففيم القتال ؟ ولكن أى منطق هو الذى جعل الشعب المصرى «عدوا» حسب القراءة من الفرنسية إلى العربية ؟

ومنذ الوهلة الأولى ، وصف «العدو» بأبغض الصفات . فهو كريه المنظر والعادات ، همجى ، ساذَج ، بائس ، تعس ، جاهل ، بل أحيانا متواطئ . فإن ثار ، دُهش المحتل . وإن استمرت المقاومة ، حق عليه العذاب : حريق ونار ودمار . ولا يهم إن طال الانتقام مسجداً بحجم الأزهر الشريف أو قرية بأكملها أو زوجين من الشيوخ ، لنقرأ فى السطر التالى تعليقاً عن الطيور والطعام ووفرته ورخص سعره . . . فهل لآلة الحرب قلب يبالى ؟

فإن وصف الضابطُ جنودَ «العدو» بالبسالة والشجاعة ففى سياق يؤكد أن هزيمته كانت أمرًا هيناً على يد جيش لا يقهر . . فأى فخر فى هزيمة الضعفاء !

ولا تتوقف مع الحرب مظاهر الحياة ، فالاحتفال بالمولد النبوى يتم فى الميعاد بل تحت رعاية المحتل الفرنسى وبمشاركته الاحتفال. كما أن الناس تبيع وتشترى وتعقد الصفقات ولا تعبأ بنات الهوى لمن تباع الأجساد !

وبقدر ما يبدى الضابط تأففه من شعب مصر بقدر ما يبدو مأخوذاً بحيوناتها هائمًا بها، فالخيول كالبراق والحمير لا يمكن مضاهاتها بأى حمير أخرى فى العالم .

ومقابل الوصف الكئيب لشعب مصر وعاداته تأتى الصورة المروعة لبذخ البكوات والمماليك فتكون المقارنة فادحة . ولكن هل يكفى التأكيد على أن كل هذا كان من كد وعرق شعب مصر لنسلم بأن يد الفرنسيين كانت أرحم !

ولعل البيانات الصادرة عن مراكز القيادة الفرنسية هى أهم ما جاء بهذا الكتاب . فمن خلالها نرى تباين لغة القادة الثلاثة للحملة ، ونتبين الصراعات الداخلية بين صفوف الجيش الفرنسى ، كما يلقى أحد هذه البيانات الضوء على سبب من أسباب البلاء الذى حاق بالأسطول الفرنسى ، والمتمثل فى تعددية السلطة على متن السفن ، الأمر الذى لعب - فيما يبدو - دوراً مهماً فى إضعاف قوتها ، وكان بمثابة الدودة الداخلية التى نخرتها .

ولكن هل كره هذا المحتل مصر كما أكد الصفحة تلو الأخرى ؟ وهل رآها حقا مقيتة هى وأهلها ؟ لو أن الأمر كذلك لما كانت هذه الفقرات عن جمال بعض المواقع المصرية وعن عراقة وعظمة آثارها وحضارتها ، وكأن من كتبها جاء سائحا يريد الاستمتاع ورصد ما يرى ، وليس مجرد محارب يتربص بمن لم يشأ أو يختار أن يكون له «عدوا» ، ولما كانت أمانى العيش والإقامة بأراضيها الخصيبة ، ،لما كان حلم امتلاك مزرعة تنتزع من يد

المماليك المستمتعين وحدهم بخيرات البلد . لو أنه لم يحب مصر لما أراد زراعة أشجار «مُعَمِرة» لتقيه يوماً قيظ الشمس بظلالها الوفيرة ، ولما مارس النيل سحره عليه ولما لان قلبه لجماله . وإن كان هذا الجمال لم يمنع الغازى من تلويثه والتلهى - باستمتاع - باصطياد جثث المماليك الطافية على سطحه لنهب ما تحمله من نقود .

ووسط أحلام القوى الزائفة ، تطل المخاوف من لحظة وعى بوجه الحقيقة ، حينما تتحرر شخصية الإنسان من صورة المحارب لتنفس عن أحلامها ومخاوفها وضعفها البشرى المشروع . حينئذ يسقط قناع البسالة والشجاعة ليفسح المكان للغة اليأس والألم والإحباط . ويطل «العدو» بوجهه الحقيقى : الجوع والعطش والخوف من الطاعون والأوبئة ، والخشية من عدم رؤية الوطن مرة أخرى . لقد كان العطش أقسى على المحارب من أهوال الحرب ، كان يحصد الأرواح مثلما تفعل الحروب والآفات . فقط من هذه اللحظة ، رأى الإنسان فى الحقيقة ، وعرف أن ما حدث كان ضد الإنسانية .

كاميليا صبحى

تمهيد

كل ما نعرفه عن جوزيف مارى مواريه هو أنه ترك الكنيسة للالتحاق بفيلق آكيتان . ثم ما لبث أن انضم للحملة الفرنسية على مصر وكان برتبة كابتن .

كان مقرراً ، فيما يبدو ، أن تصدر هذه المذكرات عن دار نشر «موريسو» نسبة لأحد كبار الناشرين فى العصر الرومانسى . وقد أعد المخطوط بالفعل للنشر ، ولا ندرى على وجه اليقين الظروف التى حالت دون هذا .

وقد هاجر أحفاد مواريه إلى الأرجنتين . وعرض مؤخرا أرشيف العائلة للبيع فى بيونس ايرس ، وانتهى الأمر بأن اشترت المخطوط دار كلافروى ، وهى دار متخصصة فى الكتب التاريخية وتقع بشارع سان أندريه ديزار بباريس .

هذا النص الذى كتبه جوزيف مارى مواريه ، يغطى الحملة الفرنسية بأكملها منذ إبحارها من تولون عام (١٧٩٨م) وحتى عودتها إلى فرنسا فى السادس عشر من نوفمبر من عام (١٨٠١م) .

فى هذا الكتاب ، يعطى مواريه صورة دقيقة للعمليات العسكرية التى دارت سواء فى مصر أو فى فلسطين . وقد أتاحت له رتبته فرصة الاقتراب من الجنود ، فراح يكتب بعناية كبيرة كل ما شغلهم ، كما عمد إلى وصف حالتهم المعنوية . وفى الواقع لم يغفل مواريه عن شىء ، بدءاً بحالات العصيان وحتى الأحلام الاستعمارية التى راودت هؤلاء الجنود . كما أفرد العديد من الصفحات لوصف الأقاليم التى اجتازتها الحملة ووصف عادات سكانها .

وقد كـان فى علاقة الـكابتن مواريه بامرأة مـسلمة فـرصة أتاحت له إعطاء وصف دقيق لما كان عليه وضع المرأة فى هذا العصر والمكان .

كما صـور مدينتا الإسكندرية والقـاهرة بكل ما فيهمـا من صخب ، وقد كانتا مـوضع اهتمام دائم من الفرنسيين ، لاسيما وهم بعـد يكتشفون صرامة الإسلام وعالم الحريم .

أما عن الأعمـال العسكرية ، فتسـتوقفنا بشكل خاص روايتـه لمعركة الأهرامات والاسـتيلاء على القـاهرة مرتين على التـوالى و مقاومـة الجيش لحرب العصابات التى كان يشنها البدو ، إضافة للحملة على سوريا .

لم يتمكن كابتن مواريه من بلوغ عكا نظرا لإصابته بالطاعون وبجروح خلال وجوده بالعريش . كـما أنه لم يذهب بعيدا فى صعيد مصـر. وفيما عدا هذا ، فقد شارك فى جميع المعارك حتى سقوط الإسكندرية .

تورد هذه المذكرات أيضـاً عدداً كبـيراً من البيـانات الرسـمـية التى تلقى مزيـداً من الضـوء على ما يرويه المؤلف . أما الـقيمة الكبـرى لهذا العمل فتـتمثل فى الفقرات التى يشـير فيها إلى حـالة الجنود وقد نال منهم العطش ووقعوا صـرعى الطاعون والرمد بمصر ، كـما وقعوا ضحـية عدو شديد البأس يصعب النيل منه .

لاشك أن أنصار هذه الملـحمة التى صنعـها نابليـون والمتحمـسين لها سيـجدون فى إحيـاء هذه المذكرات ما يعـادل من حيث القـيمة والأهمـية «مذكرات كابتن كواتيه» .

الناشر

(١٩٨٤م)

تنبيه

من الناشر الذى كان بصدد

إصدار هذه المذكرات ، السيد موريسو (١٨١٨م)

كاتب هذه المذكرات هو جوزيف مارى مواريه، نقيب خلال الحملة ، وكابتن سابق مسئول عن الكساء باللـواء الخامس والسابعين مشـاة الملقب بـ «الذى لا يقهر» . كتب هذه المذكرات يومـا بيوم بقدر ما كانت تسمح له الظروف ، خطها على قـصاصات ورقيـة مربعة جمـعناها ورتبناها بحسب تاريخها .

وقد دأب قـيصر على تسجـيل أعماله العـسكرية على هذا النحو فى دفاتره الخـاصة. ولكن قيـصر كان يحظى بعـون يفوق ما حظى به مـجرد ضابط فى الحملة الفـرنسية ، كما أن مـعلوماته كانت أوفر وعلاقـاته أكثر اتساعا ومصادره أكثر تنوعا ، ناهينا عن التفوق فى المكانة والعبقرية .

افتقد مواريه لكل شىء : الوقت ، والإلمام بتفـاصيل جميع العمليات العسكرية والدوافع التى كانت تحكمها، كما افتقد وجود سكرتارية تعاونه ، وكذا أية مصادر خارجية للمعلومات .

ولعل ما يدهشنا هو انه على الرغم من مهامه العسكرية وتغييره الدائم لمواقعه وكـثرة غارات العدو قد وجد من الوقت مـا يكفى لكتابة هذا القدر من الروايات والتفـاصيل . وقد كاشـفته يومـا عما جال فى خـاطرى بهذا الشأن ، فأجابنى بأنه كان يكتب كل ما يجرى حـوله سواء فى جبهة القتال أو المخيمات أو المعسكرات. وقد توفرت له أحيانا أحبار جيدة للاستخدام ، بينما لم يحظ فى أوقـات أخرى إلا بالأحبـار الرديئة . وعوضـا عن ريشة الكتابة التى لـم تتوفر فى كـثير من الأوقـات كان يلجأ لقطعـة من البوص

يخط بها مذكراته ، الأمر الذى نلحظه بالفعل فى مخطوطاته نظرا لاختلاف أشكال الحروف ودرجات الأحبار المستخدمة فى الكتابة .

وفى ظل هذه الظروف ، بديهى أن نتبين أن الرغبة والوقت كانا ينقصانه لتحسين أسلوبه وإضفاء صبغة البلاغة على نصه . لقد كان يكتب كل ما يراه ببساطة شديدة ، ولكن بدقة ونزاهة وتجرد . وقد يرى المهتمين بالآداب أنه لم يُعْنَ بأسلوبه كما يجب ، وربما قسوا عليه فى نقد هذا العمل كما فعلوا بالمذكرات التاريخية التى كتبها يوليوس قيصر، والتى تعرضت لانتقادات آسينيوس بولليون ، الذى عاب عليها عدم الاعتناء بالأسلوب وتعمد إخفاء الحقائق .

ولمن سيتناول هذه المذكرات بسوء أبادر بنشر ما كتبه واحد من اكثر أهل روما فصاحة ممتدحا مذكرات قيصر ، إذ كتب يقول : «لقد ترك قيصر مذكرات تاريخية لا تقدر بثمن . كتبها بأسلوب بسيط طبيعى لا يشوبه التصنع ، كما جاءت متجردة من أى زخرف . فهو لم يكتب تاريخا وإنما قدم إسهاما للمؤرخين لتذكيرهم بما كان» .

وفى تقديرى أن هذا يسرى أيضا على مواريه . فقد جرد بدوره أسلوبه من أى تصنع أو زخرف . وأراد إمداد من سيأخذون على عاتقهم مهمة كتابة تاريخ الحملة الفرنسية ببعض ما قد يساعدهم فى القيام بمهمتهم . وعليهم هم العناية بأسلوبهم وبتجميع الوقائع وتنسيقها مع ما يستمدونه من مصادر أخرى . وقد يقول قائل إن آخرين قد أوردوا نفس هذه الأحداث . ولعل هذا من حسن طالع المؤرخ ، فكلما زادت مصادره وشهوده ، اتسمت رواياته بالمصداقية وكانت مؤكدة . ثمة وقائع ، فيما يبدو لى ، فاتت على بعض المؤلفين ولم يوردوها ولكننا سنجدها فى هذا الكتاب ، الأمر الذى سيثير لا شك فضول القارئ .

فجميع البيانات التى أدلى بها الجنرالات الثلاثة الذين تتابعوا على قيادة جيش الشرق منذ رحيله عن تولون وحتى عودته إليها نجدها فى كتابه . هذه البيانات حتى لو لم تمهر بإمضاءات إلا أنه لن يشق علينا التعرف على كاتبها من خلال طبيعة كتابته . فبيانات بونابرت تكشف عن دهائه السياسى وإخفائه نواياه ، كما أنها تبشر ، وكأنها نبوءة ، بنجاحات قادمة تماثل انتصاراته الماضية ، فكأنه والقدر يسيران فى ركب أبدى واحد. وفى بيانات كليبر[1] نتبين صراحة المحارب الواثق من شجاعته ، والذى يحاول مع هذا المواءمة بين مجد جيوشه وانتصاراتها ورفاهيتها ، ساعيا قدر الإمكان لدرء دماء جنوده . أما فى بيانات مينو ، فنلمس حكمة فيلسوف لا يحفل إلا بالمصلحة القومية ، ويجنح لإعمال العقل بدلا من اللجوء للتهديد والوعيد بمقتضى السلطة المخولة له .

صحيح اننا حينما نقرأ ما نشر عن الحملة الفرنسية على مصر ، فإننا نضع أيدينا على حجم العمليات العسكرية التى جرت ، وعلى تحركات أجنحة الجيش ومركز قيادته والخطط التى أعدها مستشارو الحرب فى سرية كاملة لضمان النصر ، والاحتياطات التى تم اللجوء إليها عند اللزوم حينما بدا الحلم بعيد المنال. كما نقدر النتائج العظيمة التى تحققت بفضل حذر القادة وقيمتهم الخاصة . نقدر جسارتهم بل حتى عجزهم فى بعض الأحيان . واعترف أن المعلومات لا تنقصنا فى هذا الصدد سواء من خلال نشرات الجيش أو التقارير المرفوعة إلى الحكومة أو إلى الجنرالات ، إلى جانب ما ورد فى كتابات رجال الفن والعلماء . لا نجهل بالفعل أغلبية هذه الكتابات ، ولكننا لن نجد فيها ما راود الجنود من أفكار وما صنعوه

(١) قاد كليبر الحملة فى مصر بعد رحيل بونابرت ، وبعد مقتله فى الرابع عشر من يونيو عام (١٨٠٠) خلفه مينو الذى تفاوض على استسلام جيوشه وترحيلها على متن سفن انجليزية فى سبتمبر من عام (١٨٠١). (هوامش من الناشر) .

من أفعال ، وآرائهم عن قادتهم أو بشأن بعض الأحداث إضافة إلى آمالهم ومخاوفهم وأفراحهم ومعاناتهم اليومية .

وبحكم طبيعة عمله كان مواريه أقرب الى الجنود البسطاء منه إلى هيئة الضباط من ذوى المناصب العليا . فكان يصغى لحكمهم على الأمور، ولأحاديثهم بل ولهمساتهم فى بعض الأحيان . والحق انه لم يأل جهدا فى سبيل إطلاعنا على المناقشات التى دارت بينهم .

وفى لحظات السعادة كما فى لحظات التذمر والاحتجاج لم تغب صورة الوطن قط عن خيال هؤلاء الجنود . ولم تبدر منهم شكوى إلا حينما تصوروا أن فيما يفعلونه خسارة جمة للوطن . وسرعان ما كانوا يستسلمون ويرجعون عما يشعرون به بمجرد توضيح الأمر لهم ، وبمجرد معرفة أن سبب وجودهم فى تلك الأراضى البعيدة هو مجد الوطن ومصلحته. حينئذ كان كل شيء يهون ، كانوا يتحملون أقدارهم بشجاعة وجلد ، ويدركون أن مجدهم مرتبط برفعة بلادهم .

ومن جانبهم ، لم يكن القادة يجهلون ما كان يدور فى خلد جنودهم . لذا حرصوا فى جميع بياناتهم على التأكيد على هذا الدافع المزدوج المتمثل فى «مجد ورفعة الوطن» لحثهم على مواصلة القتال وتشجيعهم. لم يخطئوا حينما أكدوا أن مجد الوطن أمر مضمون ثم لم يحققوا رفعته مع هذا . فهم لم يدخروا وسعا ، ولم يبخلوا بجهدهم ولا بوجودهم ذاته . ولو أن الحكومة احتوت شعبها كأبناء ، أو أنها تمتعت بالاستقرار وعرفت كيف تبخل بدماء جنودها لجلبوا لها المجد والرفعة .

وعلى الرغم من تعدد الأعمال الصادرة حول هذا الموضوع ، فإنني آمل أن يحوز هذا الكتاب إعجاب عدد كبير من القراء لاسيما أصدقاء الكاتب وهم كثر، إضافة لرفقاء السلاح السابقون الذين لم يباغتهم الموت حتى الآن ، ومعارفهم . فهؤلاء المحاربون السابقون سيجدون لاشك متعة

فى قراءة أحداث شهدوها ، بل اشتركوا فيها بصورة أو بأخرى . ولسوف يتعرفون على ما فيها من حقائق وظروف وملابسات وأماكن ، وسيتذكرون الوقت الذى حدثت فيه .

سيقول أحدهم : «كنت فى ذات الكتيبة مع المؤلف فى معركة الأهرامات ، وكذلك فى معركة القبة» ، ويقول آخر : «أصبت فى معركة شبراخيت» بينما يقول ثالث : «كنت فى سوريا وتعرضت للحصار فى عكا . وكنا على جبل طابور حينما شتت جمعنا نفر من البرابرة» ثم يقول رابع : «كنت ضمن فرقة ديزيه وقد اجتزنا النيل حتى بلغنا منطقة الشلالات ، ورحنا نتأمل بإعجاب الأطلال المتبقية من معابد وقصور قديمة بمدينة طيبة العتيقة بواجهاتها الأربع الشامخة» .

ولا يغيب عنا ولع العسكريين القدامى بإدارة دفة الحديث دوما فى اتجاه الحملات العسكرية التى خاضوها . فما أن نذكرهم بحادثة ما حتى لا يدعونا نتمها ، بل يزيدون عليها ألف رواية أخرى ، ولا ينضب لهم قط معين ولا ينسون ابدا دورهم فى تلك العمليات الكبرى ، فتلك الذكريات هى التى تعيد الماضى الى أذهانهم ، وكأنها تعيد اليهم عنفوان الشباب .

حدث أننى كنت بصحبة بعض المحاربين من أيام لويس الخامس عشر ، وحدثتهم عن الماريشال دى ساكس أو دى لويندال وما كدت أفعل حتى اعتدلوا فى جلستهم واستحوذوا على دفة الحديث ، واستغرقوا فى وصف طويل طنان لمعركة فونتانوى وسقوط بيرج اوب زوم بدقة يصعب أن نجد لها مثيلاً فى أكثر كتب التاريخ توثيقاً .

وبعد أن اطلعت على جميع تفاصيل الحملة على مصر من خلال ما جاء فى مذكرات صديقى ، تحدثت فى هذا الشأن مع عدد من العسكريين الذين شهدوها بدورهم . ومن فرط دقة ما ذكرته لهم ظنوا أننى كنت معهم . وبعد أن بينت لهم حقيقة الأمر ، قصوا على الاحداث ، فجاءت

مطابقـة لما عرفـته بالفـعل . وبالطبع لم تكن المعرفـة هى هدفى من هذا الحديـث ، وإنما أردت أن أمنحهم مـتعـة اسـتـرجاع الذكـريات وهى لا تضاهيها متعة أخرى . فكان هذا من دواعى مودتهم الدائمة لى .

أتوقع ان يكون لهذه المذكـرات نفس التأثيـر ، إذ لا يفضل الجنود ، غالبـاً ، الإكثار من الوصف فـهذا يضفى على العـمل صفة العلمـية التى تتجـاوز إمكانياتهم . وهذا ما يجـعلنى أعتـقد بشدة أننا سنجـد من يقرأنا لاسـيمـا من هذه الطبـقة ، إضـافة لمن لـم يحـالفـهم الحظ للاطلاع على الأعمال الأخرى . فبعض الكتابات تشبه الأثواب ، فئة تفضل لون أو نوع بعينه ، بينما تفضل الفئة الأخرى شـيئا آخر. ولمن يريد معرفة السبب فى عدم نشر هذا العـمل منذ وقت مضى ، أقول إنها الرغبـة فى عدم الإساءة إلى حكومة كـتب عن رئيسها بصـورة شديدة الصراحة والصـدق . واليوم وقد أصبح بالإمكان إجلاء الحقيقة ، ما عاد ثمة سبب للصمت ، ولـم نعد نخشى سطوة الرقباء .

بقى أن نعطى نبـذة تاريخية صـغيـرة عن العسكرى الذى أمـدنا بهذه المذكـرات . ولد مـواريه فى كـورتناى بدوفين ، الواقـعـة بين كـريميـو وموريليـه ، من عـائلة نبيـلة هى عائلة جدته لوالـده وهم آل كورتوناى على اسم إمبـراطور لاتينى من قسطنطينية شـارك فى الحملات الصليبـية . كذلك حمل بعض الأمراء هذا اللقب ، وفى عام (١٦٠٣م) أى إبان حكم هنرى الرابع تقدمـوا بطنب للاعتراف بهم بموجبه ضـمن الأسرة المالكة . وربما جاء مواريه من ذات النسب ، ولكنه بعيـد كل البعد عن الزهو ببريق نبل عتيق ، فهو مثل بوالوه لا يعترف بمجد حقيقى إلا إذا نتج عن شجاعة ونزاهة شخـصيـة ، مجد يكتـسبـه من خلال قيـامه على الوجـه الأكمل بواجباته كضابط ومواطن وأحد رعاة الوطن .

درس مـواريه الأدب على يـد راعى كنـيسـة قريبـة من تلك التى ولد فيها ، وكـان الراعى متمكنا من اللغة اللاتينية تماماً ، فـعنى بتنمية مواهب

تلميذه الطبيعية حتى أنه بعد ثلاث سنوات تأهل مواريه لدراسة الفلسفة فى مدينة ليون فى مدرسة القساوسة الدومينيكان .

ولكنه لم يمض حتى النهاية فى هذه الدراسة . فقد كره العودة كل عام لتمضية ثلاثة أشهر هى مدة إجازته فى بيت والده ليقع تحت سطوة زوجة أبيه . كما كان يخشى نهاية دراسته الوشيكة التى ستضطره إلى تحمل الطبع السيئ لهذه الزوجة انتظاراً للوصول بعد عدد من السنين إلى السن المطلوبة لممارسة مهام وظيفته بالكنيسة . وهى الوظيفة التى أعد لها ، والتى لم يكن يشعر بميل كبير نحوها . ومن ثم ، عقد العزم على الانضمام للحقل العسكرى . فقد التقى بأحد المجندين بفيلق آكيتان فى ساحة بلكور ، وكان مشهورا فى ليون بمهنته . لفت مواريه نظره بهيئته وتأنقه وبشاشته وحلو حديثه ، فاستحوذ عليه ولم يتركه إلا بعد أن جنده وضمه لصفوف فيلقه، حيث استقبل بحفاوة. ثم ما لبث أن أصبح نقيبًا .

وفى بداية الثورة حينما اندلعت الحرب فى سان سافوا بقيادة الجنرال مونتسكييو، كان مواريه ضابط صف . ثم مالبث أن أصبح عريفًا بحريًا بعد ذلك بوقت قصير. وتدرج فى الرتب حتى أصبح مسؤولاً عن الكساء . ومارس مهام وظيفته دون أدنى تبرم منذ عودته من مصر (وقد كان طوال الحملة على هذه الأراضى برتبة نقيب) حتى ترك الخدمة . وحينما تيقن من اعتزام نابليون مدّ القتال إلى أقصى الشمال[1] سعى للتقاعد وحصل عليه ولكن بأدنى معاش مقرر ، وكأنهم أرادوا معاقبته على طول خدمته وجراحه التى لم تمكنه من بلوغ أقصى العالم .

وقد كان يشار لفيلقه برقم (٧٤) وهو الذى تكون منه فيما بعد اللواء الشهير رقم (٧٥) وكان واحدا من أشد اللواءات تميزاً فى حروب إيطاليا ولقب فيما بعد بـ «الذى لا يقهر» . وقد استحق هذا اللقب

(١) المقصود هنا هو الحملة على روسيا عام (١٨١٢م) (الناشر) .

بأعماله المجيدة مما أهّله للاستمرار فى مونتينوت وريجو وميليسيمو[1] حيث أرغم أحد الفيالق النمساوية على الاستسلام ، وتم الاستيلاء على معداته . وقد خدم هذا اللواء طويلا تحت رئاسة الجنرال لاهارب وكان من الفرق المتقدمة ، وأثبت باستمرار جدارته بهذا اللقب فى أركول وفى مصر فى مختلف المعارك ، وكذلك خلال حصار عكا فى سوريا بقيادة الشجعان شامبرتو وموجرا .

وقد كان فى استطاعة مواريه أن يترقى لرتبة تفوق رتبة الكابتن نظراً لتعليمه ولخدماته الطويلة الجليلة . وكان معنى هذا أن يترك فرقته المكونه فى مجملها تقريباً من أصدقاء له فى آكيتان. غير أن هؤلاء الأصدقاء اعتبروا من الشرف الإبقاء على مكان خدمتهم الأولى ، فأخذوا على أنفسهم عهدا بألا يفترقوا أبداً .

لقد ظل أسير كلمته ، واعتقد أن عدم الوفاء بها والجرى وراء المال والأمجاد ليس من الشرف فى شئ :

ولو أنه انتقل إلى فيلق آخر تابع لفرقة جديدة لأصبح كومندان ، ولكنه ارتبط بالعهد الذى قطعه على نفسه .

وكيف له مغالبة عاطفة رسخت فى أعماقه مع الزمن وأكدتها عهوده ؟ لقد حاول البعض إغراءه عدة مرات ، بل لوحوا له بالآمال العريضة . فكان يقول : «فيلقى أعرفه ، أينما حل ، يكلل بالانتصارات الخالدة ، فما مصيرى إن لم أكن يومًا طرفًا فيها ، أأحرم من نصيبى من هذا المجد ؟ لاشك أن عذابات الندم ومشاعر الغيرة ستودى بى إلى حتفى ولسوف يدفع بى يأسى إلى شنق نفسى كما قال هنرى الأكبر لكريتون الشجاع» .

(١) هى الانتصارات التى أحرزها بونابرت على الجيوش النمساوية بقيادة بوليو فى أبريل عام (١٧٩٦م) (الناشر) .

مذكرات ضابط

فى الحمــلة الفــرنســيــة على مصـــر

كتبها مواريه

النقيب فى اللواء ٧٥

الرحيل عن تولون

فى تولون وأنحائها تجمعت فى شهر فلوريال من العام السادس من التقويم الجمهورى[1] فرقة تضم مجموعات من الجنود يصل قوامها إلى ما يقرب من عشرين ألف جندى من المشاة وسلاح الفرسان والمدفعية . بينما رسى فى ميناء هذه المدينة أسطول قوامه ثلاث عشرة سفينة حربية وسبع عشرة فرقاطة وعدة سفن متعددة القلوع ، وسفن حربية وزوارق حاملة للمدافع وأخرى تسير بالمجاديف وعدد من السفن التجارية ، انتظاراً لاكتمال الفرق . بينما جرى إعداد سفن نقل أخرى عديدة فى باستيا وكورس وسيفيتا فيشيا بهدف اللحاق بالأسطول الحربى بتولون .

وقد بلغ عدد المشاركين فى الحملة من جميع هذه القوات حوالى ثلاثين ألف مقاتل ، إضافة إلى البحارة والقائمين بشئون السفن والعلماء والفنانين والقائمين على خدمة الجيش والضباط .

مثل هذه الاستعدادات التى جاءت فى الوقت الذى ترددت فيه أنباء عن عمليات هجوم على إنجلترا ، لم تلبث أن أثارت تكهنات عديدة لدى الجنود ، حتى ظن كل منهم ان له عقلية ثاقبة وخبرات عسكرية خاصة تأهله للتكهن بالهدف من هذه الحملة . فقد خمن البعض أنها تهدف الاستيلاء على سردينيا ، بينما قال البعض الآخر إن الهدف هو صقلية ومالطا حتى يتحقق للجمهورية السيطرة والسطوة على البحر الابيض

(١) طبقاً للتقويم الجمهورى الذى استخدم بعد قيام الثورة الفرنسية ، قسمت السنة إلى الشهور التالية : فنديميير – بريمير – فريمير– نيفوز – بلوفيوز– جرمينال – فلوريال – بريريال – ميسيدور – ترميدور – فروكيتدور . وقد ألغى العمل بهذا التقويم عام (١٨٠٦) . (المترجمة) .

وتسلب من بريطانيا . وراح آخرون يأكدون أن البداية ستكون بعبورنا مضيق جبل طارق ثم يرفع الحصار عن ميناء قادش لنلحق بأسطول أسبانيا الحربى وننضم إلى أسطولنا فى برست لشن هجوم على انجلترا .

وقد اعتقد البعض أنه ذاهب الى مصر، ومنها إلى الهند الشرقية بهدف تدمير المصارف الإنجليزية . راود هذا الإحساس أغلب الشباب المتعلم الذى كان يطلق عليه لقب العلماء ، إضافة إلى الفنانين .

كانت تلك هى الأفكار التى أرقت الأذهان ووضعت الرأى العام فى حالة من عدم اليقين . اشترك الجميع فى تلك التكهنات لصدق اهتمامهم بمجد وهناء الوطن .

ورغم هذه الظنون ، ظل الجيش المكلف بتحقيق هذا الهدف المضاعف ، المتمثل فى جلب المجد والهناء لفرنسا ، محتفظًا برباطة جأشه الطبيعية . ولم تترك لهم ثقتهم فى جنرالهم موضعًا لشك فى نجاح هذا المشروع أيا كان كنهه . لقد ملأنا بونابرت فخراً وحماسًا ، وكانت كلماته كافية .

البيان الأول

١٠ مايو ١٧٩٨ البيان الأول لبونابرت

مركز القيادة بتولون

٢١ فلوريال من العام السادس

من بونابرت ، قائد جيوش البر والبحر لمنطقة البحر الأبيض المتوسط .

أيها الجنود :

كنتم أحد أجنحة الجيش الذى حارب إنجلترا ، قاتلتم فى الجبال والسهول وواجهتم الحصار ، ولم يبقَ أمامكم إلا خوض معركة بحرية .

لقد كانت فيالق الرومان التى اتخذتم منهـا أحيانا مثلا تحتذونه ، وإن لم تبلغوا شأوها ، تقود المعركـة تلو الأخرى فى قرطاج فى ذات البحار ، كما فى زاما ، وكان النصر دوما حليفهم ، لتحليهم بالشجاعة والصبر على الشدائد ، والتزامهم النظام والتوحد .

أيهـا الجنود ، أوروبّا بأسرها تضـعكم الآن نصب أعـينها . أمـامكم أقدار جسام ، ومعارك ستخوضونها ، ومخاطر ومصاعب لابد من التغلب عليها بالمزيد من العطاء ، من أجل رفعة الوطن وسعادة الأفراد ومجدكم .

أيهـا الجنود والبـحارة والمشـاة والفـرسان وحـاملو المدافع اتحـدوا ، وتذكروا أنكم فى حـاجة لمؤازرة بعضكـم البعض يوم القتـال . أيها الجنود والبحارة ، لقد أهملناكم بعض الشىء الفتـرة الماضية ، ولكن الجميع يقف خلفكم اليـوم ويؤازركم ، ولسوف تكونون لاشك جديـرين بالجيش الذى تنتسبون إليه .

إن عبقرية الحـرية ، التى منحت الجمهورية منذ ميـلادها السيادة على أوروبّا ، هى ذاتها التى سـوف تمنحها إياها اليوم ، على البـحار والأقطار الأكثر بعداً .

بونابرت

بعـد قراءة هذا الخطاب ، تصـاعدت صـيحـات الفرح ، وامتـزجت بالأناشـيد الوطنيـة وعلت أرجـاء السفن فى انتـظار ريح طيبـة ، لم يطل انتظارنا لها ، فـفردنا الأشرعـة وبدأ الإبحار يومى ٢٩ و ٣٠ فلوريال من السنة السادسة .

١٨ - ١٩ مايو من عام (١٧٩٨م)

أبحر الأسطول الصغير أولا ، وهو مكون من السفن الحربية فرانكلين واكيلون وسبارسيات التى كنت على متنها ، ومن بعض الفرقاطات الأخرى ، وانتظر بالقرب من جزر يريس للانضمام لبقية الأسطول فى ساعة متأخرة من اليوم التالى ، نظراً لهبوب رياح عكسية . وسرعان ما اتخذ قبطان كل سفينة موضعه وأبحر . وقد خيبت الطرق التى سلكناها كافة تكهنات بحارتنا ، وغيبت عنهم الغاية التى نستهدفها . فإذا سرنا بمحاذاة الشاطىء قالوا إنها جنوة . وإذا نأينا عنه فالذهاب إلى سردينيا . هكذا راحت المزاعم تختلف فى كل لحظة . بيد أن كل هذا اللغط ما لبث أن توقف حينما صدر لنا أمر بالاتجاه صوب سردينيا . وراح الجميع إثر هذا يتصايحون : «إذا ستتم عملية الإنزال هذا المساء ! ومع صباح الغد سنكون أسياد هذه الجزيرة». وكم كانت دهشة هؤلاء العرافين حينما صدر أمر بالمضى صوب عرض البحر بعد عدة أيام أمضيناها فى تلك المحطة ! وما لبثت اليابسة أن غابت من جديد عن ناظرينا . وعاد ضباط البحرية يصيحون: «الآن ، لم يعد ثمة شك ، نحن نتجه إلى صقلية» .

ما لبثت أن سرت أنباء تفيد رؤية قلوع إنجليزية فى الأفق . وسرعان ما انتشر هذا الخبر وراحت تتناقله الأفواه همسا ، حتى خشينا أن تكون قافلة «سيفيتا فيشيا» التى كان مقرراً أن تلحق بنا عند سردينيا قد سقطت فى أيدى العدو . وقد أدى ظهور تلك الأشرعة فى الأفق إلى تدعيم مخاوفنا . وصدر أمر لأسطولنا بتفقد الأمر . فانطلقت السفينة سبارسيات واكتشفت أن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد مراكب شراعية فصلتها بعض الرياح عن الأسطول . ومع هذا دام القلق وتزايدت المخاوف .

بعد حين بلغنا مشارف صقلية . وقد ظنها البحارة محطة الرسو نظراً للسرعة التى كنا نسير بها ، وراحوا يقولون : «الآن تأكد الأمر ، لابد أننا

ذاهبــون إلى مــالطــا . ربمــا تصــدق تكهنــاتهم هــذه المرة ، ســوف نــرى .

وبينما نحن نسير كيفمــا شاءت الرياح وآلهة البحار ، لمحنا مرة أخرى فى الأفق سفنا لـم تبـد لنا فرنسية . لابد أنها المفرزة الإنجليزية المتقـدمة !

أصدر الأميـرالاى أمرا بالاستكشاف . فانطلقت سـفينتنا من جديد، ولمحت أربع سفن دنمركية تحمل القمح لجزيرة مالطا . فاعترضنا مسيرتها ، مما جعلنا نعتقـد أن تلك الجزيرة هى غايتنا . بل أصبحنا شبـه متأكدين من هذا .

هيأت لنا الريـاح الاقتراب من هذه الجـزيرة الشهيـرة التى رحنا ننظر إليهـا وكأنهـا الأرض الموعودة وخـاتمة مشــوارنا . فى هذه الأثناء ، لمحنا مراكب شـراعيـة كثـيرة . قال أحـدهم : إنه الأسطول الإنجليزى ، بيـنما طمأنه آخر بأنها سفن فرنسية ، وما لبثت شكوكنا أن تبددت بعد أن تعرفنا على السفيـنة لاكوراجوز المكلفة بحراسـة قافلة سيفـيتا فيشـيا التى ظلت محط اهتمامنا الدائم منذ أن ارتحلنا .

أخـيراً لحقـت بنــا وهى فى خيـر حال دون التعـــرض لأى هجوم أو تكبد أى خـسائر ، فكانت سعــادتنا غامرة . وعــلى الرغم من الوجود القوى للإنجلــيــز فى البحــر الأبيض إلا أن الحــظ حالــفنــا ولم نلقهم . لقد قالهــا الجنرال : «الأقدار تقف إلى جانبنا» فكان قوله حــقا . كان هذا رأى الجيش أيضا حـينما بلغنا الجزيرة مساء الواحــد والعشرين من فلوريال الموافق التاسع من يونيو .

وقد استغللنا ظلمـة الليل لإنزال بعض الفرق على الشاطىء ، وأتممنا هذه العمليـة فى اليوم التالى . وحـينما رأى المــالطيـون مناورتنا ، اتخذوا وضع الاســتعـداد للدفاع ، وراحــوا يمطروننا بوابل من القنابل والقــذائف

المدفعـية والرصاص . ولـم يندهش جنودنا ولـم تفـتر عزيمتهم ، بل مـضوا قدمًـا تحت حماية زوارق الإنقـاذ المدفعيـة ، وهرعوا إلى معـاقل العدو ، وراحوا يقتلون ويأسرون كل من اعترضوا طريقهم أو قاوموهم .

غيـر أن العدو تقهـقر ليـتخذ لنفـسه مواقع جـديدة انتظارًا لمزيد من الهزائم . أما الفرنسيون ، الذين اعتادوا طرق الحـديد وهو سـاخن ، فلم يكتفوا بهذه الانتصارات الأولية ، بل مضوا قدمًا ، كدأبهم دوماً ، لملاحقة العـدو وحـرابـهم على جنوبهم ، يحـصدون الانتـصارات الواحـد تلو الآخر .

وبعد قتـال دام أربعا وعشرين سـاعة اضطر المـالطيون للاسـتسلام . وتـرك الفرسان أسلحتهم ، وسلـمـونا مدينة وجـزيـرة مالطا دون قـيد أو شرط . (ويطلق على المدينة اسم فاليت[1])

دخلناها فى الرابع والعشرين من بريريال الموافق الثـانى عشر من يونيو عام (١٧٩٨م) ومـا لـبث الأسطـول أن تبعنـا فى اليـوم التالى ، أى فى الخامس والعـشرين منه . ولم تكن دهشـتنا بسيطة ونحن نرى أنفـسنا وقد أصبحنا سادة مدينة تتمتع بهذا الـقدر من القوة ، نظرًا لموقعها على ضفاف البحر ، محاطة بمتاريس من المدافع المنتصبة ومحصنة بأبراج منيعة .

لقد كان هؤلاء المدافعـون بئس الجنود ولم يكن قائدهم يماثل لافاليت فى عظمـته . وبالتـأكيد لن يسـلبنا أحد هذه الجـزيرة وقد أصبـحت تحت الحماية الفرنسية ، اللهم إلا إذا اجتاحتها المجاعات أو خاننا أحد .

أما حاكم مالطا الـبارون هومبيش فقد رضخ لنا بعـد أن وعدناه بنفقة إعاشة قدرها ثلاثة آلاف فـرنك ، ندفعها من خزانة الجمهـورية الفرنسية ،

(١) لأن مدينة مالطا تقع وسط الجزيرة واسمها فاليت .

مع إعطاء سبعمائة فرنك للفرسان الـفرنسيين الأصل إلى أن يتقرر مصيرهم في مجلس رئاستنا .

وصف شعب مالطا

سرعـان ما أدركنا من خلال طبـاع شعب مالطا أننـا لم نعد فى قلب أوروبًا ولا وسط الحضارة . فـقتامة وجـوههم المكفهرة الكئيـبة ، وتجنبهم نظراتنا ومجتمعاتنا جعلتنا نشعر أنهم لا ينظرون إلينا بعين الارتياح .

كانت جمـيع البيوت مغلقـة . كما أشاعت الشوارع المهـجورة الحزن والأسى فى نفوسنا . يا لهذا البلد الكريه !

لا يمكن أن يكون فى العالم مكان أشد بشاعة من هذا . ولكننا سوف نرى فيما بعد كم كنت مخطئا .

كانت النســاء المتشـحات بغطاء رأس أسود فى غـاية الكآبة ولـم يكن يثرن ســوى مشاعر الاحـتقار أو الازدراء على أحـسن تقدير . فعـقدنا كل آمالنا على رحلتنا إلى مصر . فكم ألهبت قـصص التاريخ خيالنا ، بجعلها كل فتـيات هذا البلد فى سحر وجـاذبية كليوباترة . وقد كـان وصولنا إلى مصر وإقامتنا فـيها سببًا فى إفاقتنا من أوهامنا حتـى أننا صرنا نتحسر على شواطىء بو وتيبر ورين واودير .

وكم لَعنّا الوصف المخادع لمؤلف كتــاب «خطابات عن مصر» ! ولكن لنرجع إلى قصتنا وخط سيرنا .

فبمجرد أن وضعت مالطا على الخطة التى أعدها الجنرال المسئول، حتى تركنا بها حامية قوامها ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف شخص بقيادة الجنرال فوبوا ، ثم مالبثنا أن أبحرنا يوم التاسع والعشرين من بريريال الموافق ١٧ يونيو .

وقد استسلمنا طوال مسيرتنا لنفس التكهنات والأحاديث التى أثارت خواطرنا فى طريقنا من تولون وحتى مالطا . فراح البعض يقول «سوف نعود أدراجنا إلى صقلية» فيرد آخرون «لا ، ألا ترون أن الاتجاه الذى نسير فيه يقودنا صوب كاندى؟ فتستطرد مجموعة أخرى قائلة «إنكم لمخطئون ، نحن نتجه الى مصر» . كان هذا هو أكثر الآراء سوادا وقد كان له أساس من الصحة . ثم وضع الجنرال حدًا لجميع منازعاتنا وقلقنا بالبيان التالى :

١٢ يوليو (١٧٩٨م) البيان الثانى لبونابرت

مركز القيادة على متن السفينة «اوريون» ، ١٤ ميسيدور من العام السادس .

من بونابرت ، عضو المجلس القومى ، والقائد العام

أيها الجنود :

ستقومون بغزوة سيكون لها أبلغ الأثر على الحضارة والتجارة فى العالم . وستكون أكبر ضربة توجه لإنجلترا فى انتظار أن تقضوا عليها بالضربة القاصمة . ستكون المسيرة شاقة ، وستخوضون العديد من المعارك ، وسيكون النصر حليفنا لأن الأقدار فى صالحنا .

فالمماليك ، الذين يفضلون التجارة مع الإنجليز دون سواهم ، والذين أمعنوا فى إذلال مفاوضينا ، واشتد طغيانهم على سكان النيل التعساء ، سيصبحون بعد وصولنا ببضعة أيام ، أثرا بعد عين .

اعلموا أن الشعوب التى نحن بصدد العيش معها هى شعوب محمدية ، وأول أسس إيمانهم هى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . لا تعارضوهم ، وعاملوهم مثلما عاملتم اليهود والطلاينة ، راعوا مفتى ديارهم وأئمتهم كما راعيتم الأحبار والرهبان ، ولتنظروا إلى احتفالياتهم وطقوسهم التى شرعها القرآن ، ولمساجدهم ، بنفس عين التسامح التى أوليتموها للأديرة والمعابد اليهودية ، لدين موسى والمسيح .

لقد كانت الفيالق الرومانية تحمى جميع الأديان . وسوف تجدون فى هذه المنطقة عادات تختلف عن تلك التى عهدتموها فى أوروبا ، فعليكم أن تألفوها . ولتعلموا ، أن الشعوب التى نحن بصدد التوجه إليها تعامل المرأة بصورة تختلف عنا ، فقط تذكروا أن المغتصب أينما كان ، إنسان متوحش . وأن النهب ، وإن لم يُغن إلا فئة قليلة من الرجال ، إلا أنه يسربلنا بالعار ويدمر مواردنا ويجعلنا أعداء الشعوب التى من مصلحتنا أن نتخذها أصدقاء .

أول المدن التي سوف نجتازها ، شيّدها الإسكندر . سيكون لنا فى كل خطوة ذكريات عظيمة ، خليقة بإثارة فخر الفرنسيين .

بونابرت

بعد أن تيقنا بهذا الحديث من أن مصر هى هدف هذه الحملة ، رحنا ندعو إلى أن تكلل حملتنا العظيمة المجيدة بالنجاح . أخيرًا سوف نرى هذه الأرض العتيقة ، مهد العلوم والفنون ، يالها من فرحة ! سوف نشهد هذه الوديان التى قاد فيها بنو إسرائيل قطعانهم . تلك الآثار الخالدة صنيعة قدرة الفراعنة ، هذه الأهرامات ، والمسلات ، وأطلال المعابد القديمة ، هذه المدن ، هذه البقاع التى شهدت مفاخر المقدونيين والروم

والمسلمين وأقدس ملوكنا ! كم من الأشياء كفيلة بأن تلهب خيال وشجاعة ضابط فرنسي حظه من العلم قليل ! ليتنا نصل سريعًا ، فكم نحن بشوق كى نطأ بأقدامنا هذا الثرى ، مثلما فعلت من قبلنا جحافل الجيوش المقدونية والفيالق الرومانية . هذا التراب الذى شهد معارك الحروب الصليبية المقدسة . كم نتوق للتفوق على الأبطال الوثنيين ، وللثأر لدماء المسيحيين أسلافنا .

هكذا ، رحنا نتفاخر بأننا سنعيد الحضارة إلى هذا البلد ، ونعيد السيادة للعلوم والفنون ونحقق الوفرة والرخاء والخصوبة والسعادة . سوف تعوضنا تلك المستعمرة الجديدة عما تكبدناه من خسائر من جراء الدهاء الإنجليزى ، وما سلبنا إياه من بقاع فى العالم الجديد . كيف السبيل إلى التعبير عن تلك الأوهام الجميلة التى راحت تداعب أذهاننا فى هذه اللحظات وتحتل الجانب الأكبر من أحاديثنا ؟ هذه الرياح التى بدت مواتية لرغباتنا دفعت بنا صوب هذه المدينة التى لاحت لنا فى الأفق مآذنها وأبراجها . فأرسل الجنرال فرقاطة فى رحلة استكشافية . وسرعان ما رأت سفينة مصرية قادمة فلم تتحاشاها ، بل دنت منها . وبعد الاستطلاعات التقليدية فى مثل هذه الظروف اقتيدت السفينة السكندرية قهرًا إلى سفينة القيادة .

لم يكن أمام القائد المصرى سوى الانصياع ، فقدم إلينا ، وأنبأنا عن الأسطول الإنجليزى الذى ظهر قبل يومين أمام ميناء الإسكندرية . حينئذ ، تجددت مخاوفنا «ماذا لو أنها اعترضت إنزالنا مزيدا من القوات ؟» .

ها هى أشرعة إنجليزية ! لابد أننا سنلاقى مقاومة متصلة ، بل وربما مشؤومة . صاح بونابرت : «أيها الحظ ، أتتخلى عنى ؟ أمهلنى خمسة أيام فقط . . . !» .

تابعنا مسيرتنا يحدونا عزم شديد . وبلغنا شواطئ مصر دون معوقات . ولم تكن السفينة التى بلغنا بها سوى سفينة فرنسية يطلق عليها اسم «لا جوستيس»[1] جاءت لتنضم للأسطول . وقد كانت حينئذ فى طريقها لاستدعاء قنصلنا فى الإسكندرية .

عند حلول الليل ، أرسينا بمجاذاة الشاطئ زوارق مزودة بمدفعية على جوانب الإسكندرية . وتحت حمايتها بدأت بعض الوحدات التابعة لمختلف الفرق تباشر عمليات الإنزال على الرغم من مقاومة الفرق المصرية وجزء من شعب الإسكندرية . تلك الفرق تسمى بالمماليك[2] ، وهى من سلاح الفرسان وتعمل لحساب البكوات وفى خدمتهم . كلها تمتطى صهوة خيول أسرع من الريح ، وأفرادها مسلحون دائما بغدارة وزوج من المسدسات وسيف فائق الجودة . لا يوجد من يستطيع التغلب على هؤلاء الخيالة . وعلى الرغم من مهارة فرساننا إلا أننا لا يمكن أن نضاهيهم بهؤلاء بسبب فارق الخيول .

تقاسم كل من الجنرال بون وكليبر ومينو قيادة القوات المؤلفة من ألف وثلاثمائة رجل تقدموا صوب الإسكندرية دون مدافع أو فرسان . بينما استمر باقى الجيش فى عمليات الإنزال ، وراحت قوات المدفعية تنظم صفوفها فى اتجاه الإطلاق . وقد بادر ثلاثمائة من الخيالة العرب الرابضين فى الأماكن المرتفعة الواقعة حول المدينة بإطلاق أولى طلقات بنادقهم ، ثم انسحبوا فى عجالة عند رؤيتهم وحداتنا الثلاث . ومالبث بونابرت أن بلغ أسوار مدينة العرب ، التى يسمونها المدينة العتيقة ، وهيأ نفسه لبدء المفاوضات ، حينئذ كشفت سرية عن مدفعيتها بصورة مباغتة وفتحت النيران على جنودنا ، فحق عليهم جلب النصر لنا .

(١) ومعناها «العدالة» (المترجمة) .
(٢) مملوك كلمة تعنى مكتسب ، مشترى .

رددنا على طلقاتهم بقصف عنيف ، وطرحنا أرضا هذه الحثالة من الفلاحين الذين كان المماليك يحتمون بهم . ولم تلبث قواتنا المدفعية أن ساندتنا بقذائفها. وسرعان ما فروا من أمامنا واحتشدوا بعيداً ولحقوا بفرق كانت للتو قادمة ، الأمر الذى بث الطمأنينة فى نفوسهم وشجعهم على خوض قتال جديد . ومن جانبنا ، ظلت تتلقى بصفة مستمرة إمدادات إضافية ، وانتظرت بكل الثبات عدواً ظنوا أنه لا يقهر نظرا لسرعة خيوله .

هجم العدو للمرة الثانية ولقى هزيمة أنكر من الأولى فانسحب ، وحاول عدة مرات النيل من كتائبنا التى راحت فى كل لحظة تزداد عدداً وعدة . وما لبثنا ان اقتحمنا المدينة واستولينا عليها عنوة . فتسلق البعض الأسوار ، بينما اقتحم آخرون الأبواب .

وقد عسكر البعض منّا خارج المدينة ، والبعض الآخر داخلها . أما مركز القيادة فاتخذ من سكن كبراء المدينة مقرا له .

سقوط الإسكندرية :

دخلنا الإسكندرية فى الخامس عشر من ميسيدور من العام السادس ، الموافق ٣ يوليو .

بث الإنجليز الفزع فى أرجاء المدينة قبل وصولنا ، وصورونا فى صورة الغازى المتوحش الدموى المغتصب عدو الشرائع جميعها ، كما توقع سكان الإسكندرية أن ننتقم منهم شر انتقام بعد أن قاومونا وشعروا أنهم استحقوا انتقامنا . كل هذا جعلهم يعتقدون أن الدمار سيلحق بمدينتهم بعد أن تم الاستيلاء عليها ، وأننا سنعمل فيها الحديد والنار طبقا لقانون الحروب .

وكم كانت دهشتهم بل إعجابهم حينما رأوا اعتدالنا ورقتنا وإنسانيتنا التى طالما شككت فيها بعض الدول . كما لمسوا احترامنا لدينهم حتى وإن شاع عنا أنه لا دين لنا ، إضافة للحماية التى كفلناها للأشخاص والممتلكات . كل هذا أسهم فى بث الطمأنينة فى نفوس هذا الشعب المفزوع المخدوع، لا سيما بعد أن استمعوا إلى البيان التالى الصادر عن القائد العام .

الإسكندرية – فى ١٥ ميسيدور من العام السادس

من بونابرت عضو المجلس الوطنى والقائد العام للجيش

إلى الشعب المصرى

منذ زمن بعيد ، دأب المماليك الذين يحكمون مصر على إهانة الأمة الفرنسية ، وإذلال تجارها . وقد حانت لحظة العقاب . فمنذ أمد بعيد وهذه الحثالة من العبيد الذين تم شراؤهم من القوقاز وجورجيا ، يمعنون فى طغيانهم ويستبدون بأفضل أجزاء العالم . ولكن الله ، والأمر له ، قد قضى بأنه آن الأوان لنهاية ملكهم .

ياشعب مصر ، سيقولون لكم إننى جئت للقضاء على دينكم ، فلا تصدقوهم . بل قولوا لهم إنما جئت لأرد لكم حقوقكم ، وأعاقب مغتصبيكم ، وإننى لأوقر الله ورسوله والقرآن أكثر من المماليك .

قولوا لهم : إن الناس جميعا سواسية أمام الله ، وإن الحكمة والمعرفة والفضيلة هى فقط التى تقيم بينهم الفروق . فأين هى تلك الحكمة والمعرفة والفضيلة التى تميز المماليك ليكون لهم كل ما من شأنه جعل الحياة رغدة ناعمة ؟ فما من أرض طيبة أو عبد جيد أو خيل أصيلة أو ضيعة جميلة إلا وكانت ملكا للمماليك .

فإن كانت مصر ضيعتهم ، فليطلعونا على الحجة التى منحها الله لهم . ولكن الله عادل رحيم بعباده .

على جميع المصريين أن يأخذوا على عاتقهم مهمة إدارة جميع المناصب . وعلى أكثرهم حكمة وعلمًا وفضيلة أن يحكموا ، وسوف يهنأ الشعب . لقد كان لكم يوما مدن كبيرة وخلجان واسعة ، وتجارة عظيمة . فمن قضى على كل هذا إلا طغيان وظلم المماليك ؟

أيها القضاة والمشايخ والأئمة ، قولوا لقومكم إننا سنكون أصدقاء المسلمين بحق . ألم نقض على البابا وفرسان مالطا ؟ لأن هؤلاء الأعداء اعتقدوا أن الله أراد منهم قتال المسلمين. ألم نكن دوما أصدقاء للسلطان ، سدد الله خطاه ، وأعداء لأعدائه عبر القرون ؟ ألم يكن المماليك دائما على العكس من هذا متمردين على سلطته بل ولا يعترفون به ؟ ذلك أنهم قوم تقودهم أهواؤهم .

فأما من كان معنا ، فسوف يسعد سعادة جمة ! سوف تزدهر ثرواته و يزداد رفعة . وأما من بقى حياديا فسوف يهنأ كذلك ! فأمامه وقت كى يتعرف علينا وسوف يكون فى صفنا .

ولكن الويل، كل الويل لمن سيجنحون إلى صف المماليك، ويتسلحون ليقاتلونا . فلن يكون ثمة أمل بالنسبة لهم . فالموت سيكون حليفهم .

المادة الأولى :

على جميع القرى الواقعة فى نطاق الأماكن التى سيجتازها الجيش أن توفد نائبا عنها يعلن ولاءه لقادة الفرق العسكرية ويتعهد بإعلاء رايات الجيش .

المادة الثانية :

جميع القرى التى ترفع السلاح فى وجه جيوشنا سيكون مصيرها الحرق .

المادة الثالثة :

على القرى الخاضعة للجيش أن ترفع راياته إلى جانب رايات السلطان .

المادة الرابعة :

على المشايخ القيام بتشميع جميع ممتلكات وبيوت ومحال المماليك ، مع العمل على عدم تعرض أى منها للنهب .

المادة الخامسة :

يستمر المشايخ والقضاة والأئمة فى الاضطلاع بمهام وظائفهم . ويلازم جميع السكان منازلهم ، وتقام الصلوات - كما هى العادة - وليبتهل الجميع إلى الله وليشكروه على هلاك المماليك ، وليهتفوا : «المجد للسلطان ! المجد للجيش الفرنسى الصديق ! الويل للمماليك ! والخير كله لشعب مصر !» .

بونابرت

كان لهذا البيان أثر سريع محمود ، فقد بدد المخاوف حتى أن الشعب أظهر لنا مودة عن ذى قبل ، وعرض علينا خدماته ومساندته . وسرعان ما

احتلت سفن القافلة الميناء . أما سفن الأسطول فبلغت مرسى أبوقير لتتم إنزال سلاح المدفعية . وقد انتشرت فرق القذائف في جميع النقاط الحصينة بالميناء ، بل إن العرب البدو الذين قاوموا المفرزة في الصباح ، أرسلوا ثلاثين شخصا ممثلين عنهم يهدون الخبز للجنرال تعبيرا عن تحالفهم . وقد تناول الجنرال الفرنسي هذا الخبز ، ليثبت حسن نواياه ، بل وأهداهم بعض الهدايا . ومضى العرب وكلهم عرفان بالجميل ، وإن لم يمنعهم هذا من نهب جميع الفرنسيين الذين صادفوهم في طريقهم .

البدو

وقبل أن أمضى فى حديثى ، أعتقد أنه لا مانع من أن أعطى للقارئ فكرة عن شعب مصر . يسود الاعتقاد بأن العرب البدو هم السادة السابقون لهذا البلد ، وأن المماليك قد طاردوهم مثلما فعلنا نحن أيضا . وهم دائمو السُكنة فى خيام بالصحراء . قادتهم أمراء يعقبهم المشايخ من حيث الأهمية ، وهم يدّعون أنهم أبناء إسماعيل بن إبراهيم وهاجر .

ليس لهؤلاء البدو من مهنة إلا السرقة والنهب والقتل وقطع الطريق. فالويل للمسافر الذى يقع بين أيديهم لا سيما إن كان الأضعف ! وهم يمتطون فى كل مكان صهوة خيول عربية مثل المماليك . ولا يفوقهم أحد فى الرذائل . وأشد ما أدهشنى أن كل بدوى يمتطى حصانًا ومسلح بغدارة مسدسين وسيف فائق الجودة . وتصاحبه دائما أَمَة شابة ، تمسك بعنان الجواد بيد وتتبعه مترجلة لا تتركه أبدا ، أيا كانت سرعة الجواد .

السكندريون

أما سكان الإسكندرية ، وهم أول من وقعت عليهم عينى من الأفارقة ، فتلك هى الصورة التى انطبعت فى ذهنى عنهم :

بصفة عامة هم أشداء ، مفتولو العضلات ، طوال القامة ، بشرتهم بين السمرة الخمرية والداكنة ، لا يستر أجسادهم سوى بعض الأسمال البالية التى تلتف بصورة غريبة حول أجسادهم . ويضعون على رأسهم خرقا ملفوفة كعش العصافير ويسمونها «عمامة» . وهم لا يرتدون جوارب أو أحذية . كما يسير البعض كما شكلتهم الطبيعة ، فيبدون صنيعتها كاملة . تلك هى الطبقة الفقيرة من الشعب ، وهم مزارعون يعملون لدى المماليك الذين يملكون كل شىء من بيوت وأراضٍ وممتلكات يحصلون منها على عائد سنوى كبير . ولا يختلف رداء الأغنياء عن الفقراء إلا بجودة وجمال الثوب . فهم يضعون فوق ثوبهم رداء من الحرير الثمين يشبه رداء الرهبان الفرنسيين ، مع الفارق بأن رداءهم باهظ الثمن . وسراويلهم فضفاضة حتى أنها لتحتاج – على الأقل - لعشرة أو اثنى عشر ذراعًا من القماش لتفصيلها . أما أحذيتهم فعبارة عن خف مغربى ضخم .

وينم شكل وخامة عمامتهم عن ثمنها الباهظ . وهم يحلقون شعرهم كلما نما ، ولا يتركون سوى خصلة صغيرة أعلى الرأس . ويعللون هذا بأن محمدا سوف يأتيهم فى لحظاتهم الأخيرة ليجذبهم منها ويقودهم إلى الجنة . أما لحاهم ، فيطلقونها ولا يحلقونها أبدا .

وترتدى المرأة رداء طويلاً أزرق اللون لا يغطى إلا مساحات قليلة من جسدها وهو يكاد يكشف تماما عن صدرها فيجعله دائما معرضًا لنظرات الجميع . ولكن الأمر يختلف بالنسبة للوجه ، فهى تمعن فى إخفائه بطرحة سوداء مثبتة عند العنق ، وأخرى تعلو الرأس مثبتة بمشابك للشعر ، بحيث لا تبدو منها إلا عيونها ، وكأنها خوذات فرساننا الشجعان بمقدمتها المتحركة والتى كانوا يضعونها خلال المبارزة بالرماح . وثوب المرأة غالبا من الرداءة بحيث إنه لا يستر ما هو بحق جدير بستره أكثر من الوجه . والمرأة تسير حافية مثل الرجال ، وبشرتها تعادل فى سمرتها بشرتهم . وفى كافة

القرى ، تسير الفتيات فى سن الثانيـة عشرة إلى الرابعة عشرة عرايا ، فقد بلغ بهم الفقر مبلغه حتى أصـبحوا على هذا القدر من الفحش الذى يصدم عاداتنا وتقاليدنا.

أما بيوت هذا البـلد فهى متواضعـة مشيدة بالطمى، ولا يوجـد ما يفوقـها قذارة . وسكانها لا يمـلكون من أثاث وأدوات سوى بعض الأوانى الفخارية وقصـعة وبضع ملاعق ومغارف خشبـية . وهم يجهلون الدواليب نظرا لنقص الأخشاب والنجارين . ويتغذى هؤلاء القوم على بعض من لبن الماعز ، وقطع من العجين المخـبوز فى الشمس . أما القـمح الذى يعرفونه ويزرعونه مرتين فى العام ، فلا يتم الاسـتفادة منه إلا فى المدن لعدم وجود طواحين . وقد حرم عليهم محمد الذين يتعبـون شريعته استخدام النبيذ ، وبالتالى فـهم لا يشربون سوى المـاء ، وفى بعض الأحيان ، على سـبيل التسرية ، يشربون مـشروبًا مصنوعًا من عصير بلـح النخيل ، يكاد يقترب فى مذاقه من مشروب العرق سوس الذى نعرفه .

هذه هى العـادات المتبـعـة فى الريف بل فى المدن التى تضم شـوارع مظللة فى معظمها بغطاء أو بسقيفة من سعف النخيل أو بلحاء الشجر .

وقد أدهشـتنى كذلك طريقة المصـريين فى الطعام . فموائدهم عـبارة عن قطعة كبـيرة من الجلد على هيئة دائرة يفترشـون بها الأرض على قطعة من الحـصيـر . يجلس الرجال أصـحاب المـقام الأعلى حـول تلك المـائدة مربعين أقدامهم كما يفعل الحائكون فى بلادنا .

أمـا من هم دونهم فـيـركـعون أو يجـلسون القـرفـصـاء . وهـم لا يستخدمون الشوكَ على الإطــلاق بل ويعـتـبرون عدم استخـدامها من العبـادات إذ يقولون إن شـفاعـة محـمد ستـحق لمن يأكلون بأصابـع اليد الثـلاثة . وعلى هذا ، فـهم يتناولون جميع اللحـوم بأصابع اليـد اليمنى دوما ، فاليسرى مخصصة للاغتسال بعد قضاء الحاجة . . . واللحوم تقطع

وتـــترك حتى تنضـــج تمــاماً ممــا يسهل فـصــل نســائرها بسـهــولة ، فلا تستخدم السكاكين بــدورها . كما أنهم يقدمون الثريد واللحم المسلوق والمحمـر والقديد الحلوو الـسلطات والفــاكهــة فى نفس الوقت . وهـم لا يشربون إلا إذا استدعت الضرورة القصوى شرب المـاء . وما إن يفرغوا من الطعــام حتى ينهـضوا حـامدين ربهم ، ويـشرّبون المـاء ويغـسلون أيديهم بالصابون . ثم يتناولون القهوة ويدخنون الغليون .

أما العــامة ، فيـأكلون بصورة أقـذر. فهم يأخذون حـفنة من اللحم ويضعونها فى قصعة خشبـية كبيرة مع الأرز الذى يكورونه فى قبضة يدهم ثم يضعون هذه الكرات فى فـمهم فتملؤه عن آخـره . فإذا تبقى شىء فى أيديهم أو على ذقونهم ، ينفـضونه فى القصعة ولا شىء غـير هذا . وبعد أن يفرغوا من الطعام ، يشربون جرعات كـبيرة من المـاء من جرة يتبادلونها فيمــا بينهم . وبعد أن يغسلوا يدهم بالتراب بدلا من الصــابون ، يقومون كذلك بتدخين الغليون أو شرب القهوة .

أما اليخنى الذى يعد فى قــدر عادى جداً ، فليس سوى أرز تم غليه بعض الوقت فى مــاء ساخن أو فى حـســاء اللحم مع الزعفـران والزبيب والبازلاء والبصل حتى ينضج بعض الشىء ، فـيغطى جيداً ويوضع بالقرب من النار حتى يتم نضجه ويزداد حجمــه . حينئذ يضاف إليه الفلفل وبعض لسكر أحيانا . وهم يضيفون الأرز أيضا للـثريد المكون - عادة - من قطع من الضأن أو المـاعز أو الدواجن ، وهذا مــا يسميه جنودنا «علك» ، وهى كما نرى ليست بالوجبة الجذابة .

ولطالمــا تحدث المؤلفــون السابقــون عن الحواة آكلى الثعابين ، وأقــر وجودهم بعض الرحالة المعاصرين. ولكن فيما يخصنى لم أر سوى رجال عرضون ثعابين توازى فى ضـخامتها تلك الساق التى يلفونهــا حولها ، وقد وضـوهم على المكوث فى حلقـات دائرية دون أن يصـيبـهم من هذا أدنى

ضرر . وهم فى هذا يشبهون رعاة الدببة فى فرنسا . ولكننى أبدا ما رأيتهم يمزقون الثعابين بأسنانهم ويلتهمونها .

كما أنهم فى مصر لا يحرثون الأرض . فحينما يتراجع النيل ، وبينما الأرض ما تزال رطبة ، يتم بذر الحب على الطمى دون حاجة لزراعته .

وإننى أترك لفطنة القارئ فرصة تخمين إن لم تكن إقامتنا فى مالطا على فظاعتها أرحم بكثير مقارنة بهذا البلد . أعتقد أنه من غير العسير عليه إدراك أن الإسكندرية التى أملنا أن تحمل لنا أفضل الذكريات وأكبر المتع لم تكشف لنا إلا عن هذا البؤس الكريه وعن هذا القبح وهذه القذارة . كل هذا جعلنا نفتقد بشدة طيب العيش فى وطننا ونتوق للعودة إلى أوروبا . فلقد خرجنا للأسف من وضع سيئ لنقع فى أسوأ منه . فالنساء على بشاعتها فى مالطا بدت لنا وكأنها إلهات الجمال مقارنة بنساء الإسكندرية . فبقدر ما احتقرناهم فى ذلك الحين، بقدر ما أصبحوا فيما بعد محط رغباتنا .

ورحنا نقول كم تدهور الحال برعايا وربيبات كليوباترة ، الجميلة ! ألسنا على حق فى خوفنا من أن تزداد الأمور سوءا إذا ما استمرت فى هذا التدهور ؟ صحيح أن رضانا لم يكن بحجم انتصاراتنا !

لم يبق فى الإسكندرية من آثارها القديمة سوى عامود السوارى فى الجنوب ومسلتا كليوباترة واحدة مازالت قائمة أما الثانية فممتدة على الأرض . وقد جلست عليها ورحت أتجول فوقها وكأننى قزم صرع عملاقا وراح يطؤه بقدميه باستمتاع بالغ . ياله من رمز معبر لمصير المفاخر الإنسانية .

أما عامود السوارى فيشبه إلى حد كبير عامود ميدان فاندوم بباريس ، مع الفارق بأن تاجه كورنثى وجزءه مكون من كتلة واحدة . ويعتقد السيد

دولوميو ، أن هذا العامود أقيم فى العهد الذى تلى حكم قسطنطين ، فتاجه وقاعدته يحملون - فيما يرى - ملامح تدهور الفن المعمارى فى هذا العصر ، أما الجزع فينتمى فيما يبدو لعهد سابق كان الفن فيه فنًّا خالصًا .

وتشير المسلة القائمة للمكان الذى شيد فيه قصر كليوباترة . . ففى هذا المكان ، قامت الملكة المشهورة بجمالها ومواهبها وحيلها بإيقاع انطونيو فى حبائلها ، فقوضت نشاطه وغيبت وعيه وأوقعته فى أحضان الشهوات واضطرته للهروب فى رحلة نيلية بينما كان واجبه يقتضى أن يوجه أشرعته شطر روما التى كادت تغلق دونه بعد فعلته تلك . . بالقرب من تلك الأعمدة ، حملت ملكة مصر المتعجرفة وهى جالسة على عرش من الذهب لقب حرم انطونيو الذى ضحى بمجده من أجلها . وقد انغمست فى الملذات حتى فقدت سطوتها . . وأسلمت نفسها لأفعى سامة عقرتها ، بينما غمد انطونيو سيفه فى جسده ليمنح بموته الأجيال اللاحقة نموذجًا فريدًا وعبرة لعواقب شهوات العشق الوخيمة .

كنا سادة مالطا بموقعها الهام ، بينما لم يبق من الإسكندرية سوى أطلال مدينة كانت ذات يوم مزدهرة ومشهورة ، ونقائص شعب من العبيد منعدمى العقول ، سرعان ما أيقنا استحالة أن نجعله أكثر تحضرا أو أن نعيد إليه مجده القديم . بل إن هذه الحملة التى قمنا بها، لم تكن تساوى - فى رأينا - ما تكبدناه فى سبيلها من فقد لبعض رجالنا. فقد أصيب مائة مقاتل ولقى السيد مارس ، وهو قائد لواء ، مصرعه هو وبعض ضباط الصف والعسكريين . كما أصيب الجنرال كليبر ومينو والمساعد أول بسكال بجروح على درجة من الخطورة .

الخامس من يوليو عام (١٧٩٨م)

تحركت الجيوش في السابع عشر من ميسيدور لمطاردة المماليك ، وقد سار الجيش في ثلاثة اتجاهات : الاتجاه الأول صوب اليمين أما الوسط فأخذ طريقه إلى دمنهور بينما سار الثالث شمالاً بمحاذاة البحر متجها إلى رشيد . وكنت ضمن هذه المجموعة الأخيرة ، ومن ثم لا أعرف على وجه اليقين ما دار على الجبهتين الأخريين إلى أن نجتمع لاحقا . وكل ما أعرفه هو أن البدو العرب ظلوا يلاحقون جيوشنا ويتحرشون بها يوميا طوال مسيرتها، ولم يسلم من أذاهم كل من اضطرته ظروفه سواء بسبب التعب أو المرض ، للتخلف عن الصفوف والبقاء في مؤخرتها . لقد عانوا كثيرا بدورهم مثلما عانينا من الحر والعطش ونقص مواد الإعاشة على الرغم من عقدنا اتفاق سلام مع البدو . وتجدر الإشارة إلى أن هذا الاتفاق لم يعرف به الجميع بمجرد توقيعه ، وكان لابد من بعض الوقت قبل أن ينتشر الخبر ويصل إلى جميع الأنحاء القصية . ونظرا لجهل بعض القبائل بوجوده وفحواه فقد ظلوا يمارسون أعمال قطع الطريق علينا وعلى المماليك كلما سنحت الظروف .

غادرت فرقتنا ، وهي فرقة كليبر، بقيادة الجنرال دوجا الإسكندرية يوم ١٨ ميسيدور بهدف الاستيلاء على رشيد ، وهي بلدة واقعة على الفرع الغربي من النيل في أحد زوايا الدلتا . وما كدنا نبتعد عن الإسكندرية بمقدار ساعتين حتى وجدنا أنفسنا نسير في صحاري من الرمال ، لقينا فيها جميع صنوف التعب والألم والعطش .

سرنا تحت وطأة شمس لا تغيب حيث لا سكن ولا مصدر لمياه عذبة يروي ظمأنا ، يلفحنا لهيب شمس حارقة وسماء مشتعلة . وقد علمت جماعة من رفاقنا من بعض المسافرين أن ثمة مصادر مياه عذبة بالقرب من

البحر فأخذنا نحفر الأرض ولم نجد سوى ماء أجاج لا يفى باحتياجاتنا . . ولقى العديد من الجنود مصرعهم عطشا ، بينما مات آخرون من جراء شربهم لتلك المياه دون إعتدال أو تروى . ولم نعثر على مياه صالحة للشرب إلا حينما دنونا من أبى قير .

أقمنا مخيماتنا بالقرب من هذه المدينة الصغيرة ثم واصلنا السير فى صباح اليوم التالى . كان علينا اجتياز فرع صغير للبحر يفصل رشيد عن الإسكندرية .

لم يكن هذا اليوم شاقا مثل البارحة ، فقد اضطررنا للتوقف انتظاراً للمراكب التى ستعبر بنا ولم تكن قد وصلت بعد . وما إن اجتزنا البحر حتى أقمنا خيامنا ، ومكثنا بالقرب من هذه الشواطئ حتى رحلنا عنها يوم ٢٠ منه فى الساعة الثالثة صباحا. وقد لاقينا فى هذا اليوم أسوأ ما يمكن أن يفعله بنا العطش والحر . وما إن بلغنا رشيد حتى وقع أغلبنا صرعى التعب ، والتهمنا كافة المرطبات التى وقعت تحت أيدينا من ماء وأعناب ورطب . وقد باعنا اليهود بعض زجاجات من نبيذ ردئ بثمن باهظ .

أما رشيد ، التى بدت لنا لأول وهلة مدينة رائعة الجمال ، ما لبثت بعد شهور من إقامتنا فى مصر أن رسخت فى أذهاننا تلك الفكرة السيئة التى كوناها عن هذا البلد .

رشيد

هى مدينة مشيدة بصورة عشوائية شأنها فى هذا شأن كافة المدن المصرية . وهى ليست جديرة باسمها إلا بتجارتها المزدهرة مع الدول المجاورة ، وكذلك مع أوروبا التى تتواصل معها من خلال البحر الأبيض

المتوسط والتقاءه بالنيل . غير أن كل تلك الميزات لم تؤثر قط فى عادات سكانها التى لا تختلف فى شىء عما سبق أن وصفناه .

أقمنا فى رشيد يوم ٢١ من ميسيدور ثم غادرناها عند منتصف الليل . وقد تزودنا فى هذا اليوم ببعض المؤن من خبز وأشياء أخرى لازمة لسفرنا .

وقد لقينا من المنغصات قدراً أقل بكثير مما تكبدناه سابقا . وقد أمدنا النيل باحتياجاتنا من المياه العذبة التى كان حرماننا منها قاسيا من قبل . كما أمدتنا الأرض التى رواها النيل وجعلها خصبة بفضل فيضانه بموارد لم تمدنا بها الصحراء التى اجتزناها لتونا .

أقمنا مخيماتنا يوم ٢٢ منه على ضفاف هذا النهر ، على بعد خمسة فراسخ من رشيد . ثم رحلنا فى اليوم التالى ، فبلغنا الرحمانية حيث لحقنا بمجموعتى الجيش الأخريين .

يوم ٢٤ ، تفقد الجنرال بونابرت الجيش بكامل هيئته وجعله يأمل فى عودة سريعة إلى فرنسا والانقضاض على إنجلترا ، فأنسانا هذا الوعد كل همومنا وأوجاعنا التى لقيناها فى مصر . بل وجعلنا نواجه بنفس راضية كل ما كان ينتظرنا .

ما كدنا نصل إلى الرحمانية حتى تصدى لنا المماليك بهجماتهم الجزئية المتكررة . وقد حاول اللواء الخامس عشر الملقب بالتنين أن يهاجمهم غير أن سرعة خيولهم حالت دائما دون الوصول إليهم وقتلهم بالسيوف .

فى نفس هذا اليوم ، لمحنا بالقرب من معسكرنا بعض المراكب المصرية المحملة بالمؤن للقاهرة ، وقد أرادت أن تسير فى النيل فتصدت لها كتيبة بحرية وأرغمتها زوارق محملة بالمدافع وسفن قلاعية مسلحة على العودة أدراجها. وقد لاقت هذه المراكب المصرية فى طريق عودتها زوارق

فرنسية أخرى أرادت أن تجبرها على الاستسلام أو على القتال ، فتظاهرت بالاستسلام ، ثم ما لبثت أن حاولت الفرار . فما إن انكشف خداعهم حتى أطلقنا عليهم وابلاً من المدافع والقذائف . ولكن الأمر خرج من أيدينا ، فقد لاذوا بالفعل بالفرار .

سرت منذ عدة أيام شائعة تفيد بأن المماليك وقد عرفوا فى القاهرة بوجودنا فى الإسكندرية ، قاموا باعتقال جميع الأوروبيين المقيمين بالمدينة ويعتزمون ذبحهم ، مما جعلنا نسرع فى تحركاتنا .

معركة شبراخيت

استعددنا تمام الاستعداد لملاقاتهم . . وبعد اتخاذ بعض التدابير ، قام القائد العام بتكوين تشكيلات مربعة من وحداتنا وجعلها تتقدم تدريجيا . وقد حاول العدو القيام بعدة هجمات بسلاح فرسانه ولم يكن النجاح حليفه . فما كان منه إلا أن ولى الأدبار ثم عاود الرمح بخيوله فى محاولة لاختراق صفوفنا . وأخيراً ظن العدو أنه وجد ثغرة ينفذ منها عبر النيل ليصل إلى جيوشنا ، وما لبث أن اندفع بطيش فخور بما اكتشف . ولكننا كنا أعددنا العدة لكل شىء . فما كاد يتقدم بضع خطوات حتى عاجلناه بوابل من الطلقات النارية رشقه بها تشكيل فرنسى أعددناه فى كمين ، فسقط العديد من فرسان العدو صرعى على التراب المخضب بالدماء . بينما فر الآخرون وراحوا يحتمون بزوارق ضخمة كان عددها ثمانية أو عشرة متمركزة على النهر ، وبالمدفعية المتمركزة على الشاطئ . غير أن تشكيلاتنا البحرية من جانبها أردتهم قتلى بطلقات المدافع . ومالبث أن ردت الزوارق المدفعية بقيادة مراد بك ، وبدأت المعارك البحرية . تأرجحت كفة النصر حتى كاد أن يكون حليف سفن العدو ، التى

كادت أن تتمكن من أقوى سفننـا القـلاعية ، لولا الظهور المفاجئ لبعض سـفننا، وتصـديهـا لهـا بقـوة حـتى تمكنت منـه . بينمـا تقـدمت بعض التشكيلات تجاه سريتنا المدفعية الأرضية ، واستولت على المدافع .

وبعد أن شن العدو عدة هجمات متفرقـة غير مجدية قرر أخيراً القيام بهجمة مكثفـة . تحرك سلاح فرسانه وانقض علينا بسرعة البـرق ، فتركته وحداتنا يقترب حتى بلغ حدا معينا ففـتحت عليه نيرانها ورشقته بوابل من القذائف .

تحول الأمر إلى مجزرة مروعة ، ولم ينتظر الباقون ما سوف تسفر عنه الهجمات الأخرى التى كان مصيرها على أية حال هزيمـة نكراء ، بل فروا سريعا . ولا شك أن جيشنا مدين بهـذا النصر لجلده وشدة عزيمته . فعلى الرغم من نقص الخـبز والمـرطبات إلا أن الجندى اسـتطاع أن يسـتمـسك بالصبـر ، ولم تحول معـاناته دون إظهار شجـاعته التى طالما برهن عليـها بالأدلة الدامغة . وقد زاد من سعادته بهذا النصر أمله فى تحسن مقدراته .

وحرصا من الجنرال على تلطيف هذه المقدرات ، جـعلنا نسير بمحاذاة النيل حتى تكون مـصادر المياه العذبة فى مـتناولنا طوال الطريق . لم يكن من السهل علينا الحصول على الخبـز ، الذى كان عملة نادرة . فالفلاحون المصـريون لا يسـتهلكونه إلا بـقدر ضـئيل ، بل إنهم لا يعـرفون كـيف يستخدمونه . ولم نكن نملك ما نسد به رمقنا سوى بعض الفول الردىء ، وقد تـوفر لدينـا -أحيـانا- بعض اللحم الجاموسى الـردىء ، مما اضطرنا إلى اللجوء إلى لحم الخيول عوضا عنه .

بهـذه الموارد الضـئيلة ، واصـلنا السـيـر أيام ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ دون مواجـهة أى أعداء سوى البـدو الذين كانوا يتبـعوننا من الخلف كمـا تتبع أسمـاك القرش السفـن فى البحار ، لذبح ونهب من تـأخر أو تكاسل عن

الصفوف . بل إنهم كانوا يرمحون أحيانا بمحاذاتنا ليلقنوا أللذين ينعزلون عن جموع الجيش نفس المصير .

وليس من العسير تبين كيف أن حالة الضيق الشديد التى لاحقتنا طويلا هيأت الظروف لحالة من الفوضى والبلبلة والسلب والنهب . ولم تنجح يقظة الضباط دائما فى تجنب هذه الفعال . وقد فاق الضباط آنذاك فى معاناتهم الجنود الذين كانوا يوفرون غذاءهم عن طريق السلب والنهب والعنف ، مما كان يضيع على الضباط أية فرصة لشراء ما يحتاجونه بنقودهم . وقد كانت قواعد اللياقة تمنعنا من تناول الطعام مع رؤسائنا ، فكانت النتيجة أنه بينما راح الجنود يتغذون بالحمام والدواجن ومسروقات أخرى ، اقتصر طعام الضباط لعدة أيام على حصة فول مقززة غير كافية .

لم نعان من قبل فى أى مكان العوز والتعب على هذا النحو . ما بين سير إجبارى على رمال حارقة وحرمان من النبيذ والخبز والأغذية المقوية ، ثم إقامة المخيمات والمبيت طوال الليل وسط أعداء لا هم لهم سوى مفاجئتنا . . فلا يبقى لنا ساعة تغمض لنا فيها جفون أو ترتاح فيها الأجساد .

ألم تكن كل هذه العذابات مجتمعة كافية لإنهاكنا وجعلنا ننفر من كل شئ ؟ حتى أن العديد من العسكريين تساقطوا تحت وطأة الجوع والعطش بينما أطلق البعض النار على رأسه يأسا[1] .

وقد يسألنا قارئ نافذ الصبر : «وما الذى حملكم على تحمل كل هذا ؟» وردى أن مثل هذه الأمور لا تخضع لمشيئة لأمثالنا . وعلى الجيش أن يكون مطيعًا وسلبيًا . وليس له أن يناقش أوامر قادته أو أن يتساءل عن عدالة الحرب التى يخوضها .

(١) شاهدنا أخوين يتعانقان ويمسكان ببعضهما ويلقيان بأنفسهما فى النيل .

ولكن لنترك هؤلاء المغرضين جانبا باعتراضاتهم التى لا طائل من ورائها ولنكمل أحداث رحلتنا وقصتنا .

السادس عشر من يوليو (١٧٩٨م)

فى الليلة من ٢٨ إلى ٢٩ من ميسيدور ، وقد أنهكنا الحر والتعب والنعاس ، ألقينا بأجسادنا على الأرض متكئين برؤوسنا على حقائبنا . وما كدنا نذوق طعم النوم إلا وتنبهت أسماعنا لصوت هذه الصيحة المحذرة : «إلى السلاح ! إلى السلاح» . فانتفضنا من مراقدنا ومازلنا نصغى لهذه الأصوات الكئيبة المقبضة ترددها حناجر خائرة القوى وكأنها قادمة من القبور لتعلن لنا عن مذبحة عامة حتى ظننا هدير مياه النهر أنات زملائنا الذين يلفظون أنفاسهم الأخيرة . ثم بدأت طلقات النيران تتردد حولنا بل وتصل إلى معسكرنا . . كل شىء ضاع . . ولكن لنبذل غاليا حياتنا . التقطنا بنادقنا وقد انشغلنا بهذه الخاطرة، وفى نفس اللحظة ، تهيأنا للمعركة والدفاع ، لم يكن لهذا الإنذار عواقب وخيمة . كل ما فى الأمر ، أن بعض المماليك راحوا يحومون حول معسكرنا ، فلمحهم جنودنا فى الخطوط الأمامية وكانوا يأملون أن يفاجئوهم وهم نيام . ولكن بعد أن طنت رصاصاتنا فى آذانهم ، بينت لهم أن الجميع ليسوا نياما فى معسكرنا . وقد عاود هؤلاء البرابرة محاولاتهم الطائشة مرات عديدة فى هذا الليل الدامس . . حتى فر النوم تماما من أعيننا .

السابع عشر من يوليو (١٧٩٨م)

فى اليوم التالى الموافق ٢٩ ميسيدور واصلنا مسيرتنا إلى القاهرة دون أن تزيد حصتنا من الطعام على ثلاث قطع من البقسماط للفرد .

وقد استولينا على إحدى مراكب العـدو السائرة فى النيل ، فأمدتنا بكميات إضافية من البـقسماط السيئ . كان شديد الملوحة، ومـعجون بدقيق ردىء ومادة دهنية نفرت منـها الجرذان فتركتهـا . لا شيء غير هذه الظروف كان ليحملنا على الأكل منه . على أية حال ، لم يكن هناك مجال لحدوث أى سوء هضم ، فحصة الفرد لم تكن تتجاوز الاثنتى عشرة أوقية .

كنا نجهل متى سنأخذ المزيد فرحنا نسـتهلك واحدة كل يوم حتى نفاد الكمية ، أى أننا بلغة الحرب «رشدنا من استهلاكنا» . أما عن نفسى ، فقد قسـمت الكمية إلى ثلاثة أنصـبة ، كل واحد مكون من أربعة أوقـيات ، حتى تكفينى ثلاثة أيام . وكنت أحرص قبل أن آكله على نقعه فى الماء مدة ساعة - على الأقل - حتى يلين وتخف ملوحته قليلا .

فى هذا اليوم ، وصلنا إلى وردان[١] حيث عـسكرنا فى الثلاثين من الشهر وسط غابة من النخيل . لم يكف البقـسماط الذى أمدونا به لتجديد قـوانا وتقوية أجـسـادنا التى حرمت طويـلا من الأغذية اللازمـة. وبما أن الحاجة أم الاخـتراع فقد تمكن الجنود من إيجاد وسـيلة لطحن بعض القمح وصنع خبز مـثل الذى نأكله فى أوروبا ، مما خفف عنا وطأة الوضع بعض الشيء . علاوة على هذا وجدنا فى البطيخ مرطباً شـهياً وفيرا ، نجدنا عدة مرات منـذ أن تركنا الإسكندرية . والبطيخ نوع من الشـمام يحتـوى على عصيـر سكرى مغذٍّ . وأستطيع أن أجزم بأن نصف الجـيش مدين له ولمياه النيل العذبة بحياته .

فى وردان ، أتى القـائد العام يتـفـقد مـواقع الجيش ، وانخـرط فى صفـوفنا يتجـاذب أطراف الحديث مع الجنود دون تكلف ، حـتى أنهم لم يخشوا إبداء تبرمهم ، بل راحوا يحيطونه علما بمبلغ بؤسهم .

(١) كان هذا فى وردان حينما قام الأب سيكار بحرق أكوام من المخطوطات القديمة المحفوظة فى حافظة كبيرة ، بدعوة أنها كتب سحر .

ولم يكن كل هذا غائب عنه ، ولكنه أراد جس نبض الجيش بلباقة . ولم يدخر وسعا فى إبداء الوعود ليخفف عنهم ويحثهم على الجَلَد . وراح يقول : «اصبروا بضعة أيام أخرى ، وستجدون وفرة فى كل شىء فى عاصمة مصر: الخبز الأبيض، اللحم الطيب ، النبيذ الفاخر، السكر ، القهوة التركى» .

لم يكن أمامنا إلا الرضى بوعوده . وبمجرد أن ارتاح الجيش بعض الشىء فى وردان ، تلقى أمرا باستئناف رحلة أوجاعه إلى القاهرة . كان هذا فى الأول من ترميدور من السنة السادسة ، الموافق التاسع عشر من يونيو . كان عناء هذا اليوم الأول أهون من الأيام السابقة . . فقد خفف يوم الراحة من إرهاقنا بعض الشىء. ولكن الحال تغيرت فى اليوم التالى ، فكأن الشمس كانت تضاعف من حريقها كلما تقدمت بنا المسيرة حتى أننا لم نعد نتنفس سوى هواء حارق ، وفقدنا المزيد من زملائنا سيئى الحظ .

معركة الأهرامات

لم يمر ثالث أيام هذا الشهر دون ملاحقة بعض القوات المتقدمة لجيش مراد بك. لقد دفعناهم أمامنا من قرية إلى أخرى حتى أدركنا جيوشهم وقد بدأنا نكتشفها فى الثانية من بعد ظهر هذا اليوم . كان الحر خانقا حتى كدنا نلفظ أنفاسنا. سرنا منذ الصباح فى تشكيلات مربعة، ولم يكن من سبيل للانفصال عنها لنروى ظمأنا من النيل الذى يجرى بالقرب منا .

اقتضت الظروف كل هذا الحذر ، فقد كنا نعلم أن العدو يملك مفاتيح مجرى النيل . ومع ذلك ، هرع بعض الجنود من وطأة العطش إلى النهر على الرغم من معارضة القادة . وما كادوا يشربون بعض جرعات من الماء حتى ظهر العدو فى الأفق . وسرعان ما أعلنت دقات الإنذار وطار كل

إلى صفه متناسيًا آلامه ، و لـم نعد نفكر إلا فى اللحظة التى نثبت فيها شجاعتنا .

احتمى المماليك بقرية إمبابة وتحصنوا بمدفعية ضخمة على ضفاف النيل أمام القاهرة . . كان البريق المنبعث من زيهم وأسلحتهم يعكس علينا أشعة الشمس فتعمى أبصارنا. وقد امتطوا صهوة خيولهم العربية ، وتسلحوا بمسدسين وارد لندن وغدارة لامعة ، وكانوا يلوحون بسيوفهم البديعة فتتلألأ أمام أعيننا .

كان هذا المشهد المهيب خليقًا أن يلقى الرعب فى قلب أى جندى ، إلا الجندى الفرنسى . كان واضحا من خلال مناوراتهم استعدادهم للهجوم. ومن جانبنا ، أخذنا استعداداتنا لاستقبالهم خير استقبال . انقض قائدهم مراد بك بفرقة من الخيالة المختارة على اثنين من فرقنا (فرقة رينييه وديزيه) بينما تظاهر بقية الجيش بالهجوم علينا حتى يمنعنا من أن نهب لنجدة هؤلاء القادة. ولكن مدفعيتنا كانت لهم بالمرصاد ، فأردت عددا كبيرا منهم قتلى من الهجمة الأولى . ظن العدو أنه ملاق قدراً أكبر من النجاح إن هاجم من الخلف . ولكن التشكيل المربع الذى تكونت منه فرقنا كان بمثابة جبهة مزدوجة استقبلته كما استقبله التشكيل الأمامى . ومن لم يسقط من جراء قذائفنا جريحا، انسحب فى عجالة ولم يجرؤ على معاودة الهجوم .

كان هناك ألف وخمسمائة مملوك ، وعدد مماثل من الفلاحين ظلوا يقاومون فى قرية إمبابة . وسرعان ما حاصرت قوات كليبر وبون ومينو المدينة. وقد حاول الجميع عبثا الدفاع عن هذه القرية ، وقاموا بأشياء خارقة ومع ذلك تقطعت بهم السبل وفقدوا حتى أملهم فى الانسحاب . وقد عرضنا عليهم الاستسلام مع اعتبارهم أسرى ، فلم يستجيبوا وفضلوا الموت .

أما جنودنا ، فقد وجد الضباط صعوبة فى السيطرة عليهم خلال عملية التفاوض ، وما كان منهم إلا أن انطلقوا باندفاع شديد صوب القرية ، وبدلا من التلهى بإطلاق النار على غير هدف ، إذ بهم يهجمون على رجال المدفعية ويطعنوهم بسُنكِهم ، ويستولون على مدافعهم . فمن ولى منهم الأدبار واستطاع الهرب قطعت عليه فرقتنا اليمنى السبل ، ورشقته بوابل من الرصاص ، ليصاب البعض ويقتل البعض الآخر . فى حين فقد آخرون الأمل ، فاندفعوا وألقوا بأنفسهم فى النيل وقد ملأ قلوبهم الحنق .

فى هذه المعركة ، نجحنا فى الاستيلاء على أربعين قطعة مدفعية ، والكثير من العتاد والذخيرة والمؤن ، علاوة على أربعمائة من الجمال المحملة بالذهب والفضة . ولم يكلفنا هذا النصر الذى أسميناه «الأهرامات» سوى بعض الدماء الفرنسية . وقد قال الجنرال بارتييه : «لم تثبت الخطط العسكرية الأوربية قط مثلما أثبتت اليوم تفوقها على الشجاعة الشرقية غير المنظمة» .

لاحق الجنرال ديزيه العدو المنهزم ، وواجه القوات الخلفية لمراد بك بالقرب من الجيزة عند مدخل وادى النيل . وقد استمرت المعارك منذ الساعة الثانية وحتى منتصف الليل . وبما أن الغلبة فى تلك المعارك كانت لنا ، فقد شغلنا باتخاذ مواقعنا لعبور النيل . وكان متوقعا كما بدى لنا أن نواجه العدو الذى تأهب على الضفة الأخرى من النيل للدفاع عن القاهرة . غير أنه وقد روعه انتصارنا أصبح يخشى تبعات المقاومة ، وما كان منه إلا أن لاذ بالفرار ، بعد أن قام بإحراق عدد من المراكب التجارية ، وبعض منازله الجميلة .

الاستيلاء على القاهرة

قام جزء من قواتنا بعبور النيل والاستيلاء على المدينة فى أثناء الليل . بينما ظل الجزء الآخر رابضا على الضفة الغربية من النهر كى نكون مستعدين لأية أحداث مزعجة . وبعد ثلاثة أيام ، عبرت بقية قواتنا النهر، ودخلت إلى القاهرة . وتم الإطاحة بحكومة المماليك واستولينا على صعيد مصر . وحين بلغ بونابرت هذه المدينة ، وجه لسكانها البيان التالى :

يا شعب القاهرة

كم أنا سعيد بسلوككم ، لقد أحسنتم صنعا بعدم الانحياز ضدى . فما جئت إلا للقضاء على سلالة المماليك، وحماية التجارة ومصادر البلاد الطبيعية . ليهدأ كل من كان بنفسه خوف، وليعود كل من خرج عن منزله . ولتقام الصلاة اليوم كما هى العادة ، وكما أريد لها أن تستمر دوما . لا تخشوا على نسائكم وبيوتكم وأملاككم ، وخاصة على دينكم الذى أحبه .

بونابرت

فى هذه المعركة ، لم يلق مصرعه من جانبنا سوى تسعة أو عشرة أشخاص بينما أصيب مائة آخرون بجراح ، فى حين فقد العدو أكثر من ألف وستمائة شخص . وفى هذا الصدد أجد من واجبى أن أعترف بشجاعة المماليك . فلو أن خطتهم العسكرية كللت بالنجاح لدفعنا ثمن انتصارنا غاليا ، ولكن قلة خبرتهم كانت خير ضامن لنجاحنا . وقد تميز قائدهم مراد بك ببسالته ورباطة جأشه ، وإن لم يتميز بموهبته العسكرية . ويقال إنه أصيب بجرح فى رأسه .

أما بالنسبة لنا فلم نكن لنشكو لو أن العرب والحرارة والجوع والعطش لم يصيبونا بأكثر مما أصابنا المماليك .

الهرم الأكبر

لقبنا هذه المعركة بـ «الأهرامات» لأنها وقعت بالقرب من هذه الأهرامات الشهيرة التى يُنظر إليها كواحدة من عجائب الدنيا السبع ، وهى ثلاثة أهرامات : للأكبر واجهات أربع مثل الآخرين ، كل واجهة متجهة إلى واحدة من الجهات الأصلية . قاعدته مربعة ضلعها ١١٠ قامة ، وتبلغ مساحتها ١٢,٠٠٠,٠٠ قامة مربعة . كل واجهة عبارة عن مثلث موازٍ للواجهة المقابلة له . ويبلغ ارتفاعه العمودى ٧٧ وثلاثة أرباع قامة ، أى ما يعادل ٤٦٨ قدمًا ونصف قدم . أما حجم كتلته ، فيبلغ ٣١٣,٥٩٠ قامة مكعبة . وهو مشيد من الخارج على هيئة درجات يتناقص محيطها حتى القمة . وهو مشيد بحجر غير عادى فى ضخامته ، أقله حجما يبلغ ثلاثين قدم مربع . وهو نوع من الحجارة شديد الندرة فى مصر .

أما قمة الهرم والتى ترى من أسفل وكأنها رأس إبرة ، فمساحتها فى الحقيقة مسطحة يستطيع أربعون رجلاً الوقوف عليها بكل راحة ، إذ يبلغ ضلعها حوالى ستة عشر قدما . ويمكن الوصول إليها بتسلق الزوايا الأربع البارزة التى تسهل عملية الصعود بأسلوب تشييدها الخاص . فإن بلغت القمة ، لم تكن بالنسبة للواقف أسفل الهرم أكثر من قزم . والقمة تكشف مساحة ضخمة من البلد ، لاسيما شرق القاهرة ومجرى النيل الممتد من أعلى البلد إلى أدناه .

ويمكن الدخول إلى الأهرامات من خلال فتحة متقنة الصنع بها درجات تساعد على تثبيت الأقدام . وتستغرق عملية الصعود حوالى

خمس دقائق ، تليها فترة صعود مماثلة فى الوقت حتى نصل أخيرا للحجرة المسماة حجرة «الملكة» ، وهى حجرة مساحتها حوالى ٢٠ قدما مربعة مشيدة بإتقان . غير أن الرائحة المنبعثة من المكان لا تشجع على المكوث به فترة طويلة . ويعتقد أن أجساد ملكات مصر كانت ترقد فيه .

أما عند الخروج ، فتمتد عملية الصعود من سبع إلى ثمانى دقائق من خلال سلسلة من الفتحات التى يعد بلوغها أمرا عسيرا . ثم نصل إلى الحجرة التى يطلقون عليها حجرة «الملك» ، وهى تكاد تكون بنفس حجم الحجرة السابقة ، مع الفارق بأن بها تابوتا حجريا من الجرانيت طوله ست أقدام وارتفاعه وعرضه ثلاث أقدام. ويقال إن هذه الحجرة كانت مخصصة لدفن ملوك هذا البلد .

وأخيرا، وجدنا ممرا لم ندر مدى عمقه، ولكننا أطلقنا به رصاصة ، وخلصنا من خلال الصوت الذى ظل يتردد بصورة متصلة إلى أنه لابد مؤدٍّ إلى تجويفات متسعة. لم تكن مدينة ممفيس القديمة تبعد كثيرا عن هذه الآثار التى تعد مفخرة للإنسانية .

وللهرمين الآخرين نفس الشكل وإن كان ارتفاعهما أقل بكثير . تسلقت أحد هذه الأهرامات للنظر إلى الجرانيت المكسو به . وبالقرب منهما توجد بقايا أهرامات صغيرة عديدة تهدمت . وعلى بعد مسافة قصيرة ، نلمح صخرة كبيرة منعزلة عبارة عن رأس ضخم لتمثال أبى الهول .

أما على بعد أربعة فراسخ وفى مكان يسمى سقارة نجد حوالى ثمانية أهرامات أخرى ذات شكل وحجم يسترعى الاهتمام نوعا . كما توجد مومياوات - أى أجساد محنطة - محفوظة فى هذا المكان منذ قرون عديدة ، تشهد إلى الأبد على احترام قدماء المصريين لأجدادهم وللمقتنيات العزيزة عليهم .

ظل جزء مـن الجيش معـسكرا على الضـفة اليـسرى من النهـر أمام القاهـرة ولم يدخلها. وقـد عانى أشـد المعاناة طيلة يومين أو ثلاثة بسـبب نقص الموارد التى لم يكن قد تم تدبيرها وإرسـالها بعد. وفى هذه الأثناء، راح الجنود يتسلون باصطياد المماليك الغـارقين فى النيل . . ووجدوا معهم ما بين ثلاثمـائة إلى أربعمـائة قطعة من الذهب ، مما عوضـهم العناء الذى تكبدوه فى سبيل انتشال هذه الجثث من الماء .

دخـولنـا إلى الـقـاهـرة

أخيرا وفى الثـامن من ترميدور الموافق ٢٦ يوليو ، تلقينا أمـراً بعبور النهر . وبينما نحن نعبره إذ بفلاح يدلنا على أحد المماليك متنكراً فى هيئة شـحاذ يرقب تحـركاتنا. فـتم اعتـقاله، ثـم أعدم فى اليـوم التالى رمـيـا بالرصـاص فى المعسكـر الذى أقمناه فى بولاق عـلى بعد ربع فـرسخ من المدينة . وقـد أتاح لنا هذا الموقع فـرصة زيارة القـاهرة لنعرف شـيئًا عن عاصمة مصر .

لـم تعد هذه العاصـمة كسابق عهدها . هى بكبـر باريس وتعادلها فى الازدحام ، ولكن بأية نوعية من البشر! إنهم رجال قذرون فى سواد منظفى المداخن عندنا فى سـافـوا، كسـالى خـاملين كـصعـاليك نابولى . وهم باختصار يشبهون سكان الإسكندرية الذين وصفتهم آنفا.

وشوارع القاهرة ضيـقة ، وهواؤها غير صحى . كما أنهـا غير ممهدة وتنعدم فيـها المصابيح فى الليل . وأغلب البيوت لا تعـدو أن تكون مجرد أكواخ شديدة البؤس . أما ديار الأثرياء ، فمـشيدة بكتل ثقيلة من الحجارة أو الطوب ومكسوة بالبوص المجدول . فإن تهدمت لم يكلفوا أنفسهم عناء إصلاحها وإنما قاموا بتشييد غيرها فى مكان آخر .

أما الضوء الخافت الذى ينير هذه البيوت ، فينفذ إليها من خلال نوافذ ضيقة شديدة الارتفاع لها قضبان. ولبعض هذه البيوت أسطح مسورة .

أما أصحابها فمن البكوات والمماليك. وقد أثثوها على طراز آسيوى فاخر من عرق شعب مقهور. كانوا يكسون الخيل بسراج ثمين ، ويلبسون الحرير المكسو بالذهب والماس ، ويحيط بهم كم كبير من الإماء المكدسة فى الحرملك أو السرايا، حتى أن عددهم بلغ مائتين عند أحد البكوات. كانوا يتمسكون باقتناء أجمل الأسلحة، وأروع الغدارات، والمسدسات وارد لندن بديعة الصنع ، إضافة إلى السيوف الدمشقية المرصعة، ذات الأغْمدة المصنوعة بلا استثناء تقريبا من الفضة المذهبة. وقد كان ثمن تلك السيوف يصل أحيانا إلى مائتى لوى[١] .

ولا يمكن بالطبع مضاهاة أفخر البيوت وأكثرها فخامة وثراء بمنازل أكابر باريس ، لا من حيث الذوق والفخامة ، ولا من حيث الراحة. فأسرّتهم عبارة عن آرائك كساؤها فاخر وعليها أغطية ، وهى القطعة الأساسية فى أثاثهم . أما باقى أفراد الشعب فلا يستغرقون وقتا فى إعداد أسرّتهم ، إذ يفترشون الأرض ، وينامون على مجرد حصير .

ولا ترقى أفضل وجباتهم لمستوى ما يرضى الذوق الفرنسى . وهم فضلا عن هذا يفتقدون لأكثر ما يدخل البهجة على نفوس مدعوين مثل الفرنسيين ، وأعنى بهذا النبيذ الذى حرمه مشرعهم البربرى .

وقبل قدومنا، لم يكن فى مصر أية حانات أو نُزُلْ ، ولم يكن ثمة مرطبات سوى القهوة السادة كعادة المصريين فى تناولها ، وكانوا لا يدخرون فى هذا وسعا ، حتى أنهم كانوا يحتسون ما يقرب من عشرين فنجانا فى اليوم ، وكان هذا يمثل غذاءهم الأساسى .

(١) قطعة ذهب -على اسم لويس الثالث عشر- وهى عملة فرنسية قديمة (المترجمة) .

ومنذ قدومنا الشيء هذا البلد ، أقام العديد من الفرنسيين نُزُلاً ومقاهى ، ولكنها كانت غالية الثمن، وكنا نعتبر سعر النبيذ معقولاً حينما كنا نبتاع الزجاجة بعشرة فرنكات ، وكان فى هذه الحالة إما مغشوشًا أو من نوع ردىء .

أما الوحيد الذى كان يمدنا ببعض البهجة فى القاهرة ، فهو ركوب الحمير، فكنا نجوب بها شوارع المدينة ، أو نزور بها الأنحاء المجاورة . وكان من السهل استئجارها فى كل مكان بسعر زهيد. وكانت سرعتها تفوق بكثير سرعة مثيلاتها فى أوربا . ولا يمكن مضاهاتها إلا بتلك التى رأيناها على ضفاف الرون، من ليون وحتى فالنسا .

ومن أكثر المشاهد طرافة منظر الضباط الفرنسيين والجنود أيضا ، وهم ينقلون البريد عبر شوارع القاهرة على ظهر هؤلاء السعاة .

أما عن المتع والنساء ، فلم نجد فى القاهرة ما نهلنا منه فى ميلانو وبادو وليفورن وروما وفيرونا وجراز . . إذ لم يكن ممكنًا ولا مأمونًا مقابلة نساء الطبقة الثرية، فدونهم أبواب مغلقة بالمزاليج . وهم واقعون تحت سيطرة طغاة غيورين يخشى طرفهم . وعلى الرغم من وجود بعض الدور العامة ، إلا أن قبح وقذارة الغوانى وكثرة لغطهم كانت تصيبنا بالغثيان وتجعل أشد الداعرين فسقا وشجاعة يتراجع فزعا ، مما حضنا على الرضا عن طيب خاطر بالحرمان على الرغم من شدة رغبتنا وحرارة الجو .

وفى قلعة صلاح الدين ، شاهدنا بئر يوسف المحفورة فى صخرة بعمق ٢٨٠ قدما وبمحيط قدره ٤٢ قدما . وهناك درجات سلم مريحة للغاية تمكننا من الهبوط للبئر وتصل إلى منتصف العمق تقريبا ، حيث توجد ساقية يديرها ثور لإخراج المياه لتصب فى خزان وتجمع بواسطة أوانٍ

مثبتة فى ساقية أخرى تحملها إلى فوهة البئر. وهناك ثور آخر يدير الساقية الثانية حيث توجد أوانى كبيرة لتجميع المياه . وعلى الرغم من قدوم هذه المياه من أعماق بعيدة إلا أن مذاقها أجاج منفر فى الفم . ولم تسم البئر هكذا نسبة إلى يوسف بن يعقوب وإنما إلى الوزير يوسف قراقوش الذى بناها فى عهد محمد على .

كما نرى فى هذه القلعة بعض أطلال لمعبد يسمونه معبد سليمان ، هذه الأطلال مرفوعة على ثلاثين عاموداً من الرخام ذات ارتفاع وسمك يثيران الدهشة . مما يجعلنا نعتقد أن هذا المعبد كان وهو مكتمل باهر العظمة .

وبين القاهرة القديمة والجيزة تقع جزيرة اسمها الروضة تكسوها جميع أنواع الأشجار والمزروعات الأخرى وهى سر زينتها وغناها . وفى الروضة يوجد "المقياس" وهو بئر يساعد على معرفة مدى ارتفاع النيل وقد خطت درجاته بالعربية . و يتنبأ سكان البلد بخصوبة أو جفاف الموسم تبعا لزيادة أو نقصان درجات المقياس . وعلى قمة البئر ، يرتفع تاج كورنثى فوق أربعة أعمدة رخامية وكأنه غطاء له . وقد أقمنا فى هذه الجزيرة طاحونة هواء لاستعمالنا الخاص .

وبمجرد أن عرف البكوات بهبوطنا مصر حتى زجوا بجميع الأوربيين الموجودين فى مصر فى السجون ، وكانوا ينون تدبير مذبحة عامة . ولربما أراد القارئ معرفة مصير هؤلاء التعساء . وحتى أرضى فضوله المبرر أقول إنهم يدينون بخلاصهم للخرافات ولسذاجة هؤلاء الطغاة المصريين . فقد كانت زوجة إبراهيم بك ، ثانى كبار البكوات ، تحظى بتقدير ومكانة عظيمة، وكان ينظر لها على اعتبار أن لها كرامات ويأتيها وحى من النبى . نشرت هذه السيدة نبوءة ادعت أنها من محمد مؤداها أن الفرنسيين سوف يستولون على مصر عام (١٧٩٨ م) . وقد كفت يد هؤلاء القتلى

بقيادة المماليك عن الضحايا السجناء ، وخبأتهم فى بيتها وأحسنت وفادتهم حتى قدمنا إلى القاهرة ووضعنا حدا لعذابهم ومنحناهم حريتهم . فما كان دافع كرم هـذه السـيدة ؟ هل هو إيمان حقيـقى بوحى نبيها ؟ أم كان وراء الأمر ميل خفى لمحـاربين ينتمون لأمة أعجبت بلطفـها وأدبها وكانت تنتظر عرفانا بالجميل ؟ هذا ما لا أعرفه وأتركه لفطنة القارئ . وعلى أية حال ، وأيا كانت دوافعها فقد تمكنت من السيطرة على وحشية المحيطين بها بسطوة الخرافات .

وهكذا نرى كـيف ساعدتـا هذه المرة التعـصب الذى عد وصـمة فى تاريخ الإنسانية فى كل مكان .

ظللنا بضعة أيام وحتى الثالث عشر من ترميدور الموافق ٣١ يوليو عام (١٧٩٨م) ، فى موقعنا هذا دون حدوث شىء يذكر ، حتى لمحنا مجموعة كبيـرة من الجمال على متنهـا رجال ونساء. ظننا فى بادئ الأمر أنـها قافلة تجارية يملكهـا المماليك ولكننا كنا مخطئين . فقـد كانت فى الحقيـقة قافلة حجاج قادمة من مكة ومن قبر مـحمد ، إذ تقتضى عادات المسلمين ذهاب المؤمنين إليها ولو مرة واحدة خلال حياتهم كما يذهب المسيحيون إلى كالفير والقديس سـيبولير والـقديس جاك دى كومـبوسـتـيل . أما أشدهم تعصـبا فيقومـون عند عودتهم بفقء عيونهم ، فما عـاد شىء يستحق أن يرى بعد رؤية قبر رسولهم .

كان قوام هذه القافلة قرابة سـتة آلاف شخص من الرجال والنساء مع عدد مماثل من الجمال. كان أغلب الرجال يحملون أسلحة نارية وخناجر . وقد اندهشوا لوجـود قوات أوربية فى بلادهم ولكنهم اطمأنـوا حينما رأونا أبعـد مـا نكون عن إهانتـهم، بل على العكـس رحنا نمد لهم يد النجـدة والعون. وقد ساعدهم هذا السلوك على المضى فى سلام إلى حال سبيلهم، كل إلى بيته .

أما القافلة التجارية التى كنا نعقد عليها آمالاً عريضة فلم يتأخر ظهورها أيضا . كانت ملكا للمماليك . لذا كان من مصلحتهم أن ينقذوها من رغبتنا الأكيدة فيها . فانطلق بعض ممن نجحوا فى الفرار منّا بعد الهزيمة لملاقاة القافلة وتحذيرها ، فاتخذت اتجاها آخر. ولم يفت هذا على جنرالنا فبعث بقوات لتطويقها والتصدى لهروبها .

وأما البدو الذين كانوا دائما فى خدمة من يجزل لهم العطاء ، أو بالأحرى من يتيح لهم نيل أكبر قدر من الغنائم ، فقد سعوا لدى كومندان المفرزة الفرنسى ليسمح لهم بالانضمام إليه لمحاربة المماليك مقابل نصيب من الغنائم ، فكان لهم ما أرادوا . ففى بعض الظروف تباح كل الوسائل فى سبيل إنجاح مشروع .

وعليه قام البدو بالتعاون مع قواتنا بشن هجوم عنيف على المماليك فى أثناء حراستهم القافلة فراحوا يدافعون بصلابة . كان عددهم يفوق عدد الجنود المهاجمين حتى أنهم نازعوهم بعض الوقت على النصر. غير أن خططنا الحربية جعلته من نصيبنا ، مما حدى بالمماليك إلى الهرب حاملين معهم ما استطاعوا من بضاعتهم . وقد اقتسمنا ما تبقى مع البدو حسب الاتفاق . وحملنا كمية كبيرة من الذهب والبضائع ولاحقنا المنهزمين حتى تخوم الصحراء التى حرصنا على عدم الخوض فيها .

النيل

أتاح لنا الهدوء الذى تركنا المماليك نستمتع به بعض الوقت فرصة حضور العيد أو الاحتفال الذى جرت العادة على إقامته فى القاهرة بمناسبة زيادة مياه النيل . فى هذا العام ، توافق والتاسع والعشرين من شهر تيرميدور الموافق ١٦ من أغسطس . وهو يسمى «فيضان النيل» ، فحينما

يصل منسوب النيل إلى مستوى ما فهذا يبشر بوفرة المحصول القادم . وتحضر كبار الشخصيات بالمدينة هذا الاحتفال ، وخلاله يشقون ، أو بالأحرى ، يصدرون أوامر بشق قناة ، فتندفع المياه من خلالها وتنتشر فى أرجاء المدينة . فى هذه اللحظة تسرى حالة عامة من النشوة والمرح ، تظهر من خلال الغناء والضحك وممارسة الألعاب الريفية . ونظراً لحرص الفرنسيين على كسب مودة البسطاء ونيل عطفهم ، فقد عملوا على توفير الحماية لحالة السعادة والمرح العامة فى المدينة ، فأمدوها بالحراسة اللازمة ، كما حرص جنرالاتنا على حضور الاحتفال بزى الاحتفالات الرسمية .

عيد محمد

بعد عدة أيام أقيم احتفال بذكرى وفاة محمد[1] ، وكان للفرنسيين أيضا دور بارز فيه ، فقد أضفى تواجد قواتنا بأسلحتها وموسيقاها على المنظر العام أجمل صورة . وقد تم إنارة المدينة بأكملها ، وراح علية القوم من سكانها يجوبون الشوارع بما يدل على مكانتهم أو وظيفتهم يتبعهم عبيد بعضهم مسلح بينما حمل البعض الآخر المشاعل . وقد تقدمت الفرق الموسيقية الفرنسية والتركية الموكب ، حتى وصل الجميع إلى الساحة حيث رأينا إضاءة قوية براقة على هيئة قبر محمد معلقة فى الهواء إشارة لاشك للاعتقاد الشائع بأن هناك قوة مغناطيسية تجذب قبر محمد لقبة معبد مكة يوم مماته . فكان لهذا المشهد صدى عظيما بين بنى شيعته وكأنه معجزة كبرى . والحق أننا ما شاركنا فى هذا الاحتفال إلا لاعتبارات سياسية ، ولم تكن له قط جاذبية احتفالاتنا الفرنسية ، ولكن الإنجليز فى هذه اللحظة كانوا سيمنحوننا احتفالا أكثر خطورة وكآبة من الاحتفال بوفاة محمد .

(١) لابد أن المقصود هو الأحتفال بالمولد النبوى الشريف (المترجمة) .

ولفرط معاناتنا ، سرنا نضخم جميع المواضيع ، حتى أننا لم نعد نخشى أن تُسْمع همساتنا والبعض منا يردد : «لابد أن الجنون هو الذى دفعهم للتفكير فى مشروع هذه الحملة ، وأن التهور هو الذى جعلهم ينفذونها» فيرد آخرون : «بل إن طموح الجنرال هو الذى قادنا إلى هنا . فقد جاء ليصنع لنفسه عرشا من عرقنا ودمائنا» . بينما كان من رأى فئة ثالثة لم ترد إدانة الجنرال : «إنها خيانة من جانب حكامنا الذين يرون أن الغاية تبرر الوسيلة . لقد خشى المديرون وجود الجنرال فى باريس وخب زملاء مجده وكفاحه له ، فأرادوا إقصاءه وإيانا ، لندفع غاليا ثمن الأكاليل التى وضعتها انتصارات إيطاليا على جباهنا» .

كان من الصعب أن نقرر أى هذه الآراء هى الأصوب والأقرب للحقيقة ، فقد كانت جميعها قوية الحجة . ولكن الزمن الذى ينخر كل شيء ويجعل أصلب الآثار تتآكل بفعله كان أيضا كفيلا بتهدئة أسانا وشجوننا وتبديد أفكارنا السوداء . فقد استسلم كل منّا وأذعن للأمر الواقع ووجد سكينته فى التحلى بالشجاعة والإرادة الحديدية .

ولكن سرعان ما واجهت هذه الشجاعة محنة وضعتها فى اختبار جديد . إنه الرمد ، مرض شائع للغاية فى مصر حتى أنها لقبت عن حق «بلد المكفوفين» . وقد أخذ فى الانتشار بين صفوفنا يفتك بها حتى بلغ الحنق بكثير من العسكريين مبلغه .

وبعد عدة شهور من العمى ، عاد للأغلبية بصرها ، ولحق الناجون بكتائبهم بينما ظل الباقون فى المستشفيات وتم ترحيلهم إلى فرنسا بمجرد أن تهيأت الفرصة . كل هذا بسبب هواء مصر غير الصحى . ففى كل عام منذ أن يعتدل المناخ فى الربيع وحتى قدوم تقلبات الصيف تبدأ أنواع حمى خبيثة قاتلة فى الانتشار . وفى الخريف يصيب مرض الجمرة الخبيثة الأفخاذ والركب فيقضى على المريض فى غضون يومين أو ثلاثة ، أما فى الشتاء

فيترك الجدرى آثاره المدمرة . ثم يأتى وقت فيضان النيل ، فيصاب أغلب السكان بالديزونتيرية الحادة بسبب مياه النيل المحملة بالطمى . فخلال الشهرين ونصف اللذين يسبقان الصيف تكون مياه النيل عفنة بسبب السدود المقامة على مداخل النهر ونظرا لهبوب رياح الشمال فى هذا الوقت ، كل هذا يعوق تدفقها بشكل طبيعى ويؤدى بالضرورة إلى فسادها .

هذه الكوارث التى ألمت بأسطولنا بعثت الأمل والجرأة فى قلوب أتباع المماليك . فقد بدأ عملاؤهم يملئون النفوس والعقول بفكرة التحرك، وكان واضحا للعيان أن الإنجليز هم المحرضون .

وما لبث أن ظهرت فى الأفق جحافل البدو جالبة معها التهديد والفزع للسكان الآمنين ، قادمة من كل صوب ومكان لمهاجمة قواتنا الأمامية. ولكنهم وقد أدركوا عدم جدوى جهودهم ومحاولاتهم ، فضلوا عدم الانقضاض علينا مثلما يفعل الشجعان، وإنما رأوا مفاجأتنا مثل الخونة وذبحوا القوات التى نشرناها فى القرى ، كما شنوا علينا حرب قرصنة فى نهر النيل ، كانت نتائجها أفدح بكثير من الحروب المنتظمة الوحشية . وقد سلبتنا العديد من العسكريين الشجعان . فقد قاموا بذبح جنود مفرزتنا فى احدى القرى ، وكان قوامها خمسة عشر جنديا ، من بينهم المعاون جوليان وقائد المفرزة التابعة للكتيبة الأولى من فيلقى .

فى التاسع من فروكتيدور الموافق ٢٦ أغسطس صدر لنا أمر بإحراق هذه القرية وبأن يكون انتقامنا منها مروعا. فأبحرنا من نيل بولاق حتى وصلنا إليها فى الحادى عشر منه الساعة الرابعة والنصف صباحا ، ولكننا وجدنا القرية مهجورة . فقد تم إعدام كل من كانت له يد ضليعة فى هذه المذبحة رميا بالرصاص، بينما لاذ بقية السكان بالفرار وقد علموا بقدومنا . فاضطررنا للاكتفاء بإضرام النار فى المكان ليحال رمادا .

لم يجد الجنود سوى كهل وامرأته العجوز ، وقد عثروا لديهم على ملابس فرنسية ملطخة بالدماء ، ليصبوا جام غضبهم وحنقهم عليهم وعلى الحمام الذى ينتشر بكثرة فى أرجاء مصر . هذا هو كل ما حصدناه فى هذه القرية التعيسة .

وقد لاحظنا خلال تجوالنا أن الطيور شائعة جدا فى مصر . ويعزى هذا لسببين : السبب الأول ، هو أن الصيد ليس شائعا فى هذه البلاد، أما السبب الثانى ، فيرجع إلى أن السكان لا يأكلون الطيور . لهذا لا يتعدى ثمنها سعر الخضراوات والأعشاب الصالحة للأكل .

وبعد أن انتهينا من حملتنا، أبحرنا ثانية فى النيل للعودة إلى بولاق حيث تلقى الجنرال لانوس أمراً بالتوجه بفرقته إلى منوف . فكان أن رحلنا وبلغنا هذه البلدة فى نفس اليوم .

تقع منوف أسفل[1] القاهرة مع بداية الدلتا فى مكان يكاد يتوسط فرعى النيل. وقد جعلنا هذا الموقع الجديد نتحسر فى بداية الأمر على مغادرة بولاق ، فقد مكثنا فترة تحت وطأة الشمس الحارقة ، إذ لم نجد أية أخشاب نصنع منها أكواخا نحتمى بها . ولكننا بعد أن تعرفنا أكثر على المكان زال عنا الحنق ، وطابت لنا الإقامة به ، لاسيما بعد أن تركت لنا القوات التى جئنا لمواجهتها مواقع نظيفة لإقامتنا .

وقد وجدنا فى هذه المدينة من المؤن ومواد الإعاشة قدراً كافيًا وبأسعار زهيدة . وكنا قد بدأنا ننعم بالهدوء الكامل بل طاب لنا العيش بها حينما تلقينا أمرا بمغادرتها والعودة إلى بولاق . وحدانا الأمل فى العودة إلى منوف بعد الاحتفال بعيد الجمهورية الذى بدأنا الاستعداد له ، ولكننا لم نكن على يقين من هذا. على أية حال ، أبحرنا فى النيل فى اليوم الثالث .

(١) تقع منوف شمال القاهرة (المترجمة) .

وقد انهـمرت أمطار غـزيرة فى الرابع من سبـتمبـر ، وهو أمر غـير مألوف على الإطلاق فى مـصر، إذ لـم تحدث مثـل هذه الظاهرة منذ مائتى عام ، وكـان النيل فى قمـة فيـضانه ، حتى أن ربـان سفينتنـا انحرف عن مجرى النيل الطبيعى ، فجنحت بنا السـفينة عدة مرات وغرزت فى حقول مغمورة بالمياه حتى اضطررنا إلى تنحيته عن دفة السفينة وقيادتها بأنفسنا إلى بولاق إلى أن بلغناها فقط فى الخامس من سبتمبـر الساعة التاسعة مساءً ، بينما بلغها زملاؤنا الآخرون فى التاسعة صباحا .

ربما جاءت أخطاء الربان نتيجة لرعـونته وعدم مهارته ، وإن كان لدى من الأسباب ما جـعلنى أشك فى نواياه . فقد حدثت جرائم قـتل كثيرة ، مهد إليها الطريق تواطؤ أكـثر من ربان خائن ، مما زرع الشك فى نفسى . لهذا استـشطت غضبا ورحـت أتهـدده بعـقـاب شـديد ، ولكنه سلبنى ثورتى بأعذاره وتوسلاته التى راح يعيدها على مسامعى . غير أننى تيقظت دوما لمثل هذه المناورات، واستفدت بالفعل من هذا .

عيد الجمهورية
فى الثانى والعشرين من عام (١٧٩٨م)

فى فجر الأول من فاندميير من العـام السابع حملنا أسلحتنا وتوجهنا إلى ساحة الأزبكية[١] بالقاهرة حيث أُعِد كل شىء للاحتـفال بعيد تأسيس الجمهورية .

(١) هذه المساحة منخفضة بعض الشىء حتى أن المياه تغمرها لمدة شهرين أو ثلاثة كل عام ، فيستحم الناس بها وينقلون البضائع فى قوارب . وقد قمنا بزراعة الأشجار حولها لتظلنا فى جولاتنا . وكنا نزرع بعض النباتات بعد انسحاب المياه فيصبح المكان كالحديقة .

وقد تم الإعلان عن الاحتفال عشية هذا اليوم ، وافتتح بالفعل فى اليوم التالى بثلاث رشقات للمدفعية تلتها رشقات مماثلة من جميع الوحدات بما فيها البحرية .

كنا قد أقمنا ساحة دائرية قطرها ٢٠٠ قامة زيّنا محيطها بـ ١٠٥ سارٍ يرفرف على جميعها علمنا ثلاثى الألوان ، وقد كتب على كل واحد اسم أحد محافظات فرنسا. وكان هناك صفان من الزينة يصلان ما بين السوارى دليل على وحدة الجمهورية التى لا تنفصم . وقد نصب فى أحد مداخل الساحة قوس نصر يمثل معركة الأهرامات . أما عند المدخل الآخر فكان هناك رواق عليه بعض الكتابات العربية ، لا سيما عبارة «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» . وقد توسطت الساحة مسلة هرمية الشكل ارتفاعها ٧٠ قدمًا . وعلى إحدى واجهاتها كتب «للجمهورية الفرنسية» بينما كُتب على الواجهة المقابلة «لطرد المماليك» . أما على الواجهات الأخرى فكانت الكتابات عربية . وقد روعى كتابة أسماء الشجعان من كافة الفرق ، والذين لقوا مصرعهم عند دخولنا مصر ، وسط العديد من تذكارات النصر .

وبمجرد أن اتخذنا صفوفنا داخل الساحة ، صدحت الموسيقى بعدة مرات مرددة المارشات العسكرية ومقطوعات النصر، إضافة إلى بعض الألحان الوطنية الشائعة فى هذا الوقت ، وأطلقت عدة كتائب النار وقد اصطفت صفين .

خلال هذا الاحتفال ، تقدم أحد مساعدى الجنرال إلى المنصة وقرأ علينا البيان التالى :

مركز القيادة ،

الأول من فانديميـيـر من العــام السابع للجمـهـورية الواحــدة التى لا تتجزأ .

القائد العام بونابرت

أيها الجنود :

نحن نحتفل باليوم الأول من السنة السابعـة للجمهورية . منذ خمس سنوات ، كان استقلال الشعب الفرنسى مـهدداً ، ولكننا استطعنا الاستيلاء على تولون ، وكان هذا نذيراً بالقضاء على أعـدائنا . بعدها بعام ، قاتلتم النمساويين فى ديجو . وفى العام الذى تلاه ، كنتم على قمة جبال الألب وقاتلـتم هناك . كان هذا منذ عـامين ، بعدها انتـصرتم فى مـعركـة سان جورج الشــهيـرة . والعام الماضى ، تأكـدت انتصاراتكم عند مـنابع درافا وايزونسو إثر عودتكم من ألمانيا .

والآن تتـوجه أنظار العــالم كله إليكم ، بدءاً مـن الشعب الإنجليـزى المشـهــور بفنــه وتجــارته ، وحتى البـدوى البغيـض . أيها الجنـود ، أن أقـداركم لجـميلة ، لأنكـم جديرون بما فـعلتـم وبـالرأى الــذى تكون بشـأنكم . سوف تلقـون حتـفكم بشرف مـثل هؤلاء الشجـعان المحـفورة أسمـاؤهم على الأهرامات ، وسوف تعودون إلى وطنـكم مكللين بأكاليل النصر وبإعجاب جميع الشعوب .

منذ خمسة أشهـر ، يوم ابتعدنا عن الأراضى الأوربية ، ونحن محل دعم وتأييد مواطنينا . وفى هذا اليوم ، هناك أربعون ألف مواطن يحتفلون بعهد الحكـومات التى تمثلهم ، أربعون ألف يفكرون فينا ويدينـون لأعمالنا ودمائنا بـالسلام الشامل والـراحة والرفاهيـة فى التجـارة ومحـاسن الحرية والمدنية .

بـونـابرت

بعد أن تلى علينا النقيب العام رسالة بونابرت وأتبعها بالصيحة التقليدية «تحيا الجمهورية» مستحثا الجنود ليهتفوا معه ، كم كانت دهشته حينما لم يسمع سوى عدد محدود من الأصوات ، ولا أقول لا أحد ، يردد هذه الصيحة . هذا الصمت العام ، إن نم على أى ما فإنما ينم على حالة عامة من الاستياء . بل إن أحد الجنود ، وقد شعر بحرمانه من أية وسيلة تعيده إلى وطنه ، وأن كل يوم لا يحمل له إلا خبر بمصرع أحد الرفاق ، مع تضاعف شعوره بالحرمان من جميع الأشياء ، راح فى همس يلعن من ظن أنهم سبب نفيه ، بل ذهب إلى حد اتهام البحارة الذين سمحوا بهلاك أسطولنا فى أبى قير بقلة الخبرة والجبن بل بالخيانة أيضا . ولكن الجيش عبر كل العصور لم يبجل أو يوقر إلا الوطن ولم يتعلق بحكومة دون أخرى إلا لأنهم يحملوننا على الاعتقاد بأفضليتها عن غيرها للوطن .

كان سبب هذه الهمهمات هو الاعتقاد أن آلامنا وتضحياتنا لم يكن ثمة طائل من ورائها لمجد وسعادة وطننا العزيز . وهى همهمات لم تتصاعد عاليا ، بل إن جموع المحتشدين لم يعرفوا أى شئ عنها ، ولا كبار الضباط . . فقد كنا وحدنا من لاحظناها بما أننا كنا ما بين الصفوف الأولى والأخيرة من الجيش . ثم إن هذه الهمهمات المبهمة القادمة من البعض وليس من الجموع لم تحط يوما من عزيمة وشجاعة القوات حينما كان يحين وقت الزحف . وهى لم تكن فى الحقيقة تنم عن تمرد أو عصيان أو ثورة ، بقدر ما كانت تنم عن رغبة فى إزاحة ما على الصدر من اكتئاب . . فهذا التعس الذى راح يشكو، لاشك أنه يستحق أن نعذره ، ولكن دعونا نعود إلى ما كنا نحكيه .

دعى إلى الحفل الديوان وكبار زعماء كل بلدة ووالى كل مدينة . وقد حضروا المأدبة التى أقامها الجنرال العام . كانت تلك هى المرة الأولى

التى رأينا فيها الألوان الفرنسية إلى جوار الألوان التركية ، والعمامة إلى جانب قبعات الحرية ، حقوق الإنسان والقرآن على الهيكل نفسه ، المختون وغير المختون في المأدبة نفسها مع الفارق أن الأول كان ملتزما بمشروباته بينما راح الآخر يعب من الشمبانيا وأنواع النبيذ. ولم يبد لنا المسلمون رغبتهم في انتهاك قانون محمد ، ولكن احتقارهم لإله الخمر لم يمنعهم من الانضمام للمسيحيين لتناول القهوة والمشروبات السكرية ، إذ يبدو أن احتفاءنا بهم ومجاملتنا لهم فى ذلك اليوم قد راقت لهم وأرضت كبرياءهم .

بعد أن فرغنا من الغداء ، وفى حوالى الساعة الرابعة رفعنا الحواجز لينطلق سباق الخيول ومسابقات العَدْو ، وقد حصل على الجائزة الأولى فى العدو على الأقدام المدعو باتو، وهو عريف فى لوائنا الخامس والسبعين . أما الجائزة الأولى فى سباق الخيول فكانت من نصيب الكوميسير سوسى إذ قطع حصانه مسافة ١٣٥٠ قامة فى أربع دقائق فقط .

وما إن بدأ ضوء النهار يخفت حتى أضيء المكان ، فكان منظر المصابيح وسط شرائط الزينة آسراً ساحراً للناظرين . بدأ إطلاق الألعاب النارية فى الساعة الثامنة واتسمت بالذوق والفخامة ، حتى أننى ما شهدت قط أجمل منها .

والحقيقة أن كل شىء مر فى أفضل الظروف الممكنة . وقد اختتم الاحتفال برشقة جديدة من القذائف والطلقات المدفعية ، تحركت على إثرها الفرق الواحدة تلو الأخرى لتلحق بمراكزها .

فى اليوم التالى، تلقت وحدتنا أمرا بالرحيل فورا والتوجه إلى دمياط، فقد كان البدو يتحرشون بحاميتنا المتمركزة هناك ، وقد شنوا عليها هجوما فى الليلة من ٢٩ إلى ٣٠ فروكتيدور ، ولكنهم بدلا من أن يفتقدوا

تيقظ فرقنا النائمة ، لقى العديد من قطاع الطرق هؤلاء حتفهم ، الأمر الذى لم يفلت منه الباقون إلا بهروبهم السريع . ومنذ ذلك الحين وهم يتحينون الفرصة بلا جدوى للانتقام منا ، وقد كان هدفهم هو فرض جبايات ضخمة على المدينة كما جرت العادة بعد طردنا منها . وأقول إنها كانت عادتهم ، فعلى الرغم من تيقظ المماليك كانوا يأتون كل عام يحاصرون المدينة وينذرون السكان بوجوب دفع كمية من الأموال ، وكان السكان يضطرون للرضوخ لتجنب التعرض للنهب والموت . وكانوا يعتمدون على هذه الجبايات فى تدبير معاشهم .

رحلت كتيبتنا توا لبلوغ دمياط غير أننى انفصلت عنها بعض الوقت مع بعض زملائى للانتهاء من بعض الشئون الإدارية العسكرية . وكم كان ألمى مبلغ استنكارى حينما بلغنى أن ربانين وليوتننت وأحد رؤساء هذه الكتيبة قد لقوا مصرعهم ذبحا فى النيل على يد البدو . وفكرت أننى ربما لو كنت معهم لجنبتهم هذا المصير التعس بمزيد من توخى الحذر أو بالجهود الشجاعة ، ولكان هلاكى معهم قد أعفانى من التهديدات التى حاصرتنا من كل صوب ومكان . وبالفعل ، تلقينا بلاغًا من قائد موقع القاهرة ينبهنا فيه إلى ضرورة التيقظ والتأهب ، فالأتراك يريدون قتل جميع الفرنسيين ، ويقول إن خلاصنا وسلامتنا يعتمدان على شجاعتنا وصلابة دفاعنا .

دفعتنا تلك الأنباء إضافة لتلك التى وردت من دمياط إلى التفكير بجدية فى الأشياء ، واعتقدنا أن مصر وقد انقلبت بكاملها ضدنا ، تريد الهجوم علينا بهدف تحطيمنا تحت ثقل كثافتها الضخمة . وقد كانت هذه النوايا كفيلة أن تجمد الدماء فى عروقنا وتقذف الرعب فى قلب أى جيش آخر . . إلا جيشنا ، فقد جابه مرات عديدة الموت فما رأى فى العواصف التى راحت تتجمع فى طريقه سوى مناسبات جديدة يثبت فيها شجاعته ليحظى بمزيد من الانتصارات ، ثم إن هذه الحياة الكئيبة التى كان يحياها فى هذا المناخ ، جعلته غير مبال بموت أو بحياة .

على أية حال ، تبددت العاصفة هذه المرة ، وهدأت نفوسنا فقد باءت هذه المشاريع المشؤومة بالفشل بفضل يقظة رؤسائنا التى لا تعرف الكلل .

حينما فرغت أنا وزملائى مما أبقانا فى القاهرة ، رغبنا فى اللحاق بوحدتنا فى دمياط ، غير أن القيادة عارضت رحيلنا بسبب المخاطر التى خشى علينا منها فى أثناء تحركنا فى النيل . ولكن لفرط توسلاتنا أذن لنا بالرحيل . فأبحرنا فى التاسع من الشهر مع فرق مختلفة ، وبلغنا دمياط دون وقوع حوادث تذكر، بفضل رباطة جأشنا واستعداداتنا الجيدة .

الثانى عشر من فنديمير عام ٧
الموافق ٩ أكتوبر (١٧٩٨م)

لم يكن إبحارنا المرهق نتيجة لبقائنا فى حالة تيقظ مستمر لضمان سلامتنا خاليا من المتعة ، لاسيما البصرية ، التى منحها لنا مشهد ضفتى النيل . كان مجراه شديد التعرج فكان كل منحنى يمنح لناظرينا مشهداً مختلفاً . شاهدنا الأهرامات على مرمى البصر، فبدت قمتها من على هذا البعد كقمة جبال تلاشت خلف السحاب ، مثل جبل سافوا حينما ينظر إليه من أعلى الفورفيير فى ليون . كان منظرها يوحى بخشوع دينى ممزوج ببعض الشجن .

رحنا نكتشف أبراج الحمام التى تحيط بنا من كل جانب بشكلها الهرمى وأسراب الحمام تحلق حولها . وكلما تقدمنا ، وجدنا أنفسنا نسير وسط جزر يكسوها عشب كثيف شديد الارتفاع حيث يأتى الجاموس ليرعى . وقد نزل إلى النهر راع ممتطى أحد هذه الحيوانات ، وأخذ يفرقع بسوطه ويقود المسيرة حتى تبعه القطيع ونزل إلى النهر وهو يخور ثم اتجهوا

صوب المرعى . خلال الحر تعيش هذه الحيوانات فى النيل فتغمر نفسها حتى الأكتاف فى مياهه ، ثم ترعى الحشائش الطرية الموجودة على طول ضفاف النيل . أما إناث هذه الحيوانات فتعطى وفرة من اللبن الدسم تصنع منه أجود أنواع الزبد .

ولعل ما يخفف من رتابة منظر هضاب مصر الواسعة المتشابهة هى تلك القرى المقامة على تلال صناعية «أهرامات طبيعية» ، وبعض النخيل والمدائن التى تعلو بعض الأبنية البائسة وهى كل ما فى هذه القرى .

وقد لاحظنا خلال توجهنا إلى دمياط الظاهرة نفسها التى سبق ورصدناها إبان رحلتنا الأولى الى القاهرة . ففى المساء كما فى الصباح يكون شكل الأراضى طبيعياً ، فلا ترى بينك وبين القرى الأخيرة التى تجاورتها سوى الأرض . ولكن ما إن تزداد حرارة الجو نتيجة شدة الشمس ثم تنخفض قليلا عند اقتراب الليل حتى يتغير المنظر فلا تعد الأراضى على نفس اتساعها وامتدادها ، بل تظهر وكأن بحراً واسعًا يحوطها لمسافة فرسخ تقريبا . فتبدو القرى الواقعة خلف هذا المحيط وكأنها جزر تحوطها المياه ، تنعكس صورتها أسفلها كما لو أن مياه عاكسة تحيط بها ويخيل إليك عند رؤية أى خيال يمتطى صهوة فرسه على هذه الهضبة وكأنه يجتاز حقلاً مغموراً بالمياه ، حتى لترتعد خوفا عليه إن لم تكن على علم مسبق بتأثير الخداع البصرى الخاص بهذا المناخ .

ويسمى العلماء هذه الظاهرة بـ «السراب» وأترك لهم الكلمة لشرحها وتفسيرها : يعزى السيد مونج هذه الظاهرة لانخفاض كثافة طبقة الهواء السفلية . ويرجح أساسا هذا الانخفاض لارتفاع درجة الحرارة نتيجة

تسخين الشمس للرمال التى تتصل بها هذه الطبقة اتصالا مباشرا . وهى ظاهرة تحدث فى البحر أيضا فى ظروف خاصة، حينما يُحَمَّل الجزء الأسفل من الهواء بطبقة مياه متبخرة تفوق مثيلتها فى الطبقات الأخرى . فى هذه الحالة ، عند وصول أشعة الضوء المنبعثة من طبقات السماء السفلية إلى السطح الذى يفصل الطبقة الأقل كثافة عن الطبقات التى تعلوها، فان هذه الأشعة لا تتخلل هذه الطبقة بل ترتد مرة أخرى وتنعكس فترسم فى ناظرى الشخص الذى يتأملها صورة السماء حتى يحسب أن ما يراه هو جزء من السماء أسفل خط الأفق ، نفس هذا الجزء هو الذى نعتقد أنه مياه حينما تحدث هذه الظاهرة على الأرض . فإذا كنا فى البحر، بدى لنا الأمر وكأننا نرى فى السماء جميع الأشياء التى تطفو على السطح الذى تشغله صورة السماء .

ليست مدينة دمياط التى بلغناها فى الثانى عشر من الشهر مدينة كبيرة ، ولكنها من أبهج مدن مصر وأكثرها نشاطا تجاريا. وهى تتخذ شكلا نصف دائرى على ضفة النيل الشرقية، على بعد فرسخين ونصف من مياه البحر. وتعد بيوتها - لا سيما تلك الواقعة على ضفاف النيل - شديدة الارتفاع . ويوجد بأغلبها مجالس جميلة مشيدة فوق أسطح الأبنية. كما ينتشر بها أكثر من مسجد كبير مزين بالمآذن العالية . وهى تقع على لسان طويل من الأرض يحدها شمالا البحر والنيل غربا وبحيرة المنزلة شرقا(١) .

غير أن موقعها المتميز لم يجعلها بمنأى عن أعمال قطع الطريق . كان المماليك يستنزفونها كل عام ويُحَصِّلون الجبايات قصرا . فما كادوا يرحلون حتى وصل البدو ليفرضوا بدورهم الإتاوات على السكان التعساء.

(١) أبحر القديس لويس من دمياط ٤ يونيو ١٢٤٩ عام خلال حملته الأولى إلى الأراضى المقدسة ، وفى العام التالى تم أسره فى المنصورة .

ولم يفزعهم وجود الفرنسيين فى الأنحاء هذا العام . بل راحوا بجرأة يفرضون ضرائبهم المعتادة وسعوا لمفاجئتهم ، ولكن هذا لم يفلح . فعلى الرغم من أنهم كانوا يسببون لنا قلقًا دائمًا إلا أن يقظتنا شلتهم. وفى نهاية الأمر حاولوا الوصول الى دمياط عن طريق بحيرة المنزلة ، فتصدينا لهم بأسطول مسلح وقوة حراسة قوية تمركزت حيث اعتقدنا أن عمليات الإنزال ستتم . مما جعل محاولاتهم كلها تبوء بالفشل ، بل تشكل خطرا عليهم . وقد كان اليونانيون المقيمون فى دمياط خير عون لنا ، إذ ظلوا ينبهوننا بلا كلل إلى مناورات البدو وخطط أنصارهم فى المدينة ، وأسدوا لنا خدمة جليلة فى الليلة من ٢٩ إلى ٣٠ فروكتيدور عام ٧ ، حيث استمعوا إلى هذه الصيحة التى أُطلقت باللغة العربية من أعلى المساجد : «أيها الشعب ، استيقظ فسوف نذبح الفرنسيين» . فقاموا فورا بإبلاغ الجنرال فيال قائد هذا الموقع ، ولم يكن لنا أن نفهم أبدا هذه الصيحة الموجهة باللغة العربية بما تنطوى عليه من نتائج مشؤومة لولا تحذير اليونانيين المحمود.

وقد أحسن الجنرال فيال صنعا بعدم إهمال هذا النبأ ، فقد اتخذت جميع الإجراءات المناسبة وجعل البدو يندمون على فرط اقترابهم منّا فى بحيرة المنزلة .

هذا ما حدث لفرقتى . وحتى تعلم أيها القارئ ما كان يحدث فى نفس الوقت على الأصعدة الأخرى ، إليك التقرير الذى أرسله القائد العام لحكومة المديرين التنفيذية .

تقرير الى حكومة المديرين

مركز القيادة بالقاهرة

السادس والعشرون من فانديمير عام ٧ ، الموافق ١٧ أكتوبر (١٧٩٨م)

من بونابرت القائد العام إلى حكومة المديرين .

المواطنون المديرون

إليكم تقريراً مفصلاً عن مختلف المعارك التى دارت على جبهات مختلفة وفى أوقات متفرقة ضد المماليك ومختلف القبائل العربية وبعض القرى الثائرة .

معركة ميت غمر

كان بدو الدرنة يحتلون قرية دنوهيا التى كانت الفيضانات تحيطها من كل جانب. وقد ظنوا انهم محصنون وراحوا يعيثون فى النيل فسادا بعمليات القرصنة وقطع الطريق التى كانوا يمارسونها . وقد تلقى كل من الجنرال مورا ولانوس أوامر بالتوجه نحوها ، فبلغاها فى السابع من فانديميير الموافق ٢٨ سبتمبر . وقد تفرق البدو العرب بعد رشقهم بالنيران فلاحقتهم قواتنا لمسافة خمسة فراسخ حتى غمرتهم المياه إلى الأحزمة . أما بالنسبة لقواتهم وجمالهم وعتادهم، فقد سقطت جميعها بين أيدينا. ولقى أكثر من مائتى شخص من هؤلاء التعساء مصرعهم فكانوا ما بين قتلى وغرقى .

والعرب فى مصر مثل الباربيه فى مدينة نيس مع الفارق الكبير أنهم لا يعيشون فى الجبال وإنما يمتطون دائما صهوة خيولهم ويعيشون وسط الصحارى . وهم ينهبون الأتراك والمصريين والأوربيين على حد سواء . ولا يعادل بؤس الحياة التى يحيونها شيئًا سوى شراستهم . فتعرضهم أيام طوال للرمال الحارقة ولهيب الشمس دون مياه تروى ظمأهم ، جعل قلوبهم قاسية لا تعرف شفقة ولا عقيدة. إنه مشهد للإنسان البرى الوحشى فى أبشع صورة ممكن تخيلها.

معركة سدمنت

فجر يوم ١٦ فانديمير ، تحركت فرقة الجنرال ديزيه ، وما لبثت أن وجدت نفسها فى مواجهة جيش مراد بك وقوامه من خمسة إلى ستة آلاف فارس وهى أكبر فرقة عربية ، إضافة إلى مجموعة من المشاة كانت تحرس خنادق سدمنت ، قام الجنرال ديزيه بتشكيل فرقته المكونة كلها من سلاح المشاة على هيئة كتيبة مربعة يقوم على حراستها مربعان صغيران قوام كل منهما مائتا جندى .

بعد تردد طويل ، عقد المماليك عزمهم وانقضوا ببسالة كبيرة مطلقين صيحات مرعبة ، وقاموا بالهجوم على الجناح الأيمن بقيادة الكابتن فاليت والتابع للواء ٢١ ، كما شنوا هجوما مماثلا فى ذات الوقت على مؤخرة القوات التابعة للواء ٨٨ وهى فرقة جيدة باسلة .

وقد قُوبل العدو على كافة الجبهات برباطة جأش. ولم تطلق الفرقة ٢١ النيران إلا بعدما أصبح العدو على بعد ١٠ خطوات ، فتلاقت مع حرابهم . . أما الشجعان من فرقة الخيالة الباسلة فقد لقوا مصرعهم ما بين صفوفنا، بعد أن انهالوا بهراواتهم وبلطاتهم وأسلحتهم وبنادقهم ومسدساتهم على رؤوس جنودنا. وقد تسلل البعض منهم منبطحا على الأرض بعد أن سقطت خيوله صرعى ، حتى لا تطولهم الهراوات فيتمكنوا من بتر أقدام جنودنا ، غير أن محاولاتهم باءت جميعها بالفشل ولم يبق أمامهم من سبيل سوى الفرار .

واصلت جيوشنا الزحف نحو سدمنت على الرغم من خطورة قذائف المدافع الأربعة التى كانت ترصد تحركاتنا ، ولكن قتالنا كان منظم بشدة ،

فكانت الهجمة خـاطفة كالبرق، وتمكنا من الاستيـلاء على الخنادق بالعتاد والمدافـع .

وقد لقى ثلاثة بكوات من جيش مراد بك مـصرعهم ، وأصيب اثنان آخران . بينما قتـل فى ساحـة الحرب أربعمـائة من صفـوة الرجـال . أما خسائرنا فقد انحسرت فى ثلاثين قتيلاً وتسعين مصابا .

بونابرت

ثورة القـاهـرة

نعمنا بعض الوقت بهـدوء جميل فى دميـاط جعلنا نعتقـد فى انعدام قيـام أعدائنا بـأية مشاريـع مشؤومـة . فقـد تخيلنا أن الـفزع الذى تثـيره أسلحتنا، والصـرامة التى ردعنا بها المرة تلو الأخـرى المتمردين ، ستـجبر المنهزم دومـا على خشيـتنا . ولكن حكمنا لمْ يكن صائبـا ، فسرعـان ما وردت لنا أنبـاء عن تمرد القـاهرة ، ولم يتـرك انقطاع البـريد أى شك فى نفوسنا حـول صدق هذه الأنبـاء . علمنا أنه فى صبـاح الثلاثين من شـهر فانديميير تجمع سكان القاهرة محدثين شغبا كبيرا فى جوامعهم ، ومن هناك توجـهوا صـوب منازل الفرنسـيين. وكان أن خـرج الجنرال دوبوا المكلف بقيادة الموقع للتـشاور مع قائد الفيلق التركى لردع المتمـردين ، فذبحوه هو وطاقم حراسـته . وعلمنا أنه على الرغم من الدوريات شبه الدائـمة كانوا يقتلون الفـرنسيين الذين يلقـونهم ممن لا حول لهم ولا قوة ، وأنهم نهـبوا منزل الجنرال كافاريللى بما فيه من أدوات وآلات خـاصة بالهندسة الحربية ، وأن بولاق انضمت لهذا الشغب ، وأنهم ذبحوا خـبازى الجيش إضافة إلى سولكوفسكى قائد إحدى الكتائب وثمانية عـشر مرشدا كانوا فى صحبته ، وعبـثا حاول البـعض إطلاق المدافع التحـذيرية لدب الرعب فى قلوبهم ،

ولكن الفرنسيين اضطروا فى النهـاية لإطلاق المدافع وقذف المدينة من مواقع عـديدة لا سيما من القلعـة . وأن نيران مـدفعيتنا تركزت بشكل أساسى على المسجد الذى ضيقت دوريتنا الخناق على الثوار به ، وأن البدو حاولوا الدخول الى المدينة من أكـثر من جهـة لمد يد العون إليهم ولكنهم لقـوا ما استـحقوا من عـقاب من جراء تهـورهم . وبحلول الليل كان الجمـيع قد خضع وعـاد كل شىء إلى سابق عـهده فى الأول من برومـير فى السـاعة العاشرة مساء .

وقد كان للاحتياطات التى اتخذناها لوأد بذور هذا التمرد والشدة التى أظهرناها فى هذه الظروف والمآسى التى جلبتهـا هذه المدينة على نفسها أبلغ الأثر فى إثارة الرعب فى نفوس من راودتهم أنفسهم أو تحمسوا لكى يحذو حذو أهل القاهرة . فـلزموا حدودهم لحسن الحظ. وقد كنـا نعلم جيدا أن الكل كان مستعدا للثورة والتمـرد لو أن محاولة القاهرة قد كللها النجاح . كانت خـسائر الأتراك وخـيمـة ، لاسيـما فى بولاق التى دمـرها أسطولنا الحربى ، المتمركز أمامها فى النيل .

وما كـادت هذه العاصفـة تهدأ حتى بدأت عاصـفة أخرى فى مـصر العليا . فبعد أن تـلقى الإنجليز تدعيمًا روسيًا تركيًـا ، حاولوا إجراء عملية إنزال فى أبى قيـر باءت بالفشل ، وقـد جعلتنا هذه المحـاولة الجديدة نرى بوضوح المدبر والمحرك الأول لهـذا الهياج العام الذى أخـذ يتهددنا من كل صوب ومكان . عمـلاء الإنجليز الذين تواطئوا مع عمـلاء المماليك وراحوا يجوبون مصر ، يبدرون الذهب ويجزلـون العطاء والوعود ويشيعون الفزع والفسـاد ويثيـرون المصريين والبـدو العرب ضدنا . وراحـوا فى كل مكان يسرفون فى إشـاعة الفرمانات المزموعـة من الباب العالى يدعون فـيها على لسانه أننا قدمنا إلى مـصر ضد رغبة السلطان . وراحـوا ينشرون أن الباب العالى قد أرسل أسطولا حربيا لـملاقاتنا وأنه بالاشتراك مع السفن الإنجليزية

قام باستعادة مدينة الإسكندرية . وقد لعب حسن طوبار الدور الأكبر فى هذه المناورات ، وكان حسن طوبار هذا يدعى منذ وقت طويل بحقه فى حكم دمياط وضواحيها . ولم يستطع المماليك الوقوف أمامه فتركوه ينعم دون رادع بغنيمته مقابل جزية كان يدفعها لهم ، وقدرها خمسمائة ألف فرنك . وقد كون هذا المغامر على البحيرة أسطولاً حربياً صغيراً مكونا من نفاية المصريين الذين انبهروا بفرماناته ، فكانوا يأتون من حين لآخر لإثارة القلق فى نفوس الناس فى دمياط وأنحائها . وقد دفعنى أسلوب هذه الفرمانات التى تحدثنا عنها والطريقة التى وصفوا بها الجيش الفرنسى لأن أوردها هنا بالنص .

فرمان من الوالى
إلى سكان العريش وشعب مصر

نحيطكم علما بأن الباب العالى قد بلغه أمر غزو المحتالين الفرنسيين لمصر ، وهم يدعون زورا أن لديهم تصريحاً بهذا ، وما هى إلا فرمانات سلطانية مزيفة لم يصدرها الباب العالى ، وخطابات مزيفة باسم شخصيات بارزة ، باسمها يريدون طرد الأمراء من مصر وتخليصكم من اضطهادهم .

وهم يخفون نواياهم تحت عباءة الكذب والفسوق . لقد دخلوا إلى الإسكندرية وتمكنوا من الاستيلاء على جميع أنحاء مصر ، ونشروا سمومهم بين سكان البلاد . واليوم انكشفت أقنعتهم . فقد كشفت عن نواياهم الخادعة خطاباتهم المرسلة إلى بلادهم والتى تم احتجازها و قامت بترجمتها السلطات العليا التى حرصت على إحاطة البدو بها علما. ثم إن نواياهم لا تقتصر فقط على حكم مصر إنما تشمل غزو سوريا وبلاد فارس (فليحفظنا الله جميعا من هذا الشر !) .

إنهم اليوم يعاملونكم بالحسنى ، ويخدعونكم بتصرفاتهم الحالية حتى يتمكنوا منكم فيحملونكم حينئذ على رد هباتهم مائة ضعف. سوف يصادرون أموال المؤمنين الحق ويستحلون نساءكم ويجعلون أطفالكم عبيداً وسوف تسيل دماؤكم (فليحفظنا الله) ولكن علينا أن نطيع الله الذى يأمرنا ببذل أموالنا وأنفسنا فى سبيله .

وبمقتضى هذا الأمر ، فإن الباب العالى المفوض بسلطة من ملك الملوك ، سيد الأبطال والمنتصرين ، ملك البحرين والبرين سيد العالم - زاده الله مجدا وحلت له شفاعة رسوله ونبيه المختار المتوكل على الله - يعلن الحرب على أعدائه بمقتضى سلطته وتفويضه الخاص والكامل ، عاقدا عزمه وتوكله على الله . وبمقتضى السلطة التى خولنى إياها ملكنا، ورب سعادتنا، وكذلك كبار شخصيات البلاط ، فقد قمت بتجنيد فرق عديدة قادمة من كل صوب ومكان من تركيا واليونان وبلاد فارس .

وبعد أن تزودنا بكل ما يلزم ، وبالعتاد الحربى المطلوب لصرع أعدائنا سوف نغادر بلاط الباب العالى بصحبة هؤلاء الأبطال الذين يماثلون فى عددهم الرمال على شاطئ البحر. ونحن نأمل - بعون الله - القضاء إلى الأبد على هؤلاء المغتصبين الخونة وتخليص المؤمنين من سيطرتهم . وقد أعلنت القوة المسيحية الأخرى الكراهية والحرب عليهم بالمثل ، لتدنيسهم مقدساتها وحرقهم كتبها وقتلهم قساوستها ومحاربتهم دينها وملكها ، ولإعلانهم عداوتهم لكافة المماليك المسيحية وانقضاضهم عليها كالكلاب. منذ هذه اللحظة تأهبت السفن الإنجليزية والروسية لمد يد العون لأسطول الباب العالى ، سيكون لها مدد على الأرض ، لاسيما وقد ربطت أواصر الصداقة بين القوتين بعد معاهدة التحالف الجديدة التى أبرمت مع الباب العالى .

ولقد وصلنا بحمد الله إلى دمشق بفضل أبطال ظافرين، ويسعدنا أن ينضموا إليكم بسلاح هائل للمشاة وبكل ما يلزم للنصر . أيها المسلمون ، أشيحوا بوجوهكم عن الخونة ، واعتصموا بالله والرسول ، كما اعتصم آباؤكم وأمهاتكم ، وهلموا ، اطلبوا مدد العرب وسكان البلاد ولتتحد قلوبنا ولتتقد حميتكم بنيران الثورة المقدسة وبجهودنا وبنية ملكنا ، فهذا هو واجبنا المقدس تجاه ديننا . ولا تنصتوا للبيانات الماكرة الصادرة عن هؤلاء الخونة والمليئة بالشر والخداع فلم يعد لهم أى أمل . وبوصولنا سوف يصبحون - بعون الله - ضحايا تعساء لمحاربينا الشجعان. وبمجرد أن تحاطوا علما بهذه الأوامر ، وبمجرد أن تفهموا محتواها انضموا الى إخوانكم وتصدوا لمقاومة الخونة واحذروا العصيان إن أردتم تجنب العقاب فى الدنيا والآخرة والسلام .

مجموعة إمضاءات

على الرغم من أن مثل هذه البيانات ما كتبت إلا ليكون لها أوخم العواقب علينا، وكان الهدف منها تحريض وإذكاء التعصب الدينى ضدنا لدى مختلف فئات شعب مصر الذين لا يربط بينهم من رابط سوى شريعة محمد ، وليلعننا الجميع لعداوتنا للأديان حتى الدين الذى تربينا عليه ، نظرا لحروبنا الدائمة مع جميع الممالك المسيحية ، إلا أنها لم تسفر عن الأثر الذى كان يأمله من وضعوها ونشروها وإن جعلتنا نكتشف حجم المخاطر التى تُحدق بنا واستحالة عودتنا إلى وطننا وإبقاءنا على هذه الأراضى التى استولينا عليها إن لم ترسل إلينا فرنسا تعزيزات جديدة ، فحتى إن نجحنا فى مواجهة أعدائنا فمن يؤمننا ضد الطاعون ، هذه الآفة الرهيبة التى تجتاح مصر سنويا ، ألم تحصد صفوفنا بصورة أكثر فاعلية

وسرعة من أسلحة المسلمين ؟ ثم ماذا لو تعرضت فرنسا ذاتها للهجوم ؟ ماذا لو انتُهِك السلام الذى تركناها تنعم به عند رحيلنا ؟ كيف تمدنا فى هذا الحين بغَوث ستكون هى فى أمس الحاجة إليه للذود عن نفسها ؟

كل هذه الأفكار شغلت أذهاننا فى تلك اللحظات القاسية ، ولكن ما لبثت الشجاعة أن طفت على السطح من جديد . ورحنا نقول إن خلاصنا يكمن فى عدم تشبثنا بأية آمال واهية ، وإن علينا أن نترك للقدر أمر التكفل بمصائرنا. ورحنا نتفاخر بعد ذلك بإمكانية إقامة مستعمرة لنا فى مصر، وبنينا حول هذه الفكرة قصوراً ساحرة من الرمال: سنستولى على مضيق السويس ، ونشيد تحصينات فى الأماكن المناسبة ، ونقيم حاجزا لا يقهر فى وجه باشا سوريا ووزيره اللذين يتهددانا بالهجوم . وفكرنا أننا بإصلاح قناة السويس وتهيئتها للملاحة ، سنفتح المجال لتبادل حر بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر، وبين فرنسا والهند ، وستصبح مصر مستودعًا للبضائع القادمة من أوروبا وآسيا، ولن تضطر سفننا للمرور مضطرة عن طريق جبل طارق أو أن تتخذ هذا الملف الهائل حول طريق رأس الرجاء الصالح. ولسوف نجند شباب هذا البلد ونضمهم لصفوف جيشنا وندربهم على استخدام الأسلحة ، وسوف يتعلق ذووهم بنا بعد أن نمنحهم رغد العيش والأمان والسكينة ، وكذلك باحترامنا معتقداتهم . كما سوف يزداد تعداد السكان وسط مناخ من السعادة والوفرة ، وسوف نستولى على مزرعة وضيعة من ضياع المماليك ، ونزرعها على الطريقة الفرنسية، وسوف ننظف جميع قنوات الرى وبحيرة موسى ، ونصلح من شأن التربة بزراعة الأشجار المعمرة التى ستقينا أوراقها الظليلة لهيب الشمس ، وستعود مصر من جديد مخزن غلال أوربا كما كانت يوما للإمبراطورية الرومانية ، وسنعيد تشييد الآثار القديمة المتهدمة ويفك علماؤنا الرموز التى

تزخر بها ، وسيتمكنون بطريقتهم من كشف اللثام عن هذا التاريخ المبهم القديم ، وستعود مصر من جديد عاصمة للفنون والعلوم .

فأرض هذا البلد بطبيعتها خصبة سخية ستتقبل كافة المزروعات من أرز وقمح وبن وسكر وتبغ وأشجار ، وسوف تزدهر زراعة الغلال على أيدينا حتى لتغنينا عن جميع منتجات المستعمرات التى قمنا بغزوها . وإن كانت زراعة الأعناب والمحاصيل الغذائية غير شائعة فذلك لأن زراعتها قد أهملت . ففى أول الفراعنة لم تكن البلاد تخلو منها وقد افتقد بنو إسرائيل بصل مصر فى صحراء سيناء .

تمكن منا حلم تحقيق هذه الأوهام البراقة حتى بدا لنا أن كل ما يقوم به قادتنا يدنينا من هذا الهدف ، فقد وصل جنرالنا بالفعل إلى السويس بقواته مع العلماء الذين انضموا للحملة ، واستولى على المدينة التى تحمل هذا الاسم وبلغ القنال ووضع خريطة لمعالمها القديمة . كما أقام وسائل نقل سهلة تصل السويس بالقاهرة وبلبيس. وقد كان من شأن الإجراءات التى اتخذها استعادة السويس لعظمتها القديمة . وخلال إقامته بها ، تحالف الجنرال مع عرب الطور الذين قدموا ليعرضوها عليه فتم استقبالهم كأصدقاء للجمهورية . ومن ناحية أخرى كانت المنشآت التى رحنا نقيمها فى مختلف المواقع ، وطريقة إدارة البلاد والأعمال التى شرعنا فيها لتحصينها والبقاء فيها وراء ترسيخ اعتقادنا بأننا أصبحنا سادة ضفاف النيل .

وبينما نحن نعقد آمالنا ونشخص بأبصارنا نحو مستقبل غير مضمون ، سرت شائعة سرعان ما تأكدت بقرب رحيلنا إلى سوريا التى حشد الباشا «الجزار» فيها جيوشا كبيرة لملاقاتنا ، فلم نر فى هذا المشروع سوى جبهة جديدة يتأكد فيها مجدنا، وأعمال لاحصر لها كذلك . لم نهمل أى شيء مما تستدعيه الاستعدادات لمثل هذه الحملة . ورحنا نعمل

بكل طاقتنا لإتمامها خلال شهرى نيفوز وفريمير ، ولم يمنعنا الموسم الذى كنا فيه من الإصابة بحمى خبيثة انتشرت لا سيما فى الإسكندرية ودمياط ، فحصدت عدداً من زملائنا . لم يمهلهم هذا المرض اللعين سوى بضعة أيام قبل أن يفتك بهم ،

ومع هذا ، فقد نجحنا بحنكتنا فى وقف فتكه بنا حتى تبدد خطره تماما. فى ذات الوقت ، أى بعد قمع ثورة القاهرة ، أعلن بونابرت البيان التالى :

إلى أهالى القاهرة

حاولت فئة شقية تضليل البعض منكم وقد هلكت . لقد أمرنى الله بالتسامح والرحمة مع الشعب ، فكنت متسامحا ورحيما بكم . لقد ساءتنى ثورتكم ، فحرمتكم لمدة شهرين من ديوانكم ، ولكننى اليوم أعيده إليكم ، فقد محا سلوككم الطيب الأثر الذى خلفته ثورتكم .

أيها الأشراف والعلماء وخطباء المساجد ، فلتعلنوا أن من سينصب نفسه عن قصد عدوا لى فلن يكون له ملاذ فى هذه الدنيا ولا فى الآخرة . فهل هناك إنسان تعميه الغشاوة عن التأكد من أن القدر ذاته هو الذى يقود جميع عملياتى ؟ وهل من أحد على هذا القدر من السذاجة حتى ليشكك أن كل شيء فى هذا الكون الفسيح ليخضع لسطوة القدر ؟

فلتقولوا للشعب قد قدر منذ بدء الخليقة ، أنه بعد القضاء على أعداء الإسلام وإرخاء الصلبان ، سوف آتى من أعماق الغرب لأنفذ المهمة الملقاة على عاتقى . وضحوا للشعب أن هناك أكثر من عشرين فقرة فى كتاب القرآن المقدس تفيد أن ما يحدث قد قدر، وتوضح ما سوف يجيء . فعلى من لا يلعنونا فقط خشية أسلحتنا أن يغيروا من أنفسهم . لأنهم إن دعوا

علينا فإنما ينشدون هلاكهم . وعلى المؤمنين بحق أن يتضرعوا بالدعاء من أجل ازدهار جيوشنا .

بإمكانى محاسبة كل فرد على أدق المشاعر الخبيثة فى قلبه ، حيث إننى أعلم كل ما فى أنفسكم . . حتى مالم تصرحوا به لأحد . ولكن يوما ما سيرى الجميع بوضوح أن ما تقودنى هى أوامر عليا وأن جميع الجهود الإنسانية لن تجدى معى ولن تضرنى بشىء . وسعداء الحظ هم من سوف يقفون بمشاعر خالصة إلى جانبى .

بونابرت

إما أن العرافين فى القاهرة قد انخدعوا بهذا الحديث غير العادى ، وإما أننا قد كسبناهم ببعض الهدايا البسيطة ، لأنهم تبنوا سريعا وجهة نظر جنرالنا بل أسهموا فى تهدئة الشعب ، وإن لم ينجحوا فى تبديد ما فى النفوس . فقد زعموا أن السلطان الفرنسى سوف يختتن ، ويضع العمامة ويتبع دين محمد وكذلك جيشه ، وأن قائداً مثله وجميع الأبطال الذين حوله جديرون بأن يطاعوا ، أو أن يحترموا على الأقل . والحقيقة أن أغلب جنودنا لم يكونوا ليرفضوا جنة النبى إن هو وعدهم بأن يزرعوا فيها أعنابا للنبيذ ، وإن أعفاهم من الاحتفال بهذه المناسبة . ولكن نظرا لتأكدهم من عدم حصولهم على جميع هذه الإعفاءات ، فقد اكتفوا بالتفكير فى الهدف من وراء هذا البيان . الذى جعله المارحون مادة لدعاباتهم ، بينما راح الفلاسفة أو النبهاء - كما كان يسميهم البعض - يسخرون منه أو يرفعون الأكتاف . وكان من رأيهم أنهم لم يحاربوا المعتقدات الأوربية الخاطئة ليتبنوا المعتقدات الشرقية . وإنه ما من سبيل إلا بقول الصدق للشعوب . أما رجال السياسة فعلى عكسهم ، أصروا أن سلامة الجيش تقتضى مثل هذا السلوك ، وأن الرومان حينما كانت

فتوحاتهم تمتد عبر حدودهم ، لم يكونوا ليغيروا شيئًا من عادات وتقاليد وقوانين وديانة الشعوب التى ينتصرون عليها ، وأنه بدلا من جعلها تؤمن بآلهة الكابيتول ، كانوا يمجدون إله أثينا بدلا منها. وقد انضم الجيش كله إلى هذا الرأى الأخير الذى كان فى الحقيقة رأى الجنرال . أما عن النبوءة التى ذكرها فى بيانه ، فقد تركنا للزمن فرصة إجلاء أمرها لنا ، وجاءت الأحداث التالية لتكشف لنا جزئيا عن سر هذا اللغز.

قبل التوجه الى سوريا ، شكلنا كتيبة من الهجانة ، قدمت لنا خدمات جليلة . فالجمال حيوانات شديدة القوة لها قدرة كبيرة على تحمل التعب. إذ يمكنها قطع مسافة عشرين فرسخا فى اليوم دون أكل أو شرب مع حمل رجلين إضافة إلى العتاد والمؤن . كان يقودها رجال يرتدون الجلباب العربى، ويضعون العمامة فوق رؤوسهم . وقد أدى هذا الى تأكيد نبوءة العرافين فى أذهان المسلمين بل جعلنا نكاد نعتقد قرب اعتناقنا هذا الدين .

فى هذه الأثناء ، تلقت كتيبتنا أمرًا بالتحرك نحو سوريا . فغادرت دمياط فى الثانى من بلوفيوز عام ٧ ، الموافق ٢١ يناير (١٧٩٩م) ، أبحرنا متجهين صوب بحيرة المنزلة . وفى الرابع من هذا الشهر ، هدأنا المسيرة حتى تلحق بنا بقية القافلة عند ترعة أم فارج الواقعة على مدخل النيل القديم المسمى التانيتى . وبعد وصول القافلة ، فردنا القلوع مرة أخرى ورحلنا فبلغنا مساء قرية طنان الواقعة على شط البحر ومنها واصلنا التقدم فى الصحراء .

وبما أنه لا يوجد أثر لطريق فى مثل هذه الصحارى فقد فَقَدَ خادمى أثرنا وتاه فى هذه الأراضى الرملية . وحينما حل الليل ولم أره ، داخلنى إحساس يقينى أن العرب وراء هذا وأنهم لابد سلبوه الحمار ومتعلقاتى التى عهدت بها إليه وذبحوه . ومضيت فى طريقى وقد

استسلمت لهذه التضحية الجديدة ووصلت وفرقتي في الساعة الحادية عشرة إلى قطية وهو مكان تجمع القوات التى ستتشكل منها طلائع الجيش إلى سوريا .

وكم كانت دهشتى صباح اليوم التالى حينما رأيت خادمى قادما بحمولته سالما غانما. وكيف استطاع تجنب ضراوة هؤلاء البدو المتوحشين الذين كانوا يعيثون فى الصحراء فسادا فيزيدون من وعورتها .

وهذا ما رواه لى :

«بعدما تركتك ، وجدت نفسى دون سابق إنذار فى خيمة زعيم للعرب فجلست أستريح فى ظل خيمته ، وإذ به يظهر بعد حين فطلبت منه بالعربية حسن الوفادة، فأجابنى : «لحسن طالعك أنك جاورت خيمتى فهذا يضمن لك عهدى بالأمان ، وحسن الضيافة واجب مقدس بيننا» . وبعد أن سقانى أنا وحمارى ، صرفنى وهو يصحبنى بأفضل أمنيات السعادة " وقال لى : «امض فى طريقك لا تنحرف يمينا أو يسارًا لأنه لو قابلك أحد من رجالى خارج هذا الخط المستقيم فلن أستطيع أن أفعل شيئًا من أجلك ، وسيكون مصيرك سيئًا» . وبالطبع لا تسألنى إن كنت لم أحد عن الطريق الذى أشار إلى به بعينيه ويده ، لذا لم أقابل أحداً وها أنا بينكم كما ترون» .

كان حظه أفضل بكثير من أحد مفارز كتيبتنا بقيادة كابتن وملازم ، كانت تحرس قافلة مواد إعاشة . إذ قامت مجموعة من قطاع الطرق بمهاجمتها فى العاشر من هذا الشهر فى الصحراء على بعد فرسخين من قطية . كانت تفوقهم عددا ، فجرح الكابتن وصرعت ثلاثة رجال وأصابت أربعة عشر آخرين واستولت على القافلة .

٤ فبراير (١٧٩٩م)

السادس عشر من بلوفيوز ، فى الحادية عشرة مساء رجعنا من قطية للبحث عن قافلة مؤن وعتاد . وبسبب ظلمة الليل ، ضللنا الطريق فى الصحراء . وبعد أن ظللنا نسير دون انقطاع بدأ الفجر يبزغ ، فإذ بنا على مسافة فرسخ ونصف من نقطة البداية . وعلى الرغم من فرط انهاكنا ، مضينا فى طريقنا وعدنا فى المساء إلى قطية حيث كان بانتظارنا أمر جديد بالرحيل . فرحلنا صباح اليوم التالى ونصبنا «وطاقنا» على بعد ستة فراسخ من هذا المكان . ولم نجد سوى ماء أجاج نطفئ به ظمأنا الشديد .

التاسع عشر من بلوفيوز ، أمضينا النهار فى قطع مسافة ثمانية فراسخ فوق رمال حارقة دون العثور على قطرة ماء لا على الطريق ولا حيث توقفنا . فما كان من أحد الجنود الذين تذرعوا بالصبر حتى هذه اللحظة إلا أن انقض باندفاع شديد على قِرَب المياه ومنعنا من توزيعها بالتساوى .

العشرون من بلوفيوز ، أهلكنا العطش والمماليك ، وقد وهنت قوانا من جراء ملاحقتهم حتى أن نصف وحدتنا سقطت من الإعياء ، وظل العديد من الجنود راقدين بلا حراك أو حياة . بلغنا أحد الصهاريج فى الليل ، ولما لم يكف هذا العدد الكبير شرعنا فى حفر الأرض المحيطة و قد بدت لنا رطبة ، ونجحنا فى استخراج مياه نطفئ بها ظمأنا . وعلى الرغم من رداءتها إلا أنها كانت فى هذه اللحظة أشهى من أفضل نبيذ فى العالم . وبعد أن روينا ظمأنا استعدنا مرحنا الطبيعى الذى يميز الفرنسيين ونسينا آلامنا السابقة . فعدنا نتبادل الدعابات والتراشق بالألفاظ الفاحشة حتى وصلنا إلى غابة من نخيل بالقرب من العريش على بعد فرسخ من البحر ، فاتخذنا بعض الاستعدادات للاستيلاء عليها . ولكن الهجوم أرجئ للغد . ولا أدرى أية غشاوة أقنعتنا أن هذا المكان لايضم سوى

مجموعة من أكواخ عتيقة يحرسها نفر قليل . وقد دفعنا ثمن سوء تقديرنا هذا غاليا إلى حد ما . فقد قام الجنرال رينبيه قائد المفرزة المتقدمة بإطلاق ما يقرب من ثلاثين طلقة مدفعية على هذه الأكواخ ، ولما لم يرد سلاح مشاة العدو ، وقع هو فى الفخ . فقد قربنا هذا الهجوم من الهدف فزالت الغشاوة عن عيوننا وأدركنا بعد فوات الأوان أن أمامنا قلعة منيعة مغلقة ، أمامها حائط مرتفع يخفى قرية أو كمية من المنازل الصغيرة المليئة بالرجال المسلحين. وقد تركونا نتقدم و. ما كدنا ، حتى انهالوا علينا بوابل من الطلقات ، فكانت تأتينا من كل صوب ومكان دون حتى أن نتمكن من تبين مصدرها. وقد قاتلنا بضَرَاوَة ولكننا اضطررنا إلى التسليم ، نظرا لتفوقهم العددى علينا ولتميز موقعهم . وقد كلفتنا تلك المفاجأة - أو ربما غفلتنا - عن أخذ الاحتياطات الطبيعية - ثلاثمائة شخص أصبحوا غير صالحين للقتال كنت من بينهم. فقد أصبت برصاصة حطمت بعض عظام ساقى اليمنى . أما العدو فقد فَقَدَ بدوره عددًا كبيرًا من صفوفه . وبعد أن جعل هذا الحادث المزعج عملية اقتحام القلعة أمرًا محفوفًا بالمخاطر، اضطررنا إلى تغيير خططنا والاكتفاء بمحاصرته انتظارا لإمدادات جديدة . ولم يكن هذا الوضع بأفضل من سابقه ، فقد كانت تنقصنا مواد الإعاشة كما كان يتهددنا ويقلق راحتنا بصورة مستمرة حوالى ستمائة مملوك على صهوة خيولهم ، إضافة لثلاثمائة من المشاة كانوا يحاولون إمداد الحصن بالمواد الغذائية .

ظللنا فى حالة استعداد دائمة بأسلحتنا ولكننا لم نكن نعرف أى المواقع نتخذها . كانت الإسعاف هى الشئ الوحيد الثابت رغم تعرضها للخطر ولكن طبيعة أغلب الإصابات لم تكن لتسمح للمرضى بأية حركة وقد كادوا يذبحون مائة مرة طوال فترة الحصار. كانت لحظات قاسية كدنا نموت فيها مائة مرة ومرة دون أن نرى نهاية لهذا الاحتضار.

ومع تزايد وطأة المجاعة ، لم يكن أمامنا من مخرج سوى أكل الجمال والخيول وكل ما كـان فى متناول أيدينا. بينما احتفظ المماليك تحت سمعنا وبصرنا بقافلة هائلة من مواد الإعاشة .

كان هذا أشبه بعذاب طنطنال[1] . . لذا حق الاستيلاء عليها.

١٧ فبراير ١٧٩٩

وهذا ما فعلناه فى السابع والعشرين من بلوفيوز. فقد فاجأناهم فى معسكرهم وكنا من القوة والسرعة بحيث لم يكن لديهم سوى وقت ليمتطوا خيولهم ويفروا مخلفين وراء هم كل مؤنهم وعتادهم ، وقد تسبب هروب الكثير من خيولهم فى وقوع فرسانهم بين أيدينا، وبعد ملاحقة الآخرين قبضنا على اثنى عشر عسكريا وقتلنا أحد كبار البكوات . وقد اصيبوا ببلبلة كبيرة من جراء هذه العلقة الساخنة حتى أنهم ما عادوا يحومون حولنا مثل سابق عهدهم .

وقد خففت عنا هذه الغنيمة كثيرا ، وأعانتنا على الصبر بضعة أيام أخرى . ونظرا لرفض المحاصرين تسليم القلعة والرضوخ ، فكرنا فى إجبارهم على هذا. ولغمنا الموقع لينفجر فيهم غير أن ألغامهم المعاكسة أحبطت مشاريعنا . ولكنهم اضطروا لبدء المفاوضات بعدما تركهم المماليك ، فى نفس وقت وصول الجنرال حاملا معه إمدادات كثيرة .

ولكن العدو قرر التصدى لهجماتنا بعد رفض مقترحاتنا . فلم يبق أمامنا سوى دك القلعة ببعض قذائف المدفعية والقنابل حتى رضخوا لشروطنا .

(١) هو عذاب من يشتهى شئ فلا يتمكن أبداً من الحصول عليه كما جاء فى الأسطورة (المترجمة) .

وقد خرجوا علينا فى الثانى من فنتوز الموافق ٢٠ فبراير نحو الساعة العاشرة أو الحادية عشرة مساء ، وسلموا لنا هذه القلعة البائسة التى دافع عنها حفنة من الرجال من مختلف الأمم لم يتعدوا المائة الخمسين شخصا . وقد استطاع الجنرال الاستفادة منهم فقد استقطب زعماءهم لخدمة مصالحنا وجندهم فى خدمته لحسابنا وشكّل منهم سرية كلفها بمهام خاصة .

وقد حالت العملية التى أجريت لساقى من أجل نزع الرصاص منها ، وما نجم عنها من الآلام ، دون لحاقى بلوائى الذى رحل فى الثالث من فانتوز ضمن القوات المتقدمة بقيادة كليبر . واضطررت إذًا للبقاء فى وحدة الإسعاف المقامة بالعريش ، هذه البلدة القاحلة المجردة من كل شىء والتى تبعد عن القاهرة بنحو ستين فرسخا وعن غزة بنحو خمسة عشر فرسخا . ولم تكن تصلنا أية مؤن إلا عن طريق قطية ، وما لبثت تلك الموارد أن انقطعت بعد حين ، لنقصها يوما بعد يوم فى قطية ، فإذا بنا من جديد نهب للمجاعات ، ومضطرين لأكل لحوم الخيول التى كنا نأخذها الواحدة تلو الأخرى . وكان دور فرسى قادمًا لا محالة لولا أن أسعفنا وصول إحدى القوافل .

تلقينا أخيرا فى الحادى عشر من فانتوز النبأ السعيد بأن غزة قد ستسلمت ومنذ ذلك الحين تحسنت معاملتنا فوزع على كل واحد منا ٥٠٠ ىرام من البقسماط وقطعة من لحم الجمل ، فكانت تمثل حصتنا اليومية . وعلى الرغم من ضآلتها وعدم جودة نوعيتها إلا أننا رضينا بها . فأقل قدر من الرفاهية أصبح يترك أفضل الأثر فى نفوسنا بعد كل ما مررنا به من محن قاسية .

وعلى الرغم من آلامنا ومن الملل الذى كان يفترسنا ، فقد نعمنا بقدر لا بأس به من الهدوء حتى أيقظنا الجنرال فى منتصف ليلة العشرين من فانتوز . إنذار فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ! هذا نذير بمآسى جديدة

وبهجـوم غير متوقـع ! وبالفعل دلف البدو الى خيـام بعض المرضى أسفل أسوار الـقلعة واسـتولوا على كل مـا طالته أيديهم مـن السلاح. غـير أن الإجـراءات التى اتخـذناها فورا لمواجـهـتهـم لم تسمح لـهم بالمزيـد من الأعـمال . ولكننـا حرصنا بعـد مـا حدث علـى نقل باقى المرضى داخل القلعـة ، وتدبرنا أمرنا لنكون بمعزل عن وقاحة هؤلاء البرابرة .

وقد اعتقـدنا أن مصر كانت وحدها مسرحـا لنهبهم ولكننا أخطأنا ، فقد أثبتت لنا أحداث عديدة أن سوريا تـقتسم شرف هذا الخطر معنا ، فما من قـافلة كانت تسـتطيع المرور دون التـعرض لـهجـماتهم . حـدث هذا للجنرال ولخزانة الجيش على بعد عـدة فراسخ من غزة ولكن هجماتهم لم تكلل بالنجاح .

جاءنا نبأ الاسـتيلاء على يافا عـبر العريش فى الرابع والعـشرين من فانتـوز . ويافا بلدة سورية حـصينة صـغيرة كـان يدافع عنها سبـعة آلاف شخص. وقد أجبرونا على مداهمتهم والهجوم عليهم ، لاسيما بعد قتلهم مبعوثنا إليهم ، فأطلقنا على جميعهم النار فيما عدا مائتى مصرى عدنا بهم إلى القاهرة . وكانت فـرقة كليبر هى من أخضـعت هذه المدينة لسيطرتنا. وسرعان ما احتلت قواتنا الحصون التى وجدوا فيها أربع قطع مدفعية ، كان السلطان قد أرسلها إلى الجزار باشا. إثر هذا توجـه الجنرال كليبر إلى حيفا واستولى عليها ، ولم يصل الأمر به إلى حـد القتال ولم يحتج إليه ، فقد فر العدو وغادر المكان حينما علم بقدومه . وقد عثر الجيش فى المكان على كميات كبيرة من المؤن والمواد الغذائية .

كان الهدف من الحملة على سوريا هو الاستيلاء على عكا وهى موقع أساسى للدفاع عن مصر . كانت الانتصـارات السابقة فألاً حسناً ولكنها لم تكن لتضـمن لنا نجاح مشروعنـا . فعكا كانت مقـر الباشا ، وكانت أكـبر حجـما وأشد تحـصينا وحراسـة من المدن التى أخضعنـاها لتونا. بالتأكـيد

سيقاوم هذا المكان مدة أطول وسنفقد فيه أعدادا كبيرة . وسوف نرى إن كان لتلك المخاوف التى تساورنا أساس من الصحة .

أما عنى فقد سئمت أكل البقسماط ولحم الجمال وحفنة الأرز ، وكنت متمسكا بفكرة الرحيل والمشاركة سواء فى المخاطر التى يتعرض لها زملائى أو فى المجد الذى ينتظرهم ، فقررت الرحيل عن صحراء العريش .

كانت عيناى قد ألفتا منذ فترة مرأى الكثبان الرملية الحارقة ، فأدهشتها المناظر الأكثر إمتاعا والمتمثلة فى الحقول وقد اكتست بأبهى المحاصيل والمنحدرات المخضرة الموشاة بزهور الخشخاش، وآلاف الزهور العطرية . . وقد شاركنى زملائى انفعالى بالمنظر وشدة فرحتى . وقد علمنا ونحن فى الطريق أن كل هذه الحقول المزروعة والمراعى الخضراء الكثيفة والتلال المزهرة هى لأعراب رحالة هائمين فى المكان ليس لهم من مأوى سوى فجوات حفروها فى الرمال .

كان هذا فى الأول من جيرمينال الموافق ٢١ مارس ١٧٩٩ ، حينما تهيأت لناظرى المتعبين من رتابة مشهد الصحراء هذه الفرصة الطيبة لأول مرة . كنا نعانى من نقص شديد فى المياه طوال هذا اليوم ، وأملنا فى العثور على شىء منها فى الليل بأحد الصهاريج التى أعلنوا عن وجودها فى الانحاء ، ولكننا تخطيناها دون أن ندرى ، مما أهدر جهودنا لاكتشافها . وأخيرا وجدناها . . فما كان شىء أجمل ولا أطيب لنا من أن نطفئ ظمأنا وظمأ مطايانا . ثم آوينا إلى حقل شعير نلتمس فيه بعض الراحة وتركنا خيولنا وجمالنا ترعى فيه فأخذوا منه حظهم .

وطوال الليل ، كان يصل إلى مسامعنا صوت البدو وهم يقلدون صيحة الثعلب ، وهى الإشارة المتداولة بينهم أن أرادوا الاجتماع أو

الاستغاثة لمد يد العون لهم . ولاشك أن عددنا أحبط من عزيمتهم ، لانهم لم يقوموا بأية محاولة ضدنا ، فنمنا ملء جفوننا .

٢٢ مارس (١٧٩٩م)

فى الثانى من جيرمينال وبعد ساعة من السير بلغنا السوارى الواقعة على الحدود بين افريقيا وآسيا وقد بدت لنا واحدة موجهة نحو البحر الأحمر والأخرى صوب البحر الأبيض المتوسط بزاوية . وعلى مسافة أبعد بقليل صادفنا بئر رفح وعلى الرغم من عمقها المذهل إلا أن مياهها غير سائغة للشرب ولكن عطشنا لم يترك لنا خيارا .

وعلى بعد ثلاثة فراسخ من هذه البئر، وجدنا حصنًا وقرية محوطة بشجر الفواكه ، وقد أشاع مرآها البهجة فى نفوسنا ، وكنا كلما تقدمنا وجدنا أراضى مزروعة . ثم وصلنا أخيرا إلى غزة وقد غطت جنباتها أشجار زيتون هائلة فكانت متعة وبهجة للعين . لم يتح لى جرحى المضى قدما، فدخلت المستشفى فى اليوم نفسه ، أى فى الثانى من جيرمينال عام ٧ .

لقد كانت رغبتى الشديدة فى مغادرة قلعة العريش الملعونة وراء اعتقادى بأننى شفيت ، ولكن كم كنت مخدوعًا . وقد حاولت ذات يوم الخروج من مستشفى غزة ولكننى ما إن تقدمت بضع خطوات خارج حدودها حتى دلنى الوجع والوهن على وجود قطعة رصاص أخرى فى باطن القدم . فكان لابد من إجراء قطع جديد لاستخراجها سرعان ما اندمل بعد بضعة أيام .

ومن شدة ضيقى بهذا الحبس حاولت الخروج مرة أخرى ، ولكن ثقل جسدى المحمول على القدم المريضة أظهر وجود شظية جديدة

كان لابد من انتزاعها. ولم تكن هذه إلا مقدمة لألم أكبر هدد حياتى وكاد يودى بها. فلقد داهمتنى حمى شديدة فى هذا اليوم نفسه. وما لبث الخرّاج الذى ظهر تحت إبطى الأيمن أن نبأنى بقدوم الخطر، وبنوعية المرض الذى أصابنى . وفى اليوم التالى ، الموافق ١٩ جيرمينال ، طلبت أن يأتينى كبير الجراحين فأخبرونى بإصابته بنفس المرض الذى أصبت به. فطلبت طبيبا ، فأجابونى أنه أصيب بالمرض نفسه. وحينما طلبت حضور المدير والجراح العادى جاءنى الرد نفسه . كان احتياجى مع هذا شديداً للدواء ؛ فطلبت الصيدلى الذى جاهد قدر الإمكان فى سبيل الوصول إلى واعترف لى أنه هو الآخر مصاب بالداء نفسه ، ونصحنى بأن أتقيأ وأحاول إفراز العرق قدر الإمكان قائلا إنه سيفعل بالمثل . وقد اتبعت نصيحته فجاءت نتيجتها لصالحى . وبعد أن مرت الحمى والوهن الشديد سألت عن أخبار زملاء السفر الستة فعلمت أنهم ماتوا جميعا إلا الصيدلى الذى ما لبث أن تبعهم إلى القبر بعد أربعة أيام .

اجتاح الوباء وتضاعف وباله وشهدت موت العديد من زملائى الذين أسفت عليهم أشد الأسف ، ولن تمحى صورتهم من خيالى . كان من بينهم خادمى ، هذا الصبى الممتاز الذى أحاطنى برعايته التى ربما أنقذت حياتى ، ولكن الحظ لم يسعفه ليضمن لنفسه البقاء، فمات بدوره تحت سمعى وبصرى فى ظرف ثلاثة أيام لا أكثر . وفى غضون ستة أسابيع ، راح ضحية لهذا الوباء ما يقرب من ثلثى الفرنسيين الثلاثمائة المحتمين بهذه المدينة .

وقد تحولت المستشفى لحجر صحى تحت الملاحظة . وقد غادرتها بعد خمسة عشر يوما ، وبقيت فى غزة مضطرا حتى أستعيد كامل قواى . وأقول إننى بقيت مضطرا وعلى مضض لأن وضعنا كان حرجا للغاية .

فى هذه الأثناء ، كـان كل تفكيـرنا ودعـاؤنا منصـبين على الجـيش المحاصر عكا . وكنا نتحرق شوقا لسـماع أنبائه ، وقد علمت من خلال ما سوف أقصه عليكم موقفهم المؤلم .

٣٢ مايو (١٧٩٩م)

الرابع من بريريال ، امتطى كـومندان المقاطعة حصـانه واتجه مع قائد أركانه إلى ميناء غـزة القديم يتفقـد سفينة يونانية محـملة بالمؤن للجيش ، ودعاني لمرافقـته فلبيت الدعوة بكل سرور . وما إن بلغنا شـاطئ البحر ، حتى لمحنا سـتة مراكب شراعـية آتية من بعيـد ، فأدخلت بعض الأمل فى قلوبنا ، لأنها إن كانت بالفعل فرنسية فسوف تحمل لنا بالتأكيد نبأ الاستيلاء على عكا ، أما إن كانـت إنجليزية فسيكون معنى هـذا أيضا طرد العدو من المدينة وأنه يقوم بالانسحاب .

انتظرنا فى لهفة قدوم المراكب وقد خدعتنا آمانينا. ولم يلبث الأمر أن تكشف لنا . دنت منا فرقاطة حـتى أصبحنا فى متناول مدافعـها ، فبادرتنا برشقة مدفعية ليست من الأدب فى شىء ، ثم اتجهت سفينة أخرى وبادرت السفينة اليونانية بنفس التحية فلم يعد أمامها سوى الاستسلام .

لـم يكن بحوزتنا أية وسـيلة دفاعية ، وبتنا معـرضين لخطر محقق مما دفعنـا للعودة الى غـزة وكلنا حسرة وغـيظ وقد شـاهدنا بأعيننـا كيف تم الاستيلاء على المؤن المخصصة لنا .

ورحنا طوال الطريق نفكر فى حـتمـية وجـود جيـوشـنا فى عكا ، وأنهم لابد قد طردوا الإنجليز منها نظرا لوجودهم فى هذه المياه البحرية التى لـم يعتادوا ارتيادها أو الظهور بها .

كانت أوهامًا بائسة وتفكيرًا واهيًا فـقد كان أول ما وقعت عليه عيناى عند عودتنا إلى غزة هو منظر جندى جريح اعتقدت أنه قدم إلينا من الجيش ،

فصحت عند رؤيته : إيه! استوليتم على عكا ؟ فأجاب : «كلا ، بل نحن ننسحب من سوريا» .

وقع على الأمر كالصاعقة ، ولم أقو على معرفة المزيد . وبعد ساعات قليلة أدركت فداحة مصيبتنا ، إذ توافدت علينا قوافل المصابين ، وعلمت أنه بعد آلاف الأعمال البطولية التى قام بها رجالنا الشجعان وبعد عدة هجمات فقدنا خلالها كمية من جنودنا وضباطنا البواسل من المراتب العليا ، اضطررنا للتخلى عن الحصار . كما علمت أن أسطولاً عسكريًا جاء ليمدنا بالمؤن والسلاح ، ولكن الإنجليز اعترضوا طريقه واستغلوا ما كان مخصصا لتدمير عكا فى الدفاع عنها . فكان فى خسارتنا تلك خير عون لهم ، أكثر من المتاريس والتحصينات ، فقد أفقدنا نقص المدفعية الثقيلة القدرة على إحراز انتصارات قوية على هذه القلعة الحصينة[1] ثم إن الجيش لم يكن كبير العدد حتى يمكن التضحية ببعض رجاله فى محاولة تصعيد عام .

وقد قام أحد المهاجرين الفرنسيين الشبان وكان زميلا لبونابرت فى المدرسة العسكرية بقيادة العمليات طبقا للخطط العسكرية الجديدة ، فكان مشهد زملاء الدراسة القدامى وهم يتصارعون لقضايا متعارضة كل التعارض يصيب بالصدمة الشديدة . ولم يكن لتفوت ملاحظته على الجيش الفرنسى، فقد كان لافتا بالفعل . وكم كنا نرغب لو أن الكولونيل فيليبو (وهذا اسمه) أبرز مهاراته تلك ضد الانجليز الذى وهب براعته لهم. لقد كان حرى به أن يتنافس بشرف مع خصمه ويتفوق عليه كما فعل فى عكا حيث لقى مصرعه كما يقولون .

(١) استولى الفرنسيون بقيادة الملك فيليب اوجست والإنجليز بقيادة الملك ريتشارد قلب الأسد على عكا خلال الحملة الصليبية الثالثة .

وقد تم إعلامنا رسميًا بالانسحاب وعودتنا إلى مصر بالبيان التالى :

مركز القيادة العام بعكا

الثامن والعشرون من فلوريال عام ٧ الموافق ١٧ مايو (١٧٩٩م)

بونابرت القائد العام

أيها الجنود :

اجتزتم الصحراء التى تفصل أفريقيا عن آسيا بأسرع مما يفعل جيش عربى . لقد قضيتم على الجيش الذى كان فى طريقه لغزو مصر ، وأسرتم قائده ، واستوليتم على عدتهم وعتادهم وقربهم وجمالهم . وتمكنتم من جميع النقاط الحصينة التى تحمى الآبار فى الصحراء . وشتتم الحشود القادمة من جميع بقاع آسيا لنهب مصر .

لقد كانت السفن الثلاثون التى رأيتموها قادمة إلى عكا منذ يومين تحمل السلاح لمحاصرة الاسكندرية . ولكنها اضطرت للهرع إلى عكا لتلقى مصيرها المحتوم . سوف يزين جزءًا من هذه الرايات دخولكم مصر . فبعد أن أشعلتم الحرب بحفنة من الرجال فى قلب سوريا ، واستوليتم على خمسين راية وأسرتم ستة آلاف شخص وقمتم بدك حصون غزة ويافا وحيفا وعكا سوف تعودون إلى مصر . فموسم إرساء السفن ينادينا .

لم يكن أمامكم سوى بضعة أيام لتتمكنوا من إلقاء القبض على الباشا ذاته فى عقر داره . ولكن الاستيلاء على حصن عكا لا يساوى ضياع بضعة أيام منّا فى هذه الفترة من العام، فحاجتى الآن ماسة للرجال الشجعان الذين ربما أفقدهم فى هذه المعركة ، للقيام بعمليات أكثر أهمية .

أيها الجنود ، أمامنا مشوار ملؤه التعب والمخاطر . فبعد أن جعلنا الشرق فى حالة لا تسمح له بالقيام بأى عمل ضد هذه الحملة ، يبدو أنه قد آن الأوان للتصدى لجزء من الغرب . وهى فرصة جديدة لإعلاء

مجـدكم . وإذا كان لا يمر يوم دون أن نفقـد أحد جنودنا الشجـعان وسط هذا السـيل من المعارك ، فـعلى الآخريـن أن ينهضـوا وينضمـوا بدورهـم للصفوف مع هؤلاء الذين يذودون عن الوطن ويتـحملون المحن فيحق لهم النصـر .

بونابرت

تصاعدت الصـيحات بعد تلاوة هذا البـيان ، فلم يعـد هناك شـك فى أن علينا معاودة اجتياز هذه الصحراء الـرهيبة التى عانينا فيها الأمرين . ولابد أن الحرارة فى هذا الوقت من العـام أكثر حدة ، بالإضـافة إلى ندرة المياه . . وطبـيعى أن أربعة أشـهر من التعب المضنى ، مع جـميع صنوف الحرمـان من شأنهـا أن توهن قوة الرجـال ، وأنه سيكون هناك مـزيد من الجرحى نحملهم فى طريقنا ، بخلاف المصابين بالطاعون . يا إلهى ! يالها من عودة فظيعة ! ناهيك عما سوف نلقاه فى الصحراء خلال رحلتنا .

ولكن ماعاد شيء يهمّ . فقد صدر الأمر وعلينا التنفيذ .

ظل المصابون يتوافدون قـافلة تلو الأخرى ، ومفرزة تلو الأخـرى . ثـم بدأت فرق من الجـيش فى الوصول . وبما أننى لـم أكن قـد تماثلت تمامًا للشفاء بعد، لـم أرغب فى انتظار فرقتى التى كانت فى الصفوف الأخيرة ، فغادرت غزة قبلها فى الثانى عشر من بريريال الموافق ٣١ مايو (١٧٩٩م) . لم يكن يوما طويلا ، وتحملنـا التعب والمشقة بسهولة، أمـا يوم ١٣ ، فقد بدأ العطش يتزايد ، وقد اطفأنا ظمـأنا فى المساء عند وصولنا للعريش التى غادرناها يوم ١٤ بريريال ظهراً وقد عـثرنا هذه المرة على ماء ، الأمر الذى أدهشنا لأن عنـد مـرورنا فى المرة الأولى لم يكن هنـاك أية مـيـاه فى هذه الأماكن .

لقد كان العطش ينسينا الجوع الذى لـم يكن ليهدأ منه بعض فتات من البقسماط . وقد ازداد الأمر سوءاً فى اليوم التالى ، إذ لم يتحمل المصابون بالطاعون والجرحى وبعض الجنود هذا الحرمـان من العطش فانتهت حياتهم فى هذه الصحراء الرهيـبة . وقد أدت شدة الجفاف لنضـوب المياه فى أحد الصهـاريج الذى عقدنا عليه الآمـال . ولم يكن السادس عشـرمنه بأحسن حالاً ، فقـد لاقينا نفس المعاناة وفقدنا بالمثل عـدداً من الرجال . وقد بلغنا فى ذلك اليوم قطـية حيث وجـدنا وفرة من المياه. وقـررت أن انتظر لوائى الذى وصل فى اليـوم التـالى . وإذ كـان قد طاب لى أن أرى اصـدقـائى وأضمهم مرة أخـرى ، فقد تألمت كثيرا لفقدان العـديد منهم بسبب متاعب السفر أو فى سـاحة القتال . أمـا من لاقيتهم فكانوا فى حـالة من الإنهاك والجفاف تعذر على معها التـعرف على من كانت رؤيتهم مألوفة جدا لى ، لا سيما بعد ثلاثة أشهر من الفراق .

وقد علمت منهم جمـيع تفاصيل معاناة جيـوشنا فى سوريا ، وموت ضباط كنت أعرفهم ، وعدد الهجمات التى شنوها فى عكا دون أن يصيبوا فيها نجاحًـا يذكر ، وما أبلاه لواؤنا ، واستمرار جدارته بلقبـه الذى اكتسبه فى إيطاليا . كـما علمت عدد الشجـعان الذين فقدناهم وجـميع الظروف التى صاحبت الجلاء .

علمت أيضـا مصـير المصـابين بالطاعـون الذين أُضطروا لتركـهم فى الطريق نهـبًا لعدو بربرى شـرس ، ومدافـعنا التى اضطروا لإخفـائها نظراً لنقص وسائل النقل .

يالصعوبة الحاجة ، ويالالأفكار المشؤومـة . أيتها الإنسانية ، هل كان لابد للفرنسيين أن يهينوك وراء البحار . طموح مـشؤوم وسياسة جهنمية ، ألن ترتوى من الضـحاية الأبريـاء ! ولكن من الأجدى أن نبـتعـد عن هذا المشهد الرهيب .

حرص جيشنا ، كى يؤخر ملاحقة العدو لنا ، على تفجير كل المواقع الحصينة وعلى اضرام النيران فى جميع القرى ، وإحراق جميع حقول القمح التى لقيها فى طريقه .

وقد غادرنا قطية فى العشرين من بريريال ، ووصل الجيش فى الثانى والعشرين منه إلى الصالحية حيث وجد مياه . ثم بلغ المنزلة فى اليوم التالى . وبدأ الجيش فى الرابع والعشرين يشعر بالفرق بين هذه الأراضى والصحراء التى اجتزناها .

مررنا يوم ٢٥ على حقول خصيبة قادتنا إلى النيل ، فكانت فى وفرة المحاصيل التى تغطى الأراضى متعة لناظرينا . والحقيقة أننا اعترفنا بأننا لم نشاهد قط مشهداً أجمل من هذا .

عسكرنا فى فرسكور التى غادرناها فى صباح السادس والعشرين منه. لم تكن عودتنا لمصر عودة غانمة ، ولكنها كانت سعيدة على أية حال . فمصر التى طالما كرهناها أول الأمر بدت لنا جنة بالقياس لسوريا . على الأقل لا أحد يموت فيها جوعًا أو عطشًا . . والحقيقة أن الإنسان لكى يستمتع بالأشياء متوسطة القيمة لابد أن يكون قد جرب مرارة البؤس . وأعتقد أن سوريا بالقياس لمصر هى أشبه بمصر بالقياس لفرنسا .

وبعد أن تابعنا جيش سوريا وعلمنا بأمره ، حان الوقت لمعرفة عمليات الجيوش التى ظلت بمصر . وأعتقد أن فى هذا البيان ما يفى بالغرض :

المركز العام للقيادة

الأول من ميسيدور عام ٧ الموافق ١٩ يونيو (١٧٩٩م)

من بونابرت القائد العام إلى حكومة المديرين

أيها المواطنون المديرون :

خلال غزوى سوريا ، شهدت مصر العليا أعمالا عسكرية تستوجب أن أحيطكم علما بها .

فى الثانى عشر من بلوفيوز قام نفر من مدينة بنى سويف بالثورة . وقاد الجنرال فُو كتيبة من اللواء ٢٢ ، و بدر أربعة فراسخ من البلد بالجثث ، ثم ما لبث النظام أن استتب . ولم يلق من جانبنا سوى ثلاثة أشخاص مصرعهم بينما جُرِح عشرون آخرون .

فى الخامس عشر من بلوفيوز ، تم تدعيم الأسطول الإنجليزى القابع أمام الإسكندرية . وقد بدأ بعد وقت قليل فى ضرب الميناء . ألقى الإنجليز على الميناء من ١٥٠٠ إلى ١٦٠٠ قنبلة لم تتسبب فى مقتل أحد ولكنها هدمت منزلين رديئى البناء ، كما تعرض مركب قديم للغرق .

فى السادس عشر من فانتوز ، اختفت السفن الانجليزية ولم نرها مرة أخرى . وكانت أربعة زوارق محملة بالمدفعية قد غادرت السويس فى الثالث عشر منه لتصل الى القصير فى الثامن عشر من نفس الشهر ، حيث وجدت عدة سفن محملة بكنوز للماليك استولى عليها الجنرال ديزيه فى مصر العليا . مع أولى طلقات المدفعية اصيب الزورق المدفعى تاجليامنتو ٢ وانفجر فى الهواء . ولن يكون للجمهورية بحارون قط طالما لم نعدل كافة القوانين البحرية. فقد يتسبب سرير معلق موضوع فى غير مكانه المناسب ، أو صندوق ذخيرة مهمل فى هلاك أسطول حربى بأكمله . كان لابد من إلغاء هيئة المحلفين والمستشارين والمجالس الموجودة على السفن ، بحيث لا يكون ثمة سلطة أخرى بخلاف سلطة القبطان التى لابد أن تكون مطلقة مثل سلطة قناصلة الروم فى جيوشهم .

إذا كـان الحظ لم يحـالفنا فى البـحـار فليس هذا لنقص فى الرجـال المتمـرسين أو فى العتـاد أو النقود وإنما يرجع لغـياب العزيمـة . فإذا تركنا النظام البحـرى على ما هو عليـه فالأجدى أن نغلق مـوانينا ، فهـذه نقود ضائعة .

قـام الكومندان دورانتـو وهو رئيس لواء بالـفرقـة ٣٢ بالتـوجـه إلى الشرقية. وقد تم إحراق قرية بردين وقتل جميع سكانها بعد قيامها بثـورة.

فى الخامس عشـر من فانتوز، علم الجنرال دوجا بقـدوم قافلة جديدة من أعمـاق أفريقيـا على مشارف الجـيزة ، فأصـدر أوامره للجنرال لانوس بالتقدم ومداهمة معسكرهم، وقد استـولى على عدد كبير من جمالهم بعد أن أودى بحيـاة المئات من رجالهم . وقد أصـيب ابن الجنرال لوكليرك فى هذه المعركة وأحد الشباب البارزين .

لم يستـطع الأمير الحـاج الذى غمـرته بحسن صنيـعتى بشخـصيـته الضعـيفـة المترددة أن يصمـد أمام الدسـائس التى كانت تحـاك من حوله . فأصـبح فى تعداد أعدائنا وانضم لبعض الـقبائل البدوية ولبـعض المماليك ونزل إلى ساحة القتال .

وقد لاحقناه وطاردناه حتى فـقد فى ظرف يوم واحد كل العطايا التى منحناها له وأمواله وجزء من عائلتـه التى كانت لا تزال فى القاهرة، وفقد معها سمعته التى ظل حتى هذا اليوم يتمتع بها كأحد الأشراف .

فى بداية شهـر فلوريال حدثت واقعة هى الأولى من نوعـها ، وكان من نتائجها ثورة مـدينة البحيرة . فقد قدم رجل مـن قلب أفريقيا إلى درنة والتف حوله بعض الأعـراب وقال : إنه المهدى المـنتظر الذى ورد ذكره فى القرآن على لسان النبى . وسـرعان ما توافد عليه بعـد يومين ٢٠٠ مغربى وكأن الصدفة وحدها هى التى بعثت بهم لينضموا تحت لوائه .

وبما أن المهدى المنتظر كان لابد أن ينزل من السماء فقد ادعى هذا المحتال أنه هبط من السماء وسط الصحراء . راح هذا الرجل العارى يغدق الذهب الذى يجيد إخفاءه ، وكل يوم يغمس أصابعه فى قصعة بها لبن ويمررها على شفتيه ، فكان هذا الغذاء الوحيد الذى يتناوله . وقد بلغ دمنهور وداهم ستين شخصًا من الفيلق الملاحى الذى تركناه دون احتياطات كافية بدلاً من نقله إلى معقل الرحمانية . وقد قام بذبحهم جميعا .

لقد أثار حماس مريديه الذين تشجعوا بنجاحاته ، وهم يعتقدون أنه إذا رمى حفنة من التراب على مدافعنا أبطل مفعول المتفجرات فتسقط قذائف بنادقنا أمام المؤمنين ولا تنال منهم . وقد أعزى عددٌ كبيرٌ من الأشخاص لهذا الرجل القدرة على الإتيان بمائة معجزة من هذا النوع كل يوم .

وقد غادر رئيس اللواء لوفيفر الرحمانية مع قوة قوامها ٤٠٠ رجل لمواجهة المهدى المنتظر . ولكن مع تضاعف عدد الأعداء فى كل لحظة رأى استحالة رد هذا العدد الكبير من المتعصبين إلى عقولهم ، فكوّن تشكيلاً مربعًا وأمضى النهار فى قتل هؤلاء الحمقى الذين راحوا يتدافعون صوب مدافعنا وقد ملكهم هذا السحر حتى لم يعد بالإمكان الرجوع عنه . وبحلول الليل، وبعد أن أحصوا قتلاهم وقد فاق عددهم الألف قتيل ، وكذلك المصابين ، أدركوا فقط فى هذه اللحظة أن الله لم يعد يأتى بالمعجزات .

فى التاسع عشر من فلوريال ، كان الجنرال لانوس الذى أبدى شجاعة ونشاطا كبيرا فى كل مكان حيثما كان هناك أعداء ليقاتلهم قد وصل إلى دمنهور حيث قُتل ألف وخمسمائة شخص . ولم يبق من هذه القرية سوى كومة من رماد تدل عليها .

شعر المهدى المنتظر بعد إصابته بعدة جروح بقدراته تتبدد فاختفى فى أعماق الصحراء وحوله مازال بعض من مريديه ، فداخل هذه الرؤوس لا توجد أعضاء يمكن أن يصل إليها العقل .

ولعل طبيعة هذه الثورة هى التى سرعت بعودتى إلى مصر. فوقوع هذه الأحداث الغريبة كان مدبراً ليتزامن مع وصول الأسطول التركى إلى الإسكندرية ليتمكن من إنزال الجيش الذى دمرته فى عكا . وقد قام الهجانة فى صعيد مصر بتنبيه المماليك ، فقاموا بتوجيه قوة هذا الأسطول للقيام ببعض العمليات فى مصر العليا ولكن بعد أن هاجمهم رئيس اللواء ديستربيه عدة مرات اضطروا للنزوح إلى الشرقية .

وقد أصدر الجنرال دوجا أوامره للجنرال دافو بالتوجه إلى هناك . فقام فى التاسع عشر من فلوريال بشن هجوم على ألفى بك . وبعد أن أدت بعض طلقات المدافع إلى مقتل ثلاثة من القادة الرئيسيين للألفى بك ، فرّ مذعورا إلى الصحراء .

وصلت سفينة وفرقاطة إنجليزية إلى السويس فى الخامس عشر من فلوريال . وبدأ التراشق بالمدافع ، ولكن سرعان ما كف الإنجليز عن القتال بعد أن أدركوا أن السويس كانت مستعدة لاستقبالهم بسلاح مدفعية كبير. ومالبثت السفينتان أن اختفتا فى العاشر من بريريال . وقد دخل كل من الجنرال بليار ومساعده دانزيلو مدينة القصير واستولوا على هذا الموقع المهم ، واتخذوا الوسائل الدفاعية اللازمة . وقد كان لاحتلال السويس والعريش أثر بالغ فى تأمين مصر ضد أية محاولة للوصول إليها سواء عن طريق البحر الأحمر أو سوريا . وكذلك أسهمت تحصينات دمياط ورشيد والإسكندرية فى عدم إمكانية الهجوم عن طريق البحر، وضمنت الى الأبد للجمهورية امتلاك هذه البقعة الجميلة من العالم وستؤثر حضارتها كثيرا على العظمة القومية والمقدرات المستقبلية لأقدم بقاع العالم .

بعد أن خلص الجنرال لانوس البحيرة ، بلغ كفر فورنيجة الواقع بالشرقية فى السابع عشر من بريريال . أما المغاربة والرجال الذين فرّوا من البحيرة فقد قُتل منهم ١٥٠ شخصا ثم قام بإحراق البلدة .

في الخامس عشر من بريريال ، بلغت العريش عائدا من سوريا، وقد وصل مقياس الجو ٤٤ درجة مئوية من فرط حرارة رمال الصحراء ، وقد بلغت وحدة الضغط حوالى ٣٤ درجة واضطررنا لاجتياز ١١ فرسخا فى اليوم لنصل إلى بئر به بعض المياه الساخنة المالحة غير السائغة للشراب ، ومع هذا فقد شربنا منها بنهم أكثر مما لو كنا نحتسى أفضل زجاجة شامبانيا فى مطاعمنا .

وصلت إلى القاهرة فى السادس والعشرين من بريريال، وقد أحاطتنى جماهير غفيرة ملأت الشوارع ، وقد حضر جميع القائمين على الإفتاء على بغالهم (فقد كان الرسول يفضل امتطاء هذه الحيوانات) وجميع الانكشاريين والأغوات والشرطة الصباحية والمسائية وأحفاد أبو بكر وفاطمة وبعض المشايخ المبجلين. وقد تصدر الحشد كبار التجار ورئيس الكنيسة القبطية، كما سدت القوات اليونانية الموالية الطريق .

وإننى إذ أود أن أعبر عن بالغ رضاى لكل من الجنرال دوجا والجنرال لانوس ولقائد الكتيبة دورانتو . كما أن سلوك الشيخ البكرى والشرقاوى والسادات والمهدى[١] والصاوى جاء على خير ما كنت أبتغى . وهم يدعون لنا كل يوم من فوق المنابر وقد كان لفرماناتهم أبلغ الأثر فى القرى . وأغلبهم أحفاد للخلفاء الراشدين وهم محل تبجيل وتقدير عميق من الشعب .

بونابرت

(١) المقصود هنا هو محمد المهدى شيخ ورئيس الديوان بالقاهرة (الناشر) .

كانت فرحة الشعب وكبار رجال الدولة بالغة بالفعل بعودة الجنرال إلى القاهرة ، ولم يكفوا عن الهتاف له ولأعماله الجليلة . ولنعترف أننا راعينا ألا تصلهم إلا أنباء فى صالحنا مثل أننا دمرنا عكا تماما وخربنا المناطق المحيطة بها ، وأننا قتلنا أو اعتقلنا الجنود التى كانت تدافع عن هذا الحصن ، وأننا ما تركنا سوريا إلا لأن الأقدار كانت تنادينا للعودة لمصر. والحقيقة أنه لابد من التعامل مع هذا الشعب حتى يدرك المرء مبلغ جهله وسذاجته .

وقد قام الديوان والشيوخ بحث جميع مرؤسيهم على مساندة أعمال هذا الرجل العظيم الذى يقرأ - كما يقولون - القرآن كل يوم لأنه سيعتنق دين محمد .

وفى البيان التالى الموجه لحكومة المديرين من نابليون تقرير عن الأحداث التى وقعت فى صعيد مصر خلال حملتنا على سوريا .

من مركز القيادة بالقاهرة .

الخامس من ميسيدور عام ٧ ، الموافق ٢٣ يوليو (١٧٩٩م)

المواطنون المديرون :

فى أعقاب معركة الأهرامات حدثت انقسامات بين صفوف المماليك . فقد انسحب إبراهيم بك إلى الشرقية ، وعبر الصحراء ، وأقام بعض الوقت فى غزة ثم فى دمشق . وهو اليوم فى حالة من البؤس الشديد بعد أن أضعفته الخسائر التى منى بها خلال حملتى على سوريا .

أما مراد بك ، فقد سار فى النيل بأسطول كبير متوجها إلى صعيد مصر ، وعلى الرغم من هزيمته فى سدمنت إلا أنه ظل متحكما فى بعض القرى وشكّل تهديداً .

فى العشرين من فريمير ، بعد أن تم تدعيم الجنرال ديزيه بالجانب الأكبر من سلاح الفرسان واصل تقدمه حتى بلغ الجيزة فى التاسع من نيفوز . وعلى بعد فرسخين كان مراد بك فى انتظاره وقد انضم إليه حسن بك وألفان من بدو ينبع ، وكانوا قد وصلوا لتوهم الى القصير، كما انضمت إليهم كمية كبيرة من الفلاحين الذين قام بتحريضهم على الثورة . وما إن علم الجنرال ديزيه باحتلال عدة مجموعات من البدو لشواطئ النيل وتصديها لسير الأسطول المحمل بالعتاد الحربى والمؤن الغذائية حتى أرسل الجنرال دافو برفقة سلاح الفرسان ، فقام يومى ١٤ و ١٩ فانتوز بتعقب تجمعات الفلاحين فى سوهاج وطهطا واستطاع أن يفرق شملهم وتمكن خلال الطلعتين من قتل أكثر من ألفى شخص .

وقد تميز بشكل خاص خلال هذه العمليات كل من رئيس الكتيبة بارون على رأس فرقته الخامسة عشر وبوفرار على رأس فرقته العشرين الملقبة بالتنين .

تقدم الجنرال ديزيه وقد انضم إلى سلاح فرسانه وأسطوله الحربى لملاقاة العدو فى الخامس من بلوفيوز فى بلدة سمهود واتخذ وضع القتال المعتاد ، فنظم سلاح المشاة فى تشكيل مربع على الجوانب وشكل فرسانه تشكيلا مربعا فى الوسط . وكان الجناح الأيمن تحت قيادة الجنرال فريون والجناح الأيسر بقيادة بليار ، أما الوسط فكان بقيادة دافو . وقد حاصر العدو جيشنا الصغير بدوامة من الفرسان ، ولكن سرعان ما جعلته قذائفنا وطلقات بنادقنا يتراجع . فانتشرت فرساننا ولاحقته . وتمكنا من قتل حوالى مائة بدوى وفلاح ، أما الباقون فقد فروا إلى الصحراء .

رفعنا علم الجمهورية على منطقة الشلالات، وقد سقط أسطول مراد بك الحربى بالكامل ، ومنذ هذه اللحظة استولينا على صعيد مصر . وقد نشر الجنرال ديزيه فرقته على طول النيل ، وبدأ فى تنظيم هذه المقاطعات .

ولم يكن فى استطاعة باقى المماليك وعرب ينبع العيش فى الصحارى ، مما دفع بعض البدو الذين لم يكونوا يشكلون خطورة من الناحية السياسية للانضمام إلينا بعد أن فقدوا مدفعيتهم وأسطولهم لاسيما مع حاجتهم الملحة لمياه النيل ومواد الإعاشة . ولم يكونوا يهدفون من نجاح المعارك سوى النهب ، ولكن حسن التدابير التى اتخذها الجنرال ديزيه وشجاعة الفرق العسكرية ، لم تمنحهم حتى هذا العزاء . وفى الثانى والعشرين من بلوفيوز تعرض رئيس اللواء كورو والفرقة ٦١ لهجمة شنها من ٥٠٠ الى ٦٠٠ عربى. فما كان منه إلا أن ملأ ميدان المعركة بالقتلى . وقد تقدم الجنرال فريون فى الرابع والعشرين من بلوفيوز إلى حيث كان يعلم بوجود تجمع للعرب فأردى مائتى رجل قتيل منهم . وعند أطلال طيبة قام مائتا رجل من التابعين للفيلق الثانى والعشرين والخامس عشر الملقب بالتنين بشن هجوم فى الثالث و العشرين من بلوفيوز على مائتى مملوك وتمكنوا من تفريقهم ومطاردتهم ، فهربوا إلى الصحراء تاركين مجموعة منهم فى ساحة القتال . وقد أظهر لاسال رئيس الفرقة ٢٢ بسالته المعهودة .

فى السابع عشر من فانتوز ، توجه مراد بك إلى إسنا . ولكن الكومندان كليمون مساعد الجنرال ديزيه تمكن من مطاردته وأرغمه على اللوذ بالصحراء من جديد . أما المماليك ، وقد عرفوا أننى تركت مصر ومضيت فى الصحراء فى طريقى الى سوريا ، فقد ظنوا أن هذا أضعف من موقف الجنرال ديزيه . ومنذ ذلك الحين ، أخذوا يتحينون اللحظة المناسبة للهجوم ، وضاعفوا من جهودهم وقدموا من كل مكان فى الصحراء ، وانتشروا فى جميع المواقع على النيل، وتمكنوا من إحدى الفرق وذبحوا طاقمها ، واستولوا على ثمان قطع مدفعية ، ثم جاءتهم إمدادات متمثلة فى ألف وخمسمائة شخص كانوا قد وصلوا إلى القصير وتجمعوا كلهم فى ديروط حيث انفصلوا .

فتقـدم الجنرال بيليار صوبهم فى العـشرين من نيفوز وداهمـهم وقتل نصفـهم وفرّق من جمعـهم . وقد كانت من أكـثر المعارك التى أبرز فيـها العدو صلابة وإصرارًا .

فى الثالث عشـر من جيرمينال وبعد أن علم الجـنرال ديزيه بنية حسن بك فى القدوم إلى كـينا ، اتجه لملاقاته فى الصـحراء . وقد قامت الفـرقة السابعـة والثامنة باكتـشاف مكان العدو وشنوا عليـه هجـوما وفرّقـوه بعد معركة عنيفة ، وقد لقى كومندان الفرقة السابعة وهو على رأس فيلقه .

فى السادس من جيرمينال ، تعرض رئيس الكتـيبة موران للهجوم فى جرجه ، فأغاثه سكانها ونجح فى جعل البدو والفلاحين يلوذون بالفرار بعد أن قتل منهم أكثر من مائة شـخص . وقد تقدم رئيس اللواء لاسال صوب جزيرة الطينة فى ليلة ٢٠ جيـرمينال حيث داهم أحد التجمـعات وقتل مائة شخص وفرق الجمع الباقى . وبعد أن وجد المماليك صـعيد مصر مرشوقًا بفرق الجـنود ، فروا إلى الصـحراء فى اتجاه الـشمال. وقـد أرسل الجنرال ديزيه الجنرال دافو لملاحقتهم، فلاقاهم عند قرية بن شادى وهاجمهم وفرق جمـعهم بعد أن قتل حـوالى ألف شخص . وقد لقى ثلاثة أشـخاص من قواتنا مصرعهم، وأصيب ثلاثون آخرون ، وكان من بين القتلى رئيس لواء اسمه سيمون من الفرقة الثالثة عشرة وهوضابط يندر أن يجود الزمان بمثله.

بونابرت

وجه القـائد العام هذه الأنبـاء إلى حكومة المديرين من القـاهرة بينما بقينا نحن فى دمـياط خلال شهر مـيسيدور . كنا بالفـعل فى أمس الحاجة لهذه البرهة من الزمن لإعـادة ترتيب أمورنا والتقاط أنفاسنا. والحقـيقة أننا لم نتعرض لأية مخاطر من جـانب العدو على الرغم من تأهبنا التام لها . وقد استغللت هذا الهدوء الوقتى لدراسة البلد وعاداته .

كان أول ما فعلته هو التوجه إلى حيث يمكن أن يقوم أحد بتدليكى ، أى لآخذ حمام بخار .

ادخلونى إلى قاعة ترتفع على هيئة بناء دائرى له قباب وبه فتحات عند القمة تسمح بمرور الهواء . وقد أحاطت المكان دكة عريضة مكسوة بسجادة حيث وضعت ملابسى . وبعد أن خلعت عنِّى ثيابى ، أحطت خصرى ببشكير ووضعت برجلى مداسًا أحمر اللون ، ودلفت إلى ممر ضيق حيث بدأت أشعر بالحرارة تلفحنى . وقد أغلق الباب خلفى ليفتح لى على بعد عشرين خطوة باب آخر، ثم سرت فى ممر آخر عمودى على الممر الأول . أما الحمام، فهو مكان فسيح مقبب وأرضيته مبلطة ومكسوة بالرخام ، يوجد حوله أربع غرف ، وتتصاعد فيه الأبخرة بشكل متواصل من نافورة وحوض للمياه الساخنة ، فتمتزج برائحة البخور التى كان يتم إحراقه . وما لبث العرق أن تصبب منى بغزارة ، ثم بدأ أحد العبيد فى تدليك جسدى برفق وراح يقلبنى فى جميع الاتجاهات ويشد مفاصلى حتى تطقطق دون أن أشعر بأى ألم . وبعد أن أتم هذه العملية ، ارتدى قفازا من قماش وأخذ يحك به جسدى طويلا . ثم قادنى الى حجرة مجاورة وسكب على رأسى رغاوى صابون عطرى وخرج. كان بالحجرة صنبوران : واحد للماء الساخن والآخر للماء البارد، فاغتسلت وغطيت جسدى برداء دافئ ، وتبعت الرجل عبر الممرات إلى البهو الخارجى. وما إن وصلت حتى وجدت سريرا معدًا ، فألقيت بنفسى عليه واستلقيت باستمتاع . وسرعان ما أتى غلام وشرع فى الضغط بأصابعه الرقيقة على جميع أجزاء جسدى حتى يجف جيداً ، ثم غيرت ردائى مرة أخرى ، وبدأ الغلام يحك كعوبى برفق بحجر خفاف. ثم أحضر لى فنجانًا من القهوة شربته باستمتاع ونفحته بعض النقود فخرج سعيداً ، وخرجت بدورى سعيدًا بعد أن دفعت لصاحب الحمام أجره .

من الصعب وصف المتعة التى يشعر بها المرء فى هذه الظروف . فبعد الخروج من حمام البخار تجد كل ما يحوطك دافئًا رطبًا ، وينضح العرق من كل أعضاء جسدك ، وحين تجلس فى القاعة الفسيحة المفتوحة على الهواء الخارجى، فإنك تشعر برئتيك تتسعان وتتمددان فَتتنفس بلذة عميقة، وتحس بالدم يجرى بسهولة فى العروق ، وكأن حملاً ثقيلاً قد انزاح من على عاتقك ، وبطرواة وخفة لاقبل لك بها وكأنك ولدت لتوك ، وكأنك تعيش للمرة الأولى . وقد عاودت الذهاب إلى هناك عدة مرات بمفردى ومع أصحابى .

وقد أمدتنى إقامتى بدمياط بمتع أخرى غير الحمام ، وبعذابات تختلف عن تلك التى نلاقيها فى الحرب .

صحيح أننى قلت إن المصريات لسن جديرات بالمثول فى بلاط آفروديت أو بالاستحواذ على قلب الرجل الفرنسى ، ولكن هذا لا يعنى أن جميع النساء المقيمات فى مصر لسن جديرات باهتمام المسافرين . نحن نعلم أن البكوات وذويهم وضباطهم الكبار يأتون من جورجيا والقوقاز والشركس بأجمل النساء ، يشترونهن ثم يرفعونهن إلى مرتبة الزوجات . وهم بحق أجمل من أرقى نساء باريس أو ليون ، ولكنهن حبيسات الحرملك ، لا تقع عليهن إلا عيون أزواجهن .

وقد كان محظور علينا أن ننتهك هذا الحرملك المقدس وإلا كان مصيرنا الموت. لم تكن هذه السيدات يخرجن إلا للذهاب الى المسجد لحضور صلاة الجماعة . وحتى فى ذلك الحين تصحبهن عبدات مسنات تراقبن حتى نظرات عيونهن ؛ لذا كان الوقوع فى الحب بالنسبة لى شئ بعيد المنال حينما شاء لى الحظ ، أو حسن طالعى ، أن يمنحنى لا أدرى . . إن كانت سعادة أم شقاء . سوف نحدد هذا بعد قراءة هذه الحكاية .

كنت فى دمياط أسكن شارعًا يؤدى مباشرة للمسجد الرئيسى ، وكثيراً ما كنت أقف على عتبة بابى أرقب النساء وهن فى طريقهن إلى المسجد . ولاحظت أن واحدة من بينهن يدل مظهرها على الثراء ، كلما مرت أمامى تمهلت ورمقتنى ببصرها . كان من الصعب على أن أحكم بمجرد النظر إلى وجهها إن كانت صبية أم امرأة ناضجة ، جميلة أم قبيحة ، ولكن قوامها الممشوق المشدود برشاقة واثق الخطى جعلنى أكاد أجزم أنها لم تتخط بعد العشرين من عمرها . أما عن جمال ملامحها فربما أخطئ إن تنبأت ، فقد كان من الصعب على نظرى أن يخترق الحجاب الذى تغطى به المسلمات وجوههن . وتركت للزمن والصدف فرصة معرفة هذا الموضوع .

وذات يوم ، وهى فى طريقها كالمعتاد إلى المسجد ، إذ بها تمر قريبا جداً منى ، فتشجعت وحييتها كما يحيى الجنود الفرنسيون ضباطهم حينما يلقونهم بأن وضعت يدى أمام جبهتى ، وحرصت على أن تكون هذه التحية مشفوعة بابتسامة ودود . فما كان منها إلا أن حملت يدها اليمنى ناحية قلبها ، وأفهمتنى بهذه الإشارة أنها فهمت . وفى المساء ، بعد غروب الشمس ، جاءتنى خادمة من مارسيليا تعمل فى خدمتها تطلب الحديث إلى . فأدخلتها مكتبى ، وكان أول سؤال وجهته الى هو إن كنت أكتب أو أفهم العربية ، فقلت لها: لماذا هذا السؤال ؟

- سيدتى التى حييتها هذا الصباح هى التى أرسلتنى أسألك ، ولا أدرى غرضها ، وليس لى أن أريد .

- من هى سيدتك ؟

- سيدى ، لقد نهتنى عن ذكر اسمها ، وإذا تعديت أوامرها سيكون فى هذا ضياعى .

- أنتِ فرنسية أيتها المرأة الطيبة بما أنك تتحدثين لغتى .

- نعم ياسيدى ، أنا من مارسيليا ، لقد اختطفنى بعض القراصنة منذ قرابة العشرين عاما ، وباعونى لأحد البكوات فى مصر ، فجعلنى وصيفة لنسائه .

- حسنًا ، وبما أنك فرنسية فبإمكانك البوح بسرك إلى فرنسى مثلك . فأنت لا تخشين أن يخونك ، أعدك بشرفى . والآن قولى لى من هى المرأة التى أرسلتك إلىّ ؟

- بما أنك وعدتنى بشرفك ، فسوف أبوح لك . إنها زوجة أحد البكوات الذين قتلوا فى معركة الأهرامات. فدخولكم المباغت إلى القاهرة لم يتح للبكوات فرصة إرسال زوجاتهم إلى الصحراء أو البحث لهم عن وسيلة للهرب . لذلك راحت كل واحدة تبحث لها عن مكان . بعضهن أوقعهن الحظ فى يد جنرالاتكم ، فمسحوا دموعهن وأنسوهن أزواجهن أو لنقل هؤلاء الطغاة ، ومنحوهن الرعاية والحب بسخاء . وقد هربت سيدتى من القاهرة وجاءت هنا الى دمياط لاجئة إلى تاجر تركى ثرى ، اتخذها زوجة له ليحميها من المطامع . وهو يُكن لها كل الاحترام ويأمل بعد أن تتخلص مصر من الوجود الفرنسى أن يعيدها إلى البكوات ليمنحوه مكافأة سخية. ولكن أتوسل اليك أن تحفظ سرى ، وربما إن أنت تحدثت يوما إليها لحكت هى لك كل شىء ، ومن الأفضل أن يأتى هذا منها وليس منى .

- اطمئنى أيتها المرأة الطيبة ، ولكن أخبرينى ما اسمها ؟ وهل هى شابة جميلة ؟

- اسمها زليمة ، وعمرها تسعة عشر عامًا ، ولم ير أحد جمالاً مثل جمالها حتى ولا فى آكس اون بروفانس المشهورة بجمال نسائها . والآن ، أخبرنى عن الرد الذى سوف أحمله إليها .

- قولى لها إننى وقد أمضيت عامًا فى مصر فقد تعلمت التحدث بالعربية كأهل البلد ، وإننى ملكها لو حالفتنى السعادة ورقت لها .

- سوف أفعل .

وحتى أكسبها فى صفى ، نفحتها ببعض النقود ثم انصرفت .

وقد أذهلتنى وسحرتنى هذه الخطوة التى ربما أخذت على محمل سيئ من امرأة فرنسية . وظللت أفكر الليل بطوله فى نهاية هذه الحكاية الوليدة . . فقد كنت من ناحية أخشى المضى فيها ، ورحت أقول لنفسى أى ألم ينتظرك ! فما إن يشتعل قلبك حتى تأتيك أوامر عليا بنقلك إلى القاهرة أو الإسكندرية، وسوف تترك حبيبة بائسة خلفك . ومن ناحية أخرى كنت أشعر بالحاجة لأن أحِب وأُحَب . فمن يدرينى ، إذا ما استعمرنا بالفعل هذا البلد وأقمنا به ، فهذه زوجة جاهزة سوف تقدم لى الثروة وكل الرضى مهرا لى . ظللت طوال الليل نهبًا لهذه الأفكار، فلم أذق إلا قليلا من النوم، وانتهيت إلى الرغبة فى خوض هذه المغامرة . وفى اليوم التالى ، تلقيت الرسالة التالية مكتوبة باللغة العربية حملتها إلىّ نفس المرأة وجاء فيها :

«أيها الشاب الفرنسى المقدام ، لقد أقدمت على خطوة أعلم أنها قد تعطى عنى انطباعًا سيئًا فى بلادك . ولكنك تخطئ لو حكمت علىّ بأفكار أمتك. اعلم أن قلبى مازال بكرا، وأنك أول من تدخله سيدا فاتحا . ولكن هيئتك العسكرية وشكلك اللطيف واستقامتك قد استولت عليه وأخضعته . والحقيقة أننى أريد أن أعترف لك أننى أحبك ، فإن لم ترفض حبى ،

حاول أن تأتى عند التاجر الذى أقيم عنده . واترك للحب أن يفعل الباقى» .

صديقتك زليمة

لم أنفر من هذا الأسلوب على الإطلاق ، بل لقد منحنى سعادة غامرة . والحقيقة أن الفرنسى مقدام فى الحب كما فى الشجاعة ، وهو لا يحب السهاد والتنهد كما يفعل الإيطاليون والأسبان سنوات بأكملها تحت نوافذ احدى الجميلات . كذلك كان من السهل على أدخل عند التاجر ، فقد كانت رتبتى تجعلنى أحظى ببعض التقدير، وقد جعلته يأمل أن أشترى منه بعض الأثواب والأقمشة التى قد أحتاج إليها. ومنذ المقابلة الأولى ، نلت ثقته وصداقته ، ووجدت زليمة تجلس بالقرب منه لأنها لم تكن مرغمة على العيش وحيدة حبيسة الحرملك مثل نساء التاجر. وفى هذا اليوم ، لم يكن يكسو وجهها سوى وشاح كبير خارجى يشف عما وراءه بالقدر الذى يسمح بتمييز الملامح . وتيقنت أنها كما وصفتها خادمتها. وحينما التفت التاجر يبحث عن الأثواب لأختار شيئًا منها ، رفعت حجابها قليلاً لأرى وجهها ، وكانت ملامحها كفيلة باختراق قلب حديدى .

أرسلت لها قبلة ردتها لى بيدها ، وشعرت فى هذا اليوم أن فى هذا ما يكفى وأن على ألا أذهب أبعد من هذا . فقد أردت أن تتولد أولاً الألفة بينى وبين التاجر أو أن تأتى فرصة أفضل .

اشتريت بعض أذرع من القماش ، ودفعت ثمنها وخرجت محييا التاجر ومن يرعاها . وعدت بعد يومين بحجة شراء بضاعة جديدة ، وكم كانت دهشتى حينما رجانى أبوالفرو ، وهو اسم التاجر ، أن آتى بقدر ما يسمح وقتى وعملى لألقن زليمة بعض دروس فى الحساب والنحو الفرنسى ! وقال : «ليس أمامى هنا سوى أقباط أو يونان ، وهم إما

يخدعونى أو يسرقـونى ، وزليمة التى أحافظ عليها كابنتى لهـا استعدادت طيبة ، وسوف تتعلم بسهولة ما سوف تلقنه لها ، وسوف يعيننى هذا على أن أعهد إليها بحساباتى ومـراسلاتى مع التجار الفرنسيين . ومن جانبى ، إن كان فى استطاعتى شىء أقدمه إليك اعـتمد على خدماتى وعلى عرفانى بجميلك» .

ولكم أن تتخـيلوا إن كنت قد وافقت بكل سـرور على العرض الذى جاءنى والذى لم أكن أنتظره ، والذى كانـت زليمة بالطبع وراءه . وطلبت منه الشروع فى الأمر فـورا، فرحب . وقادنى إلى غرفة ملحـقة بدكانه ، وأحضر لى زليمة الجميلة لأبدأ معها الدرس الأول .

لن أحاول وصف ما اعترانى حينما رأيتها وجهًا لوجه - تلك التى ما كنت ألمحهـا إلا وكأنها خلف الـسحاب - ولا أن أعـبر عن الكيفـية التى أبديت لها بها أمنياتى وحـبى . فى هذه اللحظات الأولى ، لم نتفوه سوى بعبارات متـقطعة ، تصف ولا تعبر عن المشاعر. وفى هذا اليـوم ، علمتها بعض مبـادئ الترقيم والجـمع بدون تركيـز من جانبى ، أو من جانبـها ، بسبب اضطرابنا .

وبعد حين ، خـاصة وأن التـاجر لم يكن مـوجودًا ، بدأنا نتـحدث بحرية أكثر عن مشاعرنا، وعن قصتها التى حكتها لى على هذا النحو :

«ولدت بالقرب من تيفلى بجـورجيا، وحينما أراد سـيد القرية بعض المال ليشـترى زوجـة كما هى الـعادة فى هذه البلاد ، باعنـى مع عدد من زميلاتى لتاجر أرمنى وكنت فى ذلك الحين فى الرابـعة عشرة من عمرى . حملنى أولا إلى قـسطنطينية ، ولكن نظرا لأننى لم أكن ممتلئة القـوام كما يفضل الأتراك الـنساء ، لم يدفعـوا له ما أراد ، أو بالأحـرى الثمن الذى دفعه فى . فمـا كان منه إلا أن قَدم إلى القاهرة ليبيـعنى . فاشترانى على بك الذى لقى مـصرعـه فى ساحة القـتال بالأهرامـات . وحينمـا دخلتم

القـاهرة ، لذت بالفرار ، وأتيت إلـى دميـاط عند أبى الفرو وهو صـديق حميم للمرحوم» .

هنا قاطعت زليمة ، سائلا إن كانت آسفة على زوجها . . وان كانت أراقت الدمع على حظه وقـدره ، وإن كانت تكره الفرنسـيين لأنهم عكروا صفو أيامها ، ولكنها سرعان ما استدركت قائلة :

«زوجى ! لا ، لا أبداً فأنا لم أذق يـوما معـه حلاوة الزواج ، قلت لك إن المسلمين لا يحبون سوى كتل اللحم الكبيرة ، ومن تسميه زوجى ، ومن رأيتـه دوما طاغـية ، أراد الانتظار حـتى أصل للحجم المطلوب ليـقع اختياره علىّ . والحـقيقة أنه من شدة سئمه وضـجره من حب النساء، كان هذا المتوحش يترك العنان لملذاته التى تحـرمها الطبيعة مـهملا المتع الحلال . مثل هـؤلاء الرجال لا يحتـفظون بالنسـاء فى حريمهم إلا كـما يحتـفظون بالأشياء الفاخـرة . أما الاهتمام والمودة والملاطفة والأحاسـيس الرقيقة التى تصاحب دائما فى أوربّا مشاعر الحب الحقـيقية ، فلا أثر لها عندهم . ومع ذلك ، فقد كانت له محظية جعل لـها علينا سلطانًا مطلقًا كانت تشعرنا به فى كل لحظة. كيف لنا أن نشعر بأية سعادة وهذه المرأة الشرسة تمارس علينا أساليب القمع مـع مجموعة من السـفلة ، يراقبون جميع حـركاتنا ونظراتنا وهمساتنا. وكيف آسف على فقد سـيد لم تربطنى به سوى علاقات خوف ورعب، فإن كان الفرنسيون لم يقـدموا أية خدمة سوى التخلص من هـذا الطـاغية ، فسأظل مـدينةً لهم بها إلى الأبد .

- هلاّ حكيت لى عن نوعيـة الحياة التى تعـيشونهـا فى هذه الأماكن التى لا يمكن الوصول إليها التى تسمونها الحريم والتى يحظر علينا حتى نحن الذين استولينا على مصر دخولها .

- أعلم أن للمرأة دوراً كبيراً فى أوربّا ، أما نحن فنعيش هنا فى حالة من الذل والسـخـرة، مـعـزولين فى جناح داخلـى ، ليس لنا من

صحبة سوى الخادمات العجائز . لا نجتمع أبدا بالرجال ، ولا حتى على مائدة الطعام . فإذا طاب لسيدنا يوما أن يأكل مع واحدة من زوجاته فانه يعلمها بهذا فتعد شقتها وتخضبها بأثمن العطور وتصنع أشهى الوجبات وتستقبل سيدها باحترام جم وتوليه أفضل عناية ممكنة . وحينما نكون بمفردنا، تمضى وقتنا وسط الخدم فى تطريز الأحزام أو الأوشحة أو نقوم بالغزل . ونصطنع سعادة تخلو منها قلوبنا، ونغنى نغمات حانية أو مديحًا لسيدنا ، وتصاحبنا بعض الدفوف والصاجات التي يعزف عليها العبيد . وقد تأتى أحيانا بعض العوالم لإضفاء بعض البهجة برقصاتهن ونغماتهن المؤثرة ، ويقصون علينا بعض الحكايات المشبوبة بالعواطف. ثم نختتم هذا المشهد اليومى بوجبة تُبذَل فيها ببذخ العطور وأشهى أنواع الفاكهة . وأحيانا ما يسمح لنا بالتريض فى الحدائق التى تمتد داخل القصور ، وحتى لا يرانا المؤذنون من فوق المآذن يتم إرغامهم على إغلاق أعينهم وهم يؤذنون للصلاة . بل إنهم يذهبون فى الحيطة إلى أبعد من هذا ، فلا يختارون سوى كل ضرير ليعهدوا إليه بهذه المهمة . وأحيانا ما نذهب فى نزهة على النيل بصحبة الأغوات السود . أما الجندول الذى نتنزه فيه فهو فاخر الصناعة منحوت بفن ومزين برسومات جميلة ، ويعرف بمشربيات مسجاة على النوافذ وبالموسيقى المنبعثة منه . هذه هى المتع التى نحظى بها ممن نتمتع بصحبتهم . ولكنهم أبدًا لا ينصتون لأناتنا التى علينا تحملها دون أدنى همسة . أما الغيرة، وعدم الثقة والعلاقات المزيفة ، والاتهامات الجارحة ، والسخرية اللاذعة فيصنعون من الإقامة فى الحريم شيئًا أسوأ من الجحيم . ولفض مشاحنات هذا الشعب من النساء ، أو لمعاقبة أخطاء وهمية تهمس بها المحظية فى أذن السيد ، يتم ضربنا بعصى مما قد يفضى أحيانا

إلى موتنا . وقد كـان من سوء حظ أحد الشركسيـات من زميلاتى أن التفتت وهى فى طريقها إلى الجامع لأوربى كان يتحدث بالقرب منها . فنقل أحد العبيد هذا الى البك . فـما كان من الطاغية وقد استبد به الغضب إلا أن سـحب المخطئة من شعرها من بيننا وجرها الى الفناء جـرا وأطاح برأسـها بضـربة من سـيفـه . فكيف أيهـا الفرنسى الودود، تريد منا أن نحب مـثل هؤلاء الطغاة وأن نسكب الدمع على قبورهم ، بينمـا كان فى الموت خلاص لنا منهم . آه ! ليتك أيهـا الحبـيب الشاب والمقاتـل الساحر تنتـزعنى من هذا البلد البغيض ، خـذنى معك إلى فرنسا إذا ما نادتك أقـدارك مرة أخرى إليها !

كان من العسـير أن تقول ما قـالت دون أن تسكب بعض الدموع التى زادت من جمالهـا . وقد تأثرت بما لاقته ، ورق لها قلبى بعد مـا سمعت وعاهدتهـا أن أفعل ما بوسـعى لانتـزاعها من هذه التعــاسة التى تنتظرها بمصر إذا ما خرج منها الفرنسيون ، وأضفت :

- هل لى أن آمل يا زليـمة فى أن تكافـئينى على حـبى مقـابل هذه العهود التى قطعتها على نفسى ؟

- للأسف ، لا أستطيع أن أعتمـد على وعودك إلا إذا ختمت بخاتم الدين وسلطة القـانون . أنا أعـرف كم تتبـدل أحوال الفـرنسى ، فسـرعان ما يشتـعل الحب فى قلبه فجـأة لينطفئ بمجرد أن يـروى ظمأه . فالفرنسيون فى حبهم كما فى موضاتهم يغيرونها كل يوم .

- تيقنى سيدتى من أننى الفئة التى تمثل الاستثناء . وإن أردت سيكون ارتباطنا شرعيا طبقا للشعائر الدينيـة ، ولكن علينـا أولا أن نحدد هذا الدين . فلا تـنتظرى منى أن أصبح مسلـما ، وأن أضع على رأسى العمامة وأخضع لهذه العـملية المهينة التى تفرق بين اليهودى

والمسلم ، وأن أمتنع إلى الأبد عن تناول هذا المشروب المقوى الذى اخترعه نـوح . لن أحـذو حـذو الجنرال عبد الله[1] الذى أصبح مثار حديث الجيش كله ، لأننى سأكون بدورى مادة لسخرية جميع زملائى . هناك بعض المعتقدات التى يجب احـترامها ، وكيف لك أن تعتـقدى أننى غير قـادر على انتهاك العـهود التى قطعتـها على نفسى الآن إن لم أكن وفـيا لعهـدى مع ديانتى التى ولدت وتربيت عليها ؟

– فـردت بانفـعال «إذًا ، تريـدنى أنا أن أترك دينى ياقـاسى القلب ! وحتى إن إردت ، هل تظن أنه ليس فى هذا خطر علىّ ؟ أبو الفرو الذى أكـرم وفـادتى مـثله مـثل جـمـيع الأتراك شـديد الارتبـاط بالإسـلام . ولا شىء عنده يفوق فى قيـمته شريعة محـمد . فإذا رآنى وقد أصبحت مسيحية فسيكيد لك مكـيدة ، ويقدمك قربـانا على روح صديقتك التى فاضت . لن تتخيل إلى أى مدى يمكن أن يذهب تعـصب المؤمنين . والمسـيحـيون ليسوا فى نظرهم سـوى كائنات يلعنها الله ويتـبعها البؤس حيـثما ذهبت ولا يمكن لأى من مشاريعهم أن تنجح .

– إذن سيدتى ، أعتقـد أنه لابد أن نودع بعضنا وداعا أبديًا. وأعترف لك أن هذا الانفصال سيكون قاسيا علىّ ، ولكن ثمة عقبات كثيرة تعتـرض – كمـا أرى – طريق سعـادتنا ، لنسمح لأنفـسنا أن نرى بعضنا أكثر من هذا .

قلت هذا ، لأننى أحسـست أنها لن توافق على إنهاء قـصة حب لم تكد تبدأ .

(١) إنه الجنرال مينو الذى أسلم ، وسمى نفسه عبد الله (الناشر) .

– حتى نتغلب على هذه المصاعب ، أبلغني فقط قبل رحيلك الى فرنسا ، وسوف أتبعك ومعى ثروتى ومجوهراتى . وهناك سوف تمنحينى يدك أمام المذبح ، وسيكون أهلك أهلى ، وشريعتك شريعتى ، وسأعز ذويك أكثر من معزتى أهلى الذين طردونى ، وسأكون زوجتك ومليكتك بدلاً من حالى هنا كعبدة . هناك ، لن يكون لى منافسون ، وسأملك وحدى قلبك .

هنا ، أخذت يدها ، وقبلتها بحنان دليل على الموافقة . وظللت أذهب للقائها كلما سنحت لى الفرصة ، وأخذت أُلقنها دروس الحساب والنحو ، وكانت تستجيب لها جيدا فذاكرتها ممتازة وحكمها متين، ولديها استعداد هائل . وقد أمضيت فى دمياط أمتع الساعات فى الحديث معها وفى مطارحتها الغرام .

واتفقنا على أن نكتب لبعضنا كثيرا لو إذا اضطررت إلى ترك دمياط لأمضى مع فرقتى سواء إلى القاهرة ، أو إلى أى مكان آخر . ووعدتها وعدا قاطعا أننى سأعلمها فى حالة رجوعى إلى فرنسا لتهرب وتلحق بى لنبحر معا بصحبة خادمتها الوفية الفرنسية . وسوف نعرف ما حدث بعد هذا . فقد وقع الفراق الذى تحسبت له وخشيته أسرع مما كنت أتوقع . ففى الأول من ترميدور عام ٧ الموافق ١٩ يوليو (١٧٩٩م) ، تلقينا أمراً بمغادرة دمياط دون أن يعلمونا بالدافع .

علمنا بشكل عام أن السبب هو خوض بعض المخاطر الجديدة . وقد سمعنا أن هناك عملية إنزال ستحدث عند البحر المتوسط وأن نتائجها قد تكون وخيمة علينا وعلى المستعمرة .

حينما بلغنا الرحمانية ، علمنا دون مواربة أن قوات السلطان قد وصلت إلى أبى قير وذبحت الحمية الموجودة بالحصن واستولت على المكان .

يااللمكان المشؤوم ! أيها الميناء الكريه هل ستكون شاهدا دوما على مصائبنا ؟ ألم ترتو من مشهد أسطولنا المدمر الرهيب ؟ أتريد الاستمتاع أكثر وأنت ترانا نقتل أو تشهد أيدينا مكبلة بالأغلال . لابد أن نشد الرحال ، حتى نبعد عنا هذا الخزى إن أمكن ، وكانت تصلنا فى كل لحظة أوامر تحثنا على مضاعفة الخطوة .

٢٤ يوليو (١٧٩٩م)

نحن فى السادس من الشهر ، ومنذ بزوغ الفجر ونحن نسمع طلقات مدفعية عنيفة . كانت لدينا الشجاعة والحماسة الكافية ، ولكن قوانا الجسدية كانت خائرة من شدة التعب والجوع والعطش . ولحسن الحظ أننا علمنا بهزيمة العدو ، فقد تمكنت قواتنا من إزاحته عن معاقله ، حتى إنه ألقى بنفسه فى البحر معتقدا أنه سينجو بنفسه على متن أسطوله ولكننا عاجلناه بهجمات سلاح فرساننا الشرسة ، ورشقناه بقذائفنا ومدفعيتنا معا ، حتى إن الجميع هلك فى مياه البحر ، ولم يبق سوى ١٥٠ شخصًا محاصرًا فى القلعة . ولم نشارك فى مجد هذا اليوم إلا بقوانا التى خارت بعد هذا الزحف الشاق وقد كانت نتيجة هذا الخبر السار أننى عدت إلى دمياط بالقرب من زليمة التى أبدت سعادتها الغامرة بعودتى .

وصلت فى الخامس عشر من الشهر بعد سبعة أيام قضيتها فى الطريق . وعلمنا عند وصولنا بالهزيمة التامة التى منى بها جيش الأتراك وقد كان قوامه خمسة آلاف شخص من بينهم ٢٠٠ مسجون بقيادة مصطفى باشا وعدة قادة آخرين . وقد كلف هذا النصر الفرنسيين الكثير من الدماء ، فكان عدد الجرحى مرتفعًا وكان من بينهم رئيس اللواء الجنرال مورا والمساعد جيبير اللذان لقيا مصرعهما متأثرين بجراحهما . ولنستمع لكلمة القائد العام عن هذه الموقعة العسكرية الجميلة ، التى لم أشهدها .

بونابرت ، القائد العام

لقد كان اسم أبى قير مشؤومًا بالنسبة للفرنسيين ، ولكن السابع من ترميدور حوله إلى اسم مجيد . فالنصر الذى أحرزه الجيش عجل بعودته إلى أوربّا . لقد قمنا بغزو مايونس وحدود الرين حينما اجتحنا جزءاً من ألمانيا ، واليوم استعدنا بعض مواقعنا فى الهند ومواقع حلفائنا . وبعملية عسكرية واحدة أعدنا إلى حكومتنا القدرة على إرغام إنجلترا على قبول سلام مجيد مع جمهوريتنا ، على الرغم من انتصاراتها البحرية .

لقد عانينا كثيرا ، وكان علينا محاربة الأعداء من كل نوع واجتياز الكثير من الصعوبات ، ولكن النتائج ستكون جديرة بنا ، وسوف نكون جديرين بامتنان الوطن لنا .

بونابرت

٨ اغسطس (١٧٩٩م)

فى الحادى والعشرين من ترميدور ، علم الجنرال ديزيه أن مراد بك ، بلغ الغنايم بعد أن نزح من الصحراء صوب أسيوط ، فما كان منه إلا أن أرسل خلفه رئيس اللواء موران ، الذى ما إن لقيه حتى عاجله بالهجوم وهزمه . وقد لقى العديد من المماليك مصرعهم ، وتم الاستيلاء على أربعين جملا . وقد انسحب مراد بك بأقصى سرعة ، ولكن موران وسريته الباسلة تقدموا فى الصحراء وقطعوا مسافة خمسين فرسخا فى ظرف أربعة أيام ولحقوا به فى الرابع والعشرين ليلا، بالقرب من سمالوط وفاجئوا معسكره وقتلوا بسيوفهم عددا كبيرا من المماليك ، واستولوا على مائتى جمل محملة بالغنائم ، و ١١٠٠ من الخيول المسرجة وكمية ضخمة من

الأسلحة من كل نوع . ولم يستطع مراد بك نفسه الفرار وقد لاحقته مفرزة من اللواء ٢٠ إلا عند سدول الليل .

١٤ أغسطس (١٧٩٩م)

في السابع والعشرين من ترميدور عند الظهيرة قامت فرقاطتان إنجليزيتان بالرسو بالقرب من ميناء القصير وقامتا فور وصولهما بقصفه بالمدافع . وبعد أربع ساعات ، تم إنزال اثنى عشر زورقا في البحر وعلى متنهم فرق الإنزال العسكرية . ولكنهم ما لبثوا أن عادوا أدراجهم بعدما لمحوا عساكرنا في القرية . وقد استمرت الفرقاطتان في القصف طوال الليل . وفي الثامن والعشرين قامتا بتغيير مواقعهما لتتمكنا من قذف الحصن بالمدفعية . وفي نفس الوقت أنزلتا مائتي جندي إلى القرية التي ما جرؤوا بالأمس على الاقتراب منها . وقد كان المقاتلون بالفرقة ٢١ متربصين بالإنجليز وتركوهم يقتربون بعض الشيء ثم انقضوا عليهم ورشقوهم بنيران عنيفة أجبرتهم على الفرار مخلفين وراءهم موتاهم وقتلاهم .

وقد استمر العدو مع هذا في القصف المدفعي، وبعد الظهر قام بعملية إنزال جديدة على أحد الشواطئ الفسيحة الواقعة جنوب الميناء . وكان الجنرال دانزيلو قائد الدفاع بمنطقة القصير قد أقام كمينا ومعه بعض القوات في منطقة المقابر المجاورة للبحر وفي الوديان التي تقع بمحاذاة الصحراء . حتى أن الأعداء وقد رأوا أن عليهم مواجهة طلقات النيران من كل صوب ومكان اضطروا إلى الانطلاق بزوارقهم بنفس سرعة الصباح . ولكن هذا لم يمنع الفرقاطتين من الاستمرار في إطلاق مدفعيتهما بنفس القوة .

وفي التاسع والعشرين من الشهر وفي تمام الساعة السابعة صباحًا ، قام أربعمائة شخص بإنزال وحدة مدفعية بكل متعلقاتها ، فتصدينا للهجمة

وانقضضنا على المدفعية فخلفوها وفروا هاربين أمام قذائفنا ، وعادوا فى عجالة إلى سفنهم . وبعد استمرار القذف حوالى ٦٤ ساعة ، قامت فرقاطات العدو بالتوجه نحو عرض البحر واختفت عن الأنظار . وقد تمكنا من جمع حوالى ستة آلاف قذيفة من الميناء فقط . ومنذ بداية القذف فى الرابع والعشرين من الشهر وحتى الثامن من الشهر التالى لم يحاول أحد الرجوع لاستردادها ، وقد استخدمناها لاحقا .

وقد لاحظنا وجود كثير من الهنود من بين قوات الإنزال ، مما يثبت أن الإنجليز لم يحاربوا قط الا متخفين خلف الشعوب الأخرى التى يضعونها فى المقدمة فيعرضونها لطلقاتنا . كان سكان البلد فى مثل هذه الظروف يتصرفون وكأنهم أصدقاء حقًا للإنجليز .

بدأنا بمرحنا المعتاد نتهيأ لبعض الراحة حينما أعلن الجنرال فى السابع والعشرين من ترميدور وجود أسطول عند مصب النيل ، وكان عددنا أقل من أن يكون فى مقاومتنا طائل ؛ لذلك سارعنا بطلب العون ، وربما لاحظ عدونا هذا مما حمله على الابتعاد . كانت تلك المحاولة تقع ضمن خطة عامة ، ومخططا لها أن تتزامن مع أحداث أبى قير ، إضافة إلى نشر بعض القوات أرضا حتى ننشغل فى عدة جهات . وفيما يبدو أن الظروف قد أبقت على هذا الأسطول فى البحر أكثر مما كان مقرراً ، لهذا لم يتزامن هجومه مع موقعة أبى قير فوفّر هذا علينا الخوف .

بعد أن انتصر القائد العام فى أبى قير ، أسرع بالعودة إلى القاهرة لمباشرة تفاصيل الإدارة حيث عقد اجتماعا عامًا مع أعضاء الديوان وسوف أحيطكم علما به .

فبعد أن حدثهم عن العلوم والفنون الذين جاء ذكرهم فى القرآن انتهى بتوجيه اللوم إليهم على تقاعسهم عن ردع الهمهمات التى تصاعدت

ضده وضد الجيش أثناء غيابه . وقال لهم إنه عرف بما تمنوه من إخفاق لجيوشنا . وكانت نتيجة هذا أن أمر بدق عنقهم جميعا إذا ما انهزم. وأضاف «كيف شككتم فى نصرى ونجاحى ؟ لقد أكدته لكم قبل رحيلى ، وكان لابد أن يكفيكم هذا . أعلم ما يدخره الله لى جيداً ، حتى أننى من عشرة آلاف رجل اصطحبتهم معى إلى أبى قير لم أستخدم سوى ثلاثة آلاف فقط ، وكان فيهم الكفاية لهزيمة وقتل جميع الخونة» .

وبعد أن تحدث بعض الوقت ، قاطعه أحد أعضاء الديوان قائلا : سيدى الجنرال ، لقد وعدتنا بأن تصبح مسلمًا .

فأجاب : لم أعدكم بشيء ، ومع هذا اعلموا بأننى كذلك ، وربما كنت مسلما أكثر منكم ولكن إن لم تغيروا من سلوككم هذا فسوف أعود للمسيحية عقابا لكم . سوف أجعل الأمر يمر هذه المرة ، ولكن تذكروا أنها الأخيرة !

عند عودته من أبى قير إلى القاهرة مرّ بونابرت بالإسكندرية ، حيث علم من المفاوضين الإنجليز بأولى الهزائم التى لحقت بجيوشنا فى الرين بإيطاليا . ولم يجد صعوبة فى تصديقهم لأن الطريقة التى كانت فرنسا تحكم بها من خلال خمسة مديرين تنقصهم الكفاءة وتسود بينهم الشقة ، ومجلسين أسهم تفاوت وجهات نظرهما فى زرع الشقة والقطيعة بينهما ، كل هذا كان لابد أن يؤدى لتلك النتائج . وراح أصدقاؤه الذين خلفهم فى فرنسا يستعجلون عودته لوأد هذه الشقة ، وليأخذ مقاليد الحكم فى يده .

كان القس سياس ، وهو سفيرنا فى برلين ، قد حصل على جوازات سفر وأوصلها إليه فى سرية تامة . ولم تكن انجلترا تجهل هذا ، بل هيأت له الظروف . وقد أبلغنى الجنرال جوبير الذى كانت تربطنى به علاقات حسنة للغاية ، أن أعضاء حكومة المديرين قد عرضوا عليه الحكم ، وأنه رد عليهم بأنه لا يستطيع أن يقبل حاليا عرضهم ، لأن اسمه لم يكن

بعد معـروفا لدرجة أن يحصل على مـوافقة الأمة ، وطلب منهم الاكـتفاء بمنحه قـيادة جيش إيطاليا ، فـبعد أن يحـرز عدة انتصارات هامـة سيكون الرجل الذى يتمنونه .

ولكن القدر كان يدخر شيئا آخـــر فى نوفـى كما يعلم الجميع . فما أراد القدر سوى بونابرت الذى لم يبح بسره إلا للجنرال بيرتييه .

وبعد أن قرر بونابرت عودته الى أوربًا ، أجـرى استعداداته فى سرية تامة حـتى أن الجيش لـم يشك فى أى شىء ولو للحظـة . ثم أعطى الأمر للاميرالاى جانتوم بتجهيز فرقاطتين وسفينة حراسة وسفينة بصوارى دون أن يعْلمـه باتجاهها . ولم يمنح أحد شـرف اصطحابه سـوى الجنرالات لان ومادمون ومـورا واندريوسى والعلماء مونج وبيـرتوليه وقائد اللواء روسـيير ومرشديه اللذين أعطاهمـا خطابات مغلقة ، مع الأمر بعدم فـضها إلا فى الخـامس من اللذين الموافق ٢٢ أغـسطس فى سـاعة ومكـان محـدد على الشـاطئ . لقد وجـدوا أمرا بالإبحـار فـورا دون أن يكون لديهم الحق فى إجراء أى اتصـال . وقد أوصل للجنرال كليـبر رسائل مماثلة مع أمـر بعدم فضـها إلا بعد أربع وعشـرين ساعة من رحـيل السفن ، وكانت تتـضمن تعييـنه قائدا عاما وتعـيين ديزيه قائدا لصعيـد مصر . وللإمعـان فى إخفاء ملعوبه أعـرب بونابرت عن عزمه تفـقد مخـتلف وحداتنا المدفعـية والمواقع الحصينة فى مصـر . وأعلن عن اعتزامه نقل مركز القـيادة إلى منوف وأمر أن ترسل جميع الرسائل والمكاتبات إليه هناك .

وبعد بضعـة أيام ، أرسل فى طلب الجنرال كليبر لملاقـاته فى رشيد. غير أن كليـبر تأخر كثيـرا فى الوصول ، أوبمعنى أصح ، بكر بونابرت فى الرحيل . وعلى أية حال ، وجد كليـبر مجموعة من التعليمـات الموجهة إليه ، وعلم برحيل بونابرت إلى فرنسا فى الليلة من ٦ إلى ٧ فروكتيدور .

٢٤/٢٣ أغسطس (١٧٩٩م)

لم يثر هذا النبأ المشاعر التى قد يتخيلها القارئ . فقد تلقى الجيش هذا الخبر بسعادة بالغة ظنا منه أن فيه الخير له ، فقد يأمرهم قائدهم بالعودة إلى الوطن. وكان بونابرت قد قام ساعة رحيله بإرسال علمائه ، لإلقاء نظرة فاحصة على الآثار بالصعيد واكتشافها . وبهذا استطاع أن يفلت من فطنتهم واكتشافهم الفورى لخطته . كم كنا نتوق لوداع قائدنا ولم نشعر بالرضا إلا إثر سماعنا البيان التالى :

القائد العام

من بونابرت إلى الجيش

أيها الجنود :

لقد جعلتنى الأنباء الواردة من أوربّا أقرر الرحيل إلى فرنسا وأترك قيادة الجيش للجنرال كليبر . وسوف تتلقون قريبا أنباء منى ولست فى حل أن أريد عن هذا . يعز على ترك الجنود مع ارتباطى بهم كل الارتباط ولكنه أمر مؤقت ، واعلموا أن الجنرال الذى خلفته يحظى بثقة الحكومة وثقتى .

بونابرت

وهذا ما كتبه فى نفس الوقت للديوان .

من مركز القيادة بالإسكندرية

الخامس من فروكتيدور عام ٢٢ اغسطس (١٧٩٩م)

من بونابرت القائد العام وعضو المعهد القومى

بسم الله الرحمن الرحيم
إلى ديوان القاهرة أكثر الدواوين استنارة وحكمة :

بعد أن علمت بتهيؤ أسطولى للرحيل وعلى متنه جيش هائل ، واقتناعا منى كما قلت لكم عدة مرات ، بأننى طالما لم أسحق بضربة واحدة كافة أعدائى فلن أنعم بهدوء بمصر ، أجمل بقاع الأرض ، فقد قررت أن أتولى قيادة أسطولى ، وأن أعهد بالقيادة فى أثناء غيابى للجنرال كليبر وهو رجل متميز أفتخر به ، وقد طلبت منه أن يكن للعلماء والشيوخ نفس المحبة التى أكنها لهم . لتفعلوا ما فى وسعكم حتى يحظى بنفس ثقة شعب مصر فىّ ، وحتى يكون هذا الشعب مصدر سعادتى عند عودتى فى ظرف شهرين أو ثلاثة ، ولا تجعلونى أحمل إلا المديح والمكافأة للشيوخ عند عودتى .

بونابرت

لنعتقد ما نشاء فى صدق هذه اللغة . ولكن الأمر المؤكد أن الانطباع اللحظى الذى خلفه فى أذهان شعب جاهل وساذج ، أنه قد وقانا شر ثورة مفاجئة . مما أتاح الفرصة للجنرال الجديد للتهيؤ والاستعداد . وكان أول ما فعله كليبر هو أن وجه إلينا البيان التالى :

مركز القيادة بالقاهرة ، فى ١٤ فروكتيدور الموافق ٣١ أغسطس ١٧٩٩ ،

من كليبر القائد العام إلى الجيش

أيها الجنود :

لقد اضطرت ظروف قهرية الجنرال بونابرت إلى التوجه إلى فرنسا، ولم تحل مخاطر الإبحار فى فصل غير موات وفى بحر ضيق مرشوق

بالأعداء دون سفره ، ولم تقعده أى من هذه المصاعب عن الرحيل ، فقد كان الأمر يتعلق بما فيه الخير لكم .

أيها الجنود ، سوف يأتينا دعم فورى أو سلام مجيد ، سلام جدير بكم وبأعمالكم ليحملكم إلى وطنكم .

وإننى وقد أخذت على عاتقى الحمل الثقيل الذى كلفنى به بونابرت ، فقد شعرت بأهميته وبكل الصعوبات التى تكتنفه. وإننى إذ أقدر شجاعتكم ، التى كللت بالانتصارات ، حق قدرها ، كما أقدر دأبكم وصبركم فى تحدى كل الآلام وتحمل جميع صنوف الحرمان وأقدر كذلك كل ما يمكننا تحقيقه بجنود مثلكم ، كل هذا لا يجعلنى أرى إلا ميزة رئاستكم وشرف قيادتكم، ولهذا سأضاعف من جهدى .

أيها الجنود ، لا يساوركم شك فى أننى باذل قصارى جهدى ، وساعٍ بدأب فى سبيل تلبية احتياجاتكم الملحة .

كليبر

لم يغضبنا انتقال القيادة إلى يد هذا الجنرال ، فشجاعته المعروفة عنه منذ اشتراكه فى جيش الرين والحذر الذى لازمه فى كل مكان خاصة فى أثناء حصار عكا ، والحيادية التى كان يحقق بها العدالة وبشاشته المشجعة وجاذبيته ، كل هذا جعله يكسب سريعا ثقة الجيش .

وما عرفناه عن شخصيته المختلفة عمن سبقه جعلتنا نأمل فى أنه سيتفاوض مع أعدائنا وسوف يتمكن من العودة بنا إلى وطننا .

لم يكن بونابرت يعمل إلا لمصلحته الشخصية ، ولا يضع أمام عينيه سوى رفعة شأنه . أما كليبر فلم يكن يفكر فى نفسه ، ولم يكن يرى

إلا ما فيه سعادة وراحة الجندى . ولم يكن ينتظر من رفعة إلا ما يستحقه بالفعل، دون أن يسعى إلى هذا .

ولو أن الأول لم ير أملاً فى إمكانية الاستحواذ على السلطة العليا فى وطنه لبقى فى مصر ، ليقيم لنفسه دولة مستقلة ثمنها دمنا جميعا . إنه مثل قيصر ، يرى من الأفضل أن يكون الرجل الأول فى القاهرة ، بدلا من الثانى فى باريس . أما كليبر فلم يكن له هذه التطلعات ، فيكفيه المرتبة التى بلغها بفضل موهبته العسكرية التى أهلها له حظه . لم يكن له أية مصالح شخصية ليجعلنا نبقى فى بلد يدرك بحكمته أنه لن تكون لنا جذور به ، لذا كان لدينا من الأسباب ما يجعلنا ننتظر منه أعذب الأمنيات .

ولنتابع معا كيف قاد هذا الجنرال الحملة وحتى اللحظة التى اختطفته ميتة مشؤومة من مشاعر الحب التى كنا نكنها له .

تلقت قوة من اللواء ٧٥ الذى كنت أنتمى إليه أمرا بالتوجه إلى القاهرة فرحلنا عن دمياط فى السابع والعشرين من فروكتيدور عام ٧ الموافق ١٣ سبتمبر (١٧٩٩) ، ووصلنا إلى العاصمة فى اليوم الثالث . وفى القاهرة كنا أقرب من مصادر الأنباء ، وعلمنا بمخاطر جديدة تتهددنا فقد انضم الوزير الأعظم شخصيا للجزار الرهيب باشا عكا ، ليتقدم فى سوريا بجيش مهيب كبير العدد والعتاد يضم سلاح المشاة والمدفعية والفرسان ، وقد أقسم أن يفنينا عن آخرنا . فما كان منا إلا أن أرسلنا الجزء الأكبر من جيشنا الى الحدود للتصدى لهذا الغزو ووقف هذا السيل المدمر إن أمكن .

ومع هذا كان هناك حديث عن بعض الترتيبات وعن السلام ، فاختلاف الشروط المطلوبة ضاعف من الرسائل المتبادلة ، وكنا نرى بلا انقطاع وصول ورحيل المفاوضين من الجانبين ، مما أيقظ وأكد لدينا الشعور بالرغبة فى العودة إلى أوربا . غير أن العدو ما هدف من وراء هذا إلا أن

يُلهنا ويخدعنا . فبينما كـان يتظاهر بالتفاوض إذ به ينجح فى إتمام محاولة إنزال . فقـد تمكن من إنزال ما بين ثلاثة إلى أربعة آلاف رجل من جـميع القوات بالقرب من دمياط ، غير أن نشاطنا لم يتح له فرصة إنزال المزيد .

وفى العاشر من برومـير عام ٨ ، الأول من نوفمبـر ١٨٩٩ بدأ قتال عنيف من الجانبين . غـير أن جنودنا لجئـوا إلى سلاحهم المفـضل ، لينهوا هذا القتال فى وقت قصير . فقد مضوا ينشـرون الرعـب والفـزع ، ومن نجا من حرابنا كـان مصيره القذف فى الأمـواج . لم يفلت من هذا المصير سوى ٨٠٠ شخص استسلموا كأسرى من بينهم أغا انكشارى . وقد كلفنا هذا النصر مائة من رجـالنا ، قتل من بينهم ثلاثون شخصًـا ، كان دونوييه الشجاع قائد الفرقة الثانية الملقبة بالخفيفة من بينهم .

وقد تكهنا من خلال تحركات الجـيوش البرية بقيادة الوزير الأعظم بأنه سيكون لنا مواجهة قريبة معه. ورحنا نستعد لها حينما علمنا أن الجنرال قام بسحب قواتنا المتقدمة التى كانت تـقترب بالفعل من حصن العريش بعد أن أجرى مفاوضات معه لاسيما وقد علم أن الإنجليز كانوا يسعون لإلقاء بذور الشقة بيننا ، لعدم ثقتهم فى إمكانية الانتصار علينا بحرب شريفة .

فقد سعى عملاء سميث للاستفادة من حالة الاستياء العام بسبب عدم صرف رواتبنا منذ سبعة أشهر ، فراحوا يبذرون بين صفوفنا منشورات تندد بقادتنا ، كان الهدف منهـا هو استثارتنا كى نتمرد فتتـفشى الفوضى . وقد طالب كتّاب هذه المنشورات المستاءين منّـا بالعودة إلى فرنسا، أيا كان الثمن وأيا كانت الظروف .

غـير أن هذه المناورات التى جـرت فى الخـفاء لم تلق النجـاح الذى رجاه منهـا من دبروا لهذه المكيـدة . كانت فـرقة المشاة المـلقبة بالخـفيـفة الوحيدة تقـريبا التى تجـاوبت الى حد ما مع هـذه اللعبة المدمـرة . وقد صدر فى التاسع من فريمار سنة ٨ أمر بتسريح الفرقة الثـانية الخفيفة وضمها

إلى مـختلف وحـدات الجـيـش التى ظلت على سلوكـها دون أن تشـوبه شـائبة .

وفى السابع عشـر من الشهر ، قام القائد العـام بتجميع كافـة ضباط حمية القـاهرة عنده ، وبعد أن أعلمهم بأنه فعل ما بوسعـه لخير الجيش ، عرض عليهم الموقف المالى من خلال الإيرادات والمصروفات ، وطلب منهم التحسب لأية فوضى مثل تلك التى أرغمـته على التصرف بشدة مع الفرقة الثانية . فقد قال : «ما فعـلته كان أمرًا ثقيلاً على قلبى ولكن كان لابد من إعطاء درس قاس ليتعظ الآخرون» . وأبدى استعداده لتسريح أية فرقة تضع نفسها فى هذا الموضع . ثم أعلمهم بالمدى الذى وصلت إليه المفاوضات بينه وبين الوزير الأعظم ، وأنه سيسعى قدر الإمكان لتجنب المعارك، ولكن إذا أعيتـه السبل ولم يبق أمامه سـوى هذا الحل ، فسوف يلجأ إليـه ويقاتل ، وهو على قناعة تامة بأنهم سوف يساندونه ، وسيفعل ما فى وسعه ليعيدهم إلى فرنسا بحلول الربيع ، ولكن إن كان الثمن هو التـضحية بشرفه وبمجد جيشه - حتى وإن لم يبق سـواه - فلن يكون له فى هذا حيلة .

وقـد ترك القـائد أبلغ الأثر فى نفـوسنا بالصـراحـة التى تناول بهـا الموضوع وبسلوكه ومشاعره ، فسارعنا بمعاهدته على الطاعة والمساندة. وقد أرسل على الفور الجنرال ديزيه والسـيد بوسيلج إلى دمياط وكـلفهم بحمل رسالة الى الأميرالاى الإنجلـيزي على متن التيجر عن كلمتـه الأخيرة بشأن السلام والحرب . فقد كنا مـتأكدين من أن الوزير الأعظم لم يكن يتصرف إلا بتأثير من السياسة الإنجليـزية التى لم تكن - فيما يبدو - فى صالحنا مما أجبرنا على التعرض لمعارك جديدة . لقد أراد الجنرال كليبر فى البداية إعادة تنظيم الفـرقة الثانية التى سـرحها . وقد اضطر آسـفا الى معاقبتها . وقد عفا عنها لعدالته وخصاله الطيبة ، حـتى لا تضيع أغلبية بريئة ضحية حفنة من المذنبين خاصة وأنهم من كشفوا عنـهم . وقد شعر الجيش كله بالامتنان لهذا الجنرال الشجاع وعبر له عن رضاه .

حينما لم يعثر مفاوضونا على السفينة " تيجر" فى المكان المضروب للقاء ، أخذوا اختفاء الإنجليز على أنه رفض لإتمام المعاهدة وإيذانا بالقطيعة بينهم. وكانت النتيجة أن رحلنا فى التاسع من نيفوز الموافق الثلاثين من ديسمبر (١٧٩٩م) إلى القاهرة ، لملاقاة العدو . بلغنا بلبيس فى العاشر من الشهر وعرفنا أن رياح شديدة هى التى أبعدت الأميرالاى الإنجليزى . وقد تم استئناف المفاوضات ، فصدر لنا أمر بمعاودة الرجوع إلى القاهرة . وفى أول ليلة مبيت فى بالوظة ، أصدر الجنرال رينييه كومندان القوات المتقدمة أوامره لنا بالعودة أدراجنا بدعوى أن العدو قد بدأ فى التحرك . وبعد عودتنا الى بلبيس تناهى لعلمنا نبأ الاتفاق على هدنة لمدة شهر مما جعلنا نعتقد أن الجنرال رينييه قد وقع فى خطأ ، لاسيما وقد كتب للقائد العام يفيده بأنه قد أخطأ . وقد زالت شكوكنا فى الرابع عشر من الشهر، حينما علمنا بسقوط قلعة العريش والاستيلاء عليها. وعزينا هذه الخسارة إلى عدم ذكاء القوات المكلفة بحمايتها . ولجهلهم الأهداف الحقيقة ، قام بعض الأشخاص بتقديم شكوى للكومندان لحثه على استعادة الموقع ، بل ساد اعتقاد بأن بعض الخونة قاموا بسحب بعض جنود العدو بحبال إلى القلعة . فبعد أن تمكنا من اقتحامها بدءوا فى الاستيلاء على كل ما وقع تحت أيديهم ، غير أن بعض الفرنسيين وقد كانوا معرضين - فيما يبدو - لما فعلته الفئة الأولى ، قاموا بإطلاق النار . وقد أسفر الانفجار عن قتل عدد كبير من قواتنا وقوات العدو على حد سواء . ويقال أيضا إن أسرى الحرب المسجونين فى القلعة قاموا بفتح باب خفى للأتراك استخدموه فى الدخول إليها . حدث هذا فى الوقت الذى كان سيبدأ فيه سريان المعاهدة التى تم التوقيع عليها. هذه الخسارة التى كلفتنا ما يقرب من ٤٠٠ رجل و التى سهلت للعدو الدخول الى مصر ، كانت من الأهمية بحيث نبهتنا وشكلت تحذيراً لنا وجعلتنا نتنبأ بأكثر المعارك دموية. وكان علينا التصرف ؛ لهذا غادرنا بلبيس فى الخامس عشر من الشهر ، وقضينا ليلة فى كُرَيم .

وقد وصلنا إلى الصالحية فى اليوم التالى حيث كان تجمع الجيوش . ولم يصل للباب العالى نبأ الهدنة إلا بعد الاستيلاء على العريش ، وقد علق بالفعل جميع عملياته لحين انتهاء المهلة المتفق عليها .

١٢ يناير (١٨٠٠م)

وصل القائد العام إلى الصالحية فى الثانى والعشرين من نيفوز ، وبعد أن استبقى الضباط الذين جاءوا لزيارته أنبأهم بأن بونابرت قبل رحيله بدأ مفاوضات مع الباب العالى ، وأردف : «وقد مضيت فى تلك المفاوضات حتى الآن . والأمر الآن متروك لكم إن أردتم العودة إلى فرنسا ، ولكننى لا أستطيع قبول المقترحات المعروضة على . وأعتقد أنه لا يوجد جندى لن يفضل الموت على ترك أسلحته ، فهل سيرغب فى العودة إلى الوطن عاريًا مجردًا من كل شىء وكأنه متشرد طرد من بلد كان يخشى يوما جانبه فيها ؟ وعلى أية حال ، أتعرفون المصير الذى سنلقاه على أيديهم بمجرد أن يرونا بلا دفاع ، لا حول لنا ولا قوة ؟ لا . . علينا بالمزيد من القتال والانتصار، فالنصر هو الذى سيجعلنا سادة الموقف . وسوف نتفاوض بشرف . يجب أن يرانا مواطنونا ونحن عائدون براياتنا وأسلحتنا فى أيدينا تسبقنا طبولنا وموسيقانا الحربية . وسوف يقولون حينما يروننا ، هؤلاء هم رجالنا الشجعان الذين خانهم الحظ ولكن الانتصار بقى حليفهم ، هذه هى الفرقة الثانية والثلاثون المرعبة والفرقة الخامسة والسبعون لتى لا تقهر، عائدين من الشرق براياتهم التى استماتوا فى الدفاع عنها على ضفاف نهر البو والبياف والرين .

عاهدونى على النصر ، أعاهدكم على عودة مجيدة إلى فرنسا . وإن مزمنا فلن أستطيع أن أكفل لكم مجدا ولا أن أؤمّن حياتكم ، ففى شجاعتنا خلاصنا» .

وقد كـان لهذا الحديث الذى أوردت بعضـا منه أبلغ الأثر فى إقناعنا بضرورة خوض معارك أصبحنا نتوق إليـها ، لأن نجاحنا فيها يضمن عودتنا إلى بلادنا التى نتحرق شوقا لرؤيتها ولا أغلى لدينا من هذه الأمنيـة .

وقـد اسـتـمـر الجنرال كليـبـر - علـى الرغم من هذا - فى إجـراء مفاوضات مع الباب العالى ، والكومودور سيدنى سميث والمفوض الروسى من خلال الجنرال ديزيه . وكنا كلمـا وصلتنا بعض الرسائل من مفـاوضينا نظن أنها تبشـرنا ببداية المعارك فكنا نسارع إلى أسلحتنا . وبعـد بضعة أيام قيل لنا أن السـلام قاب قوسين أو أدنى ، وأنه قد تم الاتفـاق عليه . وقد استنتجنا من وقف عمل التحصينات أن لهذه المعلومات أساسًا من الصحة . وتبددت شكوكنا حينما جاءنا البيان التالى من القائد العام :

مـعـسكر الصـالحـيـة ، الشـامن من بلوفـيـوز عـام ٨ الموافق ٢٨ يناير (١٨٠٠م)

كليبر ، القائد العام للجيوش

أيها الجنود :

ثمة أحداث جرت ، لست فى حل بعد من إعـلانها ، جعلتنى أعقد العـزم على وقف انتصـاراتكم والتـفاوض مع أعـدائنا بدلا من قتـالهم . وبمقتـضى المعاهدة التى أبرمـتها ، سـوف ترون الوطن بعد أربعة أشـهر ، وسوف تستمرون فى خدمته بجيوشكم بصورة أكثر فاعلية مما فعلتم فى هذه البلد .

أيها الجنود ، لو أننى استُشرت قبل أن يُعهد إلى بهذا الحـمل الثقيل الذى خلفه لى الجـنرال بونابرت لَأبيت قطعا القـبول ، لإحسـاسى الشديد بأن قـواى لن تتـوافق وأهمـيـة المنصـب الذى أشـغله فى ظروف شـديدة

الصعوبة. ولكن لم يكن بيدى الخيار كـما تعلمون . ولكن ما يواسينى هو اقتناعى بأننـى إن لم أكن قمت بكل ما تسـتحقـه شجاعـتكم وإخلاصكم للجمـهورية فـإننى - على الأقل - قد فـعلت كل ما هو ممكن إنسـانيًا فى الموقف العصيب الذى اجتـازه الجيش. ومن لم يصم أذنيه منكم عن صوت العقل ، فقد يعترف لى بأننى لا أعبأ كثيرا بقبول الآخرين لما فعلته[1] .

أيها الجنود ، هناك التزامات متبادلة بينكم وبين الجيش العثمانى . وأنا مقـتنع اقتناعـا تاما بأنه لن يخطر على بـال الباب العالى أو قـادة المسلمين الحنث بعـهدهم . ولكن فى ظل التـسيب المسـتشـرى فى مؤسسـاتهم هل سيتحكمون فـى سلوك رعاياهم؟ لاشك أن هذا لن يحدث. وسيكون على ذوى الحكمـة والرشـاد منكـم تجنب واتقـاء المشاحنات والمشـاجـرات ، لأن عواقبها ستكون مشؤومة ووخيمة . لن يفلت من عقابى من يوجه لكم أية إهانة ، ولن يفلت منه من يثـير منكم غـضبتى وسـوف يحاسب وفـقا للقـانون .

كليبر

وإليكم نص الالتزامات المتبادلة بين الجـيش الفرنسى والجيش العثمانى والتى جاء ذكرها فى حـديث كليبر . وقد تم إبرام هذه الاتفاقيـة والتوقيع عليها فى العريش فى الرابع من بلـوفيوز من نفس العام ، الموافق ٢٤ يناير (١٨٠٠ م) .

(١) أعتقد أنه يقصد هنا بعض الجنرالات الذين عقدوا مجلسًا خاصًا وقرروا القتال . فمع حركة التمرد التى حدثت فى الإسكندرية بهدف التخلى عن هذا الموقع للإنجليز ، ومع عدم اليقين من النصر والتعب والسأم الذى حل بالقوات ، إضافة لظروف أخرى كانت تثير المخاوف بنفس القدر ، كل هذا أسهم لاشك فى هذه الرغبة فى الجلاء عن مصر .

اتفاقية

للجلاء عن مصر، أُبرِمت بين المواطنين الجنرال ديزيه قائد إحدى الفرق ، والسيد بوسيلج مدير عام المالية ، مفاوضين عن القائد العام .

وكل من مصطفى رشيد أفندى دفتردار ، ومصطفى راسخ أفندى ريس الكتاب ، مفوضان عن جناب الوزير الأعظم .

رغبة من الجيش الفرنسى فى إثبات رغبته فى وقف سيل الدماء ، وليضع حدا لهذه الخلافات المشؤومة بين الجمهورية الفرنسية والباب العالى ، فإنه يوافق على الجلاء عن مصر ، أملا فى أن يقود هذا أوربّا إلى السلام .

البند الأول :

تسحب الجيوش الفرنسية أسلحتها وعتادها إلى الإسكندرية ورشيد وأبى قير ، تمهيدا لشحنها وتحميلها والعودة بها إلى فرنسا على متن سفنها أو سفن يمدها بها الباب العالى إن اقتضى الأمر هذا . وحتى يتم إعداد هذه السفن على وجه السرعة ، تم الاتفاق على إيفاد مفوض وخمسين شخصًا من قبل الباب العالى بعد شهر من تاريخ التصديق على هذه الاتفاقية .

البند الثانى :

سيتم وقف إطلاق النار فى مصر لمدة ثلاثة أشهر اعتبارا من يوم توقيع الاتفاقية ، وفى حالة انقضاء مهلة الهدنة قبل إتمام تجهيز السفن الممنوحة من الباب العالى ، سيتم مد الهدنة لحين إقلاع السفن بكامل هيئتها .

وسوف يتخذ الإجراءات الممكنة التى من شأنها الحفاظ على هدوء الجيش والشعب أثناء الهدنة.

البند الثالث :

سيتم ترحيل الجيش الفرنسى طبقا للنظام الذى سيقرره المفوضان المعنيان لهذا الغرض من قبل الباب العالى والجنرال كليبر لهذا الغرض ، فإذا حدث أى خلاف عند الرحيل بين هؤلاء المفوضين ، سيقوم الكومودور سيدنى سميث بالنظر فى الخلافات والفصل فيها طبقا للوائح البحرية الإنجليزية .

البند الرابع :

يتم إجلاء الجيش الفرنسى عن قطية والصالحية فى اليوم الثامن أو العاشر على أقصى تقدير من تاريخ التصديق على هذه المعاهدة . وسيتم الجلاء عن مدينة المنصورة ، فى اليوم الثالث عشر ، وعن دمياط وبلبيس فى اليوم العشرين . أما السويس فسيتم الجلاء عنها قبل القاهرة بستة أيام ، على أن يتم الجلاء عن بقية البلاد الواقعة على الضفة الشرقية من النيل فى اليوم العاشر ، بينما تجلى الدلتا فى اليوم الخامس عشر بعد إبرام الاتفاقية بعد الجلاء عن مدينة القاهرة .

وسوف تبقى الضفة الغربية من النيل والمواقع التابعة لها تحت يد الفرنسيين حتى يتم الجلاء عن القاهرة . وبما أن الجيش الفرنسى سيظل محتلا لهذه المنطقة لحين عودة كافة القوات من صعيد مصر ، فيجوز عدم الجلاء عن هذه الضفة الغربية والمناطق الواقعة فى نطاقها حتى موعد انتهاء الهدنة إذا تعذر الجلاء عنها قبل هذا . وسيتم تسليم المناطق التى تجلى عنها الجيوش إلى الباب العالى على حالتها الحالية .

البند الخامس :

سيتم الجلاء عن مدينة القاهرة فى غضون أربعين يومًا إذا سنحت الظروف أو ٤٥ يومًا على أقصى تقدير ، بدءًا من يوم التصديق على الاتفاقية .

البند السادس :

وقد تم الاتفاق بشكل صريح بأن الباب العالى سيقدم كل ما من شأنه تأمين القوات الفرنسية فى جميع مواقع الضفة الغربية للنيل خلال عودتهم بأسلحتهم وعتادهم إلى مركز القيادة بحيث لا تتعرض فى طريقها لأية مضايقات وإزعاج فيما يتعلق بالأشخاص أو الممتلكات أو ما يمس الشرف والكرامة سواء من جانب الشعب المصرى أو من قوات الجيش التركى .

البند السابع :

بناءً على المادة السابقة ، سيتم اتخاذ إجراءات كفيلة بإبقاء القوات التركية بعيدة بقدر كاف عن القوات الفرنسية لمنع أية مشاحنات أو عمليات عدوانية .

البند الثامن :

بمجرد التصديق على هذه المعاهدة سيتم إخلاء سبيل جميع الجنود الأتراك أو التابعين لجنسيات أخرى من رعايا الباب العالى ، بلا تمييز بين المحتجزين سواء فى فرنسا أو تحت السيطرة الفرنسية فى كافة المدن وعلى صعيد الإمبراطورية العثمانية بكاملها، كذلك سوف يتم إطلاق سراح جميع

الأشــخاص المنتــمين لأية دولة أيا كــانت ، الموجودين فى المفــوضيــات أو القنصليات الفرنسية .

البند التاسع :

سيتم فوراً فى قسطنطينيــة البدء فى إعادة ممتلكات الأفراد من الجانبين أو سداد قيمــتها للملاك بمجرد الجلاء عن مــصر عن طريق المفوضين الذين سيتم تعيينهم من الجانبين لهذا الغرض .

البند العاشر :

لن يكون لأى شخص من سكان مصر أيا كانت ديانته أن يخشى على نفسه أو أملاكه بسبب علاقات أقامها مع الفرنسيين خلال فترة الاحتلال .

البند الحادى عشر :

سيقــوم الباب العالى وحلفاؤه ، أى بريطانيا العظمى وروســيا بتسليم الجيش الفــرنسى جوازات السفــر وتصريحــات المرور اللازمة لتأمين عــملية العودة إلى فرنسا .

البند الثانى عشر :

يتعهد الباب العالى وحلفــاؤه بأنه عند إقلاع الجيش الفرنسى من مصر لن يعترض طريقه أحــد ، كما يتعهد الجنرال كليبــر والجيش الفرنسى بمصر من جانبــه بعدم اقــتراف أية عــمليات عدوانــية خلال الفــترة المحــددة ضد أسطول أو بلاد البــاب العالى وحلفــائه وإن الســفن المقلة لهذا الجــيش لن

ترسو على أية شواطئ على الإطلاق سوى فى فرنسا إلا فى حالة الضرورة القصوى .

البند الثالث عشر :

بناء على الهدنة مع الجيش الفرنسى ومدتها ثلاثة أشهر والمنصوص عليها في هذا العقد من أجل الجلاء عن مصر ، يقر طرفا الاتفاقية بأنه فى حالة دخول أية سفن فرنسية إلى ميناء الإسكندرية دون علم قيادات أساطيل الحلفاء ، فسيتمكنون من الرحيل بعد التزود بالماء ومواد الإعاشة اللازمة وسيعودون إلى فرنسا بجوازات سفر صادرة عن دول الحلفاء . وفى حالة احتياج هذه السفن لبعض الإصلاحات ، فسيسمح لها البقاء لحين إتمامها على أن تغادر البلاد بمجرد الانتهاء منها متوجهة إلى فرنسا مثل مثيلاتها مع أول رياح مواتية .

البند الرابع عشر :

يسمح للقائد العام كليبر بإرسال سفينة حربية فورا إلى فرنسا مع إعطائها رخص المرور اللازمة حتى تتمكن من إعلام الحكومة الفرنسية بالجلاء عن مصر .

البند الخامس عشر :

بما أن الجيش الفرنسى سيحتاج لمواد إعاشة يومية خلال الشهور الثلاثة التى سيقوم خلالها بالجلاء عن مصر ، وكذلك الشهور الثلاثة التالية بدءاً من يوم الإبحار ، فقد تم الاتفاق على إمداده بالكميات اللازمة من القمح واللحم والأرز والشعير والتبن طبقا لما سوف يطلبه مفاوضينا سواء بالنسبة

لفترة الإقامة أو السفر وبعد التصديق على هذه الاتفاقية يتم تحصيل الكميات التى سيسحبها الجيش من المخازن من تلك التى سوف يمنحها الباب العالى .

البند السادس عشر :

بدءًا من يوم التصديق على هذه الاتفاقية تمتنع فرنسا عن جباية أية أموال فى مصر ، ولكنها سوف تتخلى للباب العالى عن الضرائب العادية المستحقة التى سيكون عليها فرضها حتى رحيلها ، إضافة إلى الجمال والإبل والإمدادات والمدافع ومتعلقات أخرى تخصها ، وكذلك مخازن مواد الإعاشة . علما بأنه سيتم فحص وتقييم هذه الأغراض من خلال المفوضين الذين يرسلهم الباب العالى وقائد القوات البريطانية إلى مصر لهذا الغرض . إضافة إلى الأسماء التى يقترحها القائد العام الجنرال كليبر، لتسلمها للطرف الأول طبقا للقيمة التى تحددت وحتى ما قيمته ثلاثة آلاف كيس من المال ، وهو المبلغ اللازم للجيش الفرنسى للإسراع برحيله ، فإذا لم تصل قيمة هذه الأشياء للمبلغ المطلوب سيكون على الباب العالى سداد قيمة العجز فى صورة قروض تتعهد الحكومة الفرنسية بسدادها بموجب الأوراق التى يقدمها المفوضون بتكليف من القائد العام كليبر لتحصيل قيمة المبلغ .

البند السابع عشر :

نظرًا للتكاليف التى ستتكبدها فرنسا للجلاء عن مصر ، فسوف تحصل بعد التصديق على هذه الاتفاقية على المبالغ التالية المنصوص عليها على التوالى :

اليوم الخامس عشر	: ٥٠٠ كيس
اليوم الثلاثون	٥٠٠ كيس
اليوم الأربعون	٣٠٠ كيس
اليوم الخمسون	٣٠٠ كيس
اليوم الستون	٣٠٠ كيس
اليوم السبعون	٣٠٠ كيس
اليوم الثمانون	٣٠٠ كيس[(١)]

وأخيرا فى اليوم التسعين ، تمنح ٥٠٠ كيس نقود قيمتها ٥٠٠ قرش تركى للكيس ، ستأخذ على هيئة قروض عن طريق الأشخاص الذين يكلفهم الباب العالى بهذا الغرض ، ولتسهيل هذا الإجراء ، يرسل الباب العالى فور تبادل التصديق مفوضين لمدينة القاهرة والمدن الأخرى الواقعة تحت الاحتلال .

البند الثامن عشر :

بالنسبة لما سوف يحصله الفرنسيون بعد تاريخ التصديق وقبل الإخطار بالاتفاقية فى مختلف مواقع مصر ، فسوف يخصم من قيمة الـ ٣٠٠٠ كيس نقود المنصوص عليها أعلاه .

البند التاسع عشر :

لتسهيل الإسراع بالجلاء عن المواقع سيتم إطلاق سفن النقل الفرنسية

(١) كيس النقود يعادل ما قيمته ١٥٠٠ فرنك قديم .

الراسية فى موانىء مصر خلال شهور الهدنة الثلاثة من أول دمياط ورشيد وحتى الإسكندرية ، ومن الإسكندرية إلى رشيد إلى دمياط .

البند العشرون :

بما أن الحفاظ على الصحة العامة في أوربّا يستوجب اتخاذ أشد الاحتياطات لمنع وصول عدوى الطاعون أو انتقالها إليها ، فلن يتم ترحيل أى شخص مصاب أو مشتبه فى إصابته بهذا المرض . أما المرضى سواء المصابون بالطاعون أو بأى مرض يحول دون رحيلهم خلال مدة الإجلاء ، فسيبقون فى المستشفيات تحت رعاية سمو الوزير الأعظم ، على أن يقوم ضباط الصحة الفرنسيون بعلاجهم ، ويظلوا برفقتهم لحين تمام الشفاء بحيث تتيح لهم حالتهم الصحية الرحيل فى أقرب فرصة . وسيتم تطبيق البند الحادى عشر والثانى عشر من الاتفاقية عليهم كما يطبق على باقى أفراد الجيش . ويتعهد القائد العام للجيش الفرنسى بإصدار أوامر صارمة لمختلف الضباط قادة القوات التى ستجلى بعدم السماح برسو السفن على أى ميناء بخلاف ما سوف يحدده لهم ضباط الصحة ، لتسهيل مهمة الحجر الصحى الضرورية .

البند الحادى والعشرون :

جميع المعوقات أو الصعوبات التى لم تتحسب لها هذه الاتفاقية يتم حسمها بالطرق الودية من خلال المفوضين الذين يحددهم جناب الوزير الأعظم أو القائد العام الجنرال كليبر بما يكفل تسهيل إجراءات الجلاء .

البند الثانى والعشرون :

لن يبدأ سريان هذا الاتفاق إلا عقب التصديق عليه من الجانبين ، على أن يتم التبادل خلال مهلة قدرها ثمانية أيام . وبعد التصديق سيتم متابعة تنفيذ هذا الاتفاق بدقة شديدة من الجانبين . وسيتم إعداده والتوقيع عليه وختمه بأختام الطرفين فى معسكر المؤتمرات بالقرب من العريش فى الرابع من بلوفيوز السنة الثامنة للجمهورية الفرنسية الموافق ٢٤ يناير (١٨٠٠م) من التقويم السابق ، و ٢٨من شعبان سنة ١٢١٤هـ .

سيقوم بالتوقيع على الاتفاق كل من الجنرال ديزيه والكومندان بوسيلج موكلين عن الجنرال كليبر وجناب مصطفى رشيد أفندى دفتردار، ومصطفى راسخ رئيس الكتاب موكلين عن جناب الوزير الأعظم .

وسيقوم بالتوقيع على النسخة الخاصة بالحملة الفرنسية والتى ستسلم إلى الوزراء الأتراك لمبادلتهم بنسخة الجانب التركى كلٌّ من ديزيه و بوسيلج .

أما النسخة التى سيصدق عليها القائد العام للجيش الفرنسى أدنى النص التركى فستظل فى حيازة جناب الوزير الأعظم .

أنا الموقع أدناه ، القائد العام للجيش الفرنسى أوافق وأصدق على شروط هذه المعاهدة حتى يبدأ سريانها والعمل بموجبها وأسلم بأن بنودها الاثنين والعشرين مطابقة تماما للترجمة التى وقع عليها مفوضو جناب الوزير الأعظم والتى صدق سموه عليها ، وسوف يتم العمل بمقتضى هذه الترجمة دوما وبالرجوع إليها ، وهى ربما تثير بعض المشاكل نظرا لوجود أى متغيرات بها .

كليبر

النسخة المطابقة ، الجنرال دوما قائد أركان حرب .

بمجرد التوقيع على الاتفاق ، قام الكومودور سيدنى سميث بإرساله إلى البلاط الملكى بإنجلترا.

وقد أثار نبأ هذه المعاهدة مشاعر من الفرحة العارمة وسط الجيش، فهذا معناه رؤية أحبائنا وأهلنا وأصحابنا من جديد ، إنها حقا لسعادة غير متوقعة !

أى عرفان بالجميل يستحقه هذا الجنرال الذى سعى بدأب ليمدنا بها ! لاشك أن اسمه لن ينمحى من ذاكرتنا مدى الحياة . ولكن ، بما أن السعادة لا تأتى أبدا خالصة لا تشوبها شائبة ، فقد كدرت نوعا بشىء تسبب فيه قائدنا لأنه لم يسدد لنا سوى راتب شهر واحد ، فكيف لنا أن نسدد ديوننا المتراكمة طوال ثمانية أشهر بمبلغ زهيد على هذا النحو! وكيف ستسير بنا الأمور خلال الشهور الثلاثة التى علينا قضاؤها فى مصر حتى الرحيل؟ كيف سنشترى ما يلزمنا وما سنستعين به فى رحلتنا ؟ هذا هو طبع الإنسان ، فهو لا يكف عن القلق بشأن مستقبل لا يأتى دوما بالترتيب الذى يقدمه له خياله .

وسوف نرى بعد قليل مدى دقة هذه الملاحظة .

فى هذا الوقت ، انسحب الجيش من مواقع مختلفة فى مصر بعد أن سلم إلى العثمانيين المواقع الحصينة التى كان مسيطرا عليها وفى المواعيد التى تم تحديدها من خلال اتفاقية العريش ، إلى هذا الحد كنا ننفذ وعودنا بكل الدقة ، وقد تم إرسال قوة من لوائنا إلى القاهرة حيث بلغتها فى ٢٨ بلوفيوز عام ٨ الموافق السابع عشر من فبراير (١٨٠٠م) .

أما مراد بك الذى طالما حاربناه ، فقد خشى لاشك أن تنتزع منه السلطة العليا فى مصر ، وأن يقع تحت سيطرة السلطان الذى حرص

البكوات دائما على الاستقلال عنه ، لذا رأى من الأجدى له أن ينضم إلينا بدلا من الجيش التركى . وبذلك أقر السلام معنا، وخلال لقاءه بالجنرال بليار أقسم بذقنه بأن الوزير الأعظم سيحنث بوعده ، وأنه لن يحمل سلاحا ضدنا ، بل إنه منذ فترة لا يحمل سلاحا إلا للدفاع عن نفسه .

ويجدر بنا الاعتراف أنه خلال وجودنا فى مصر وسوريا أثبت هذا الرجل نبلا وشجاعة تعادل ما بذلناه نحن لملاحقته. وإنه على الرغم من جوانبه السيئة ، إلا أنه أثبت دائماً شجاعة وصبرا . هذه الخصال التى تماثل بشدة خصالنا أكسبته تقديرنا، وقد تمنينا من قلوبنا أن يؤول له الحكم عقب رحيلنا .

لم يكن باستطاعتنا أن نخفى عن المصريين نتيجة مفاوضاتنا مع الوزير الأعظم ، وقد رأى قائدنا من واجبه إصدار البيان التالى ليتقى شر أية تجاوزات قد تحدث ضدنا ، فشعب مصر مثل شعب إيطاليا يأخذ دائما جانب من تصطفيه الأقدار .

كليبر ، القائد العام

إلى ديوان القاهرة ولدواوين مختلف مناطق مصر :

تعلمون منذ وقت طويل نية الأمة الفرنسية الدائمة فى الحفاظ على علاقاتها الطويلة مع الإمبراطورية العثمانية. وقد أعلن هذا مرارا وتكرارا سلفى الشهير الجنرال بونابرت ، ومنذ أن قادتنا ظروف الحرب الى هذا البلد ، لم يهمل أى شىء من شأنه تبديد الظنون التى أوحى بها للباب العالى وقادته لتحالف مناهض لمصالحه ومصالحنا . ولم تفلح تفسيرات بونابرت التى أرسلها إلى البلاط بقسطنطينية فى إعادة هذا الاتحاد الذى طالما تمنيناه، وبعد أن منحه تحرك سمو الوزير الأعظم بشخصه إلى دمشق

الفرصة لإقـامة حوار أكثـر مباشرة ، شـرع بنفسه فى إجراء مـفاوضات و أولانى مهمة إنهـائها حينما اضطرته المصالح العليـا للسفر إلى أوربًا . وقد فرغت من هذه المفاوضات ، وأبرمنا اتفاقًـا يعيد هذا البلد إلى أيدى حليفنا السابق . وسـيكون فى إعادة التجـارة إلى مصر أول نتائج هذا التـقارب . وكما أن هذا الاتفـاق سيكون سببـا مباشرا فى إقرار سـلام أصبح ضروريا للأمة الغربية .

تعرفـون المبادئ التى حكمنا مـصر على أساسـها. لقد حـافظنا على دينكم واحتـرمناه وكذلك على قـوانينكم وعاداتكم ، وكفـلنا استمـتاعكم بخيراتكم ولم نخلف لكم أيـة ذكرى عنف وقد عهدنا إليكم بصفـة خاصة بمصالح سكان مـصر ، فكنتم همزة الوصل بين الفرنسـيين وبينهم حتى لا تمس أية مؤسسات عريقة فى هذا البلد .

وقد كان لبونابرت الفضل فى إقرار هذه المبادىء التى شعرت بضرورة الحفاظ عليها. إن الحماس الذى أديتم به مهامكم يجعلكم تحظون بتأييد كل العادلين ، وبحماية خاصة من الحكومة التى سوف تحل محلكم. إن شعب مصر يخضع للسلطة القائمـة بفضل نصائحكم . ولعل الوفاق السائد بينه وبينكم هو خير مكافأة لرعايتكم وحرصكم . أتمنى ألا يفسد أى شيء هذا الاتحاد حتى يتم الانتهاء من تنفيذ الاتفاق . فإذا حدثت أية اضطرابات غير متوقعة لتعكر صفو تنفيذها ، فسوف أضطر لقمعها بالسلاح .

كليبر

ما توقعه قائدنا وأراد درأه ما لبـث أن حدث . فقد قام هؤلاء البرابرة الذين أبرمنا لتونا معهم هذا الاتفاق بمغادرة مواقعهم خاصة من بلبيس ضد أوامر زعمائهم ، وواتتهم الجرأة على الظهور والدخول الى القاهرة ، حيث انتشـروا فى كافـة الأنحاء وفى مـفارق الطرق وهامـوا فى كل مكان كـما

العصابات . بل إن الأمر وصل بهم الى حد الاحتماء ببعض الأحياء وتحصينها ، ولأنهم كانوا مسلحين بشكل جيد فقد قاموا فى الثانى عشر من فانتوز الثالث من مارس (١٨٠٠م) بشن هجوم على جميع الفرنسيين الذين وقعوا تحت قبضتهم. وذبحوا العديد منهم قبل أن نتمكن من التعرف على نواياهم المخادعة. غير أن قلة عددهم إضافة إلى الإجراءات الحكيمة التى اتخذناها ، جعلتهم يدفعون غاليا ثمن الدم الذى أراقوه ، مما أجبرهم على الهروب من المدينة. وقد تم القبض على العديد من قطاع الطرق هؤلاء ، وأمرنا قائدهم الباشا بدق أعناقهم .

وقد فهمنا من خطاب سميث المرسل فى التاسع عشر من فانتوز عام ٨ أن الحكومة الانجليزية تبحث تنفيذ الاتفاق المبرم مع الوزير الأعظم .

وبقدر ما كدرت هذه الظروف الطارئة العسكريين الفرنسيين ، بقدر ما حملت سعادة غامرة «لسيدات فرنسا» . هذه السعادة التى عبرن عنها بقوة فى هذا اليوم فى المسرح . سيدات القلوب ، لم يكن يخشين أية منافسة خطيرة فى مصر، ولنقل إن الزمام كان بيدهن . فإن رحلنا ، كان هذا سينزع عنهن سطوتهن ويعيدهن إلى حجمهن .

وعلى أن أفسر أصل تسمية «سيدات فرنسا» وسببها ، حتى نستبعد ى تأويل خاطئ . فذات يوم توجهت نساء بعض الضباط والجنود فرنسيين وغيرهن عند مدخل مكان محظور الدخول فيه فرفض الحارس دخولهن مما أثار غضبهن ، ورحن يشتكين مر الشكوى من قلة الاحترام الذى لاقينه . وقلن :

- كيف لا يسمح لسيدات فرنسا بالدخول إلى هنا ؟

- فما كان من الحارس إلا أن أجابهن محييا بسلاحه : عفوا كل شئ مباح لسبدات فرنسا .

ومن يومها ، لم تنزل هذه العبارة الأرض ، فقد اتخذها الحارس مادة للتسرية بينه وبين أصدقائه ، حتى سرت فى الجيش كله بعد أن تناقلوا هذه المغامرة ومن يومهـا ثبتت هذه التسمية . هؤلاء السـيدات اللاتى تبعننا إلى مصر لا يعادلن كليوبـاترة جمالا، ولكنهن لم يكن على الإطلاق أقل منها تأنقا . لقـد علموا يقينا أن الفـرنسيين لن يقعـوا أبدا فى غرام نساء مـصر للأسباب التى شرحناها آنفا ، ولذلك أبدوا تحشما ليس بعيداً عن سلوكهن المعتـاد ، فكان ينطلى على من أعـمى الحب عيـونهم ، فيـقع موقـعه من نفوسهن.

ألم يقع جنرالنا السـابق فى هذه الشراك ، حيـنما أسرت امـرأة أحد ضبـاط سلاح الـفرسان فـؤاده بعض الوقت . وقـد نال الزوج بالطبع من الحب جانبًـا ، فأُغدق عليه من النعم ولم يطل انتظـاره لترقيته . ولـتفادى وجوده المحـرج فى كل الأحـوال عهد إلـيه بمهمـة شرفـية لدى الحكـومة الفرنسية. وبينما أبحـر هو إلى تولون ، كان هناك بالطبع من يمضى الليالى فى مواساة زوجتـه الحسناء المكروبة . على أية حال ، لم تكلفنا هذه النزوة ما كلفنا إياه حصار عكا .

ولنعد لأشياء أكثر جدية .

١٢ مارس (١٨٠٠م)

فى الحادى والعشرين من فانتوز قمنا بإجلاء جميع القوات عن القاهرة لتـأخذ مـواقعـهـا فى الأنحاء ، فى انتظار قـرار إيجـابى من الأميـرالاى الإنجليزى . وسرعان ما علمنا أنه ما جـاء إلا فى صالح سيدات فرنسا بعد إعلان البيان التالى :

من كليبر القائد العام إلى الجيش

أيها الجنود :

لقد تسبب انتقال قيادة الأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط إلى قيادة جديدة فى تأخير تنفيذ الاتفاق الذى أبرمته مع الوزير الأعظم . ولكن هذا الوضع لن يستمر طويلا . وفى انتظار انتهاء هذه الظروف علينا أن نظل متيقظين وأن نحافظ على قدراتنا التى ترسخ احترامنا وتشيع الرعب فى القلوب إن لزم الأمر .

أيها الجنود ، تتمثل مهمتى فى الحفاظ عليكم وعلى رفعتكم . وسوف أقدر انتظاركم . ولكننى أطالبكم فى كل الأحوال بالثقة والطاعة .

كليبر

سعينا لدى الوزير الأعظم نستقصى منه الأمر لنعرف ما الذى يتعين القيام به ، فأقسم إنه لا يشارك الأميرالاى الإنجليزى كيث نواياه على الإطلاق . ومع ذلك ، فقد رضينا إخلاء النيل فى الثالث والعشرين كما نص الاتفاق . وكل ما فعلناه هو أننا غيرنا مواقعنا فى الخامس والعشرين منه واتخذنا وضع الاستعداد للهجوم والدفاع . وقد حثنا الوزير الأعظم على إجلاء النيل ، وبذل جهدا كبيرا فى سبيل هذا مؤكدا أنه سيفى تماما بكلمته، ولكننا خشينا أن يكون فى الأمر فخا نصب لنا كى نقع فيه . وعرفنا من الخطاب التالى أنه أريد فرض شروط مهينة علينا :

١٨ مارس (١٨٠٠م)

مركز القيادة بالقاهرة ، السابع والعشرين من فانتوز عام ٨ .

القائد العام كليبر إلى الجيش .

أيها الجنود :

إليكم الخطاب الذى وجهه إلىّ كومندان الأسطول الإنجليزى فى البحر المتوسط من على متن سفينة صاحبة السمو الملكى الملكة شارلوت ، فى الثامن من يناير (١٨٠٠م) :

«سيدى ، أحيط سيادتكم علما أننى تلقيت أوامر من صاحبة الجلالة بعدم الموافقة على أى اتفاق مع الجيش الفرنسى الذى تقودونه فى مصر وسوريا إلا إذا استسلمتم كأسرى حرب وتركتم جميع السفن والعتاد ، وميناء ومدينة الإسكندرية للقوى الحليفة . وفى حالة ابرام اتفاق فلن نسمح لأية قوات بالرجوع إلى فرنسا قبل أن يتم تبادلها . وأرى كذلك من الضرورى إعلامكم بأن ضباط سفننا سيجبرون جميع السفن التى تحمل قوات فرنسية على متنها وترفع رايات هذا البلد وتحمل جوازات سفر بتوقيع جهة غير التى لها حق التوقيع على العودة إلى الإسكندرية ، ما سيتم التحفظ على السفن التى ستعترض طريقنا إلى أوربا واعتبارها غنائم حرب ، وسيعتبر جميع من عليها ممن يحملون جوازات سفر بتصريح خاص من القوات الحليفة أسرى حرب .

توقيع كيث» .

أيها الجنود ، سنعرف كيف نرد على هذه الوقاحة بالانتصار .

فاعدوا عدتكم للقتال .

كليبر

كم من الأفكار تتداعى للذهن عند قراءة مثل هذا الأمر الصادر عن البلاط الملكى فى لندن . أى عدم احترام للقوى الأخرى الحليفة ! سيتحفظون على جميع من يحمل جوازات سفر صادرة عن هذا البلاط

ويعتبرونهم أسرى حرب . أى أن هؤلاء الحلفاء ليس من حقهم منح جوازات السفر. مع أنه جدير بالذكر أن خلال هذه الثورة التى نبتت جذورها فى إنجلترا ، لم تلقانا حكومة هذه الجزيرة إلا بأيدى الشعوب الأخرى باستثناء الحروب البحرية ، فكم أجادت إنجلترا استخدام هذه الشعوب كدروع واقية ، كانت تضعها فى المقدمة لتلقى الضربات عنها، وقد عرفت كيف تستفيد من هذه الدماء التى سفكها أتباعها .

ولكن يبدو أن عملاءها ورسلها لم يعلموها إلا بموقفنا الصعب وقلة عددنا فى مصر بينما أخفوا عنها شجاعة هذا الجيش الصغير وعزة نفسه، فتصورت أننا هزمنا بالفعل ولم يبق إلا أن ترسل الأغلال . لقد تخيلت حكومتها أنها ضيقت بالفعل علينا الخناق. وقد كان ردنا الوحيد الخليق بنا هو ما جاء على لسان قائدنا ، فهو يعلم جيداً مشاعرنا .

هذا التغيير فى المواقف من جانب الحكومة الإنجليزية لاشك أنه مهد السبيل إلى موقف مشابه فى سياسة الباب العالى . وبما أن الجنرال كليبر لم يتلق فى الموعد المحدد الرد على إنذاره النهائى ، فقد أمر الجيوش بالتقدم نحو القبة ، الواقعة على بعد فرسخين من القاهرة حيث وصلت فى فجر التاسع والعشرين منه .

معركة القبة

تم تهيئة القوات فاتخذت تشكيلات مربعة على رأس كل زاوية مدفع يحميها . أما أغلبية سلاح المدفعية فكان فى موقع آخر تحميه بعض التشكيلات ، وعلى الجانب الآخر كان سلاح الفرسان وعلى رأسه القائد العام . أظهر هذا التشكيل الجيش فى صورة هائلة وكان قوامه مائة ألف رجل ، بينما كان عدده لا يتجاوز فى الحقيقة عشرة آلاف شخص .

تقدمنا فى هذا التشكيل نحو العدو حتى أصبح فى متناول مدافعنا . وما إن بلغنا مواقعنا حـتى أطلقنا سيلاً كثـيفًا من طلقات المدفعـية فكانت من دقة التصـويب بحيث أجبرت القـوات المتقدمة على ترك مـواقعها والانسـحاب السريع إلى مـعسكراتها الحـصينة فى المطرية . ولكننا لاحـقناهم عن كثب وهاجـمنا المعـسكر ذاته واقـتحـمناه على الرغـم من المقاومـة الشـديدة ، واستولينا على كل ما كان فيه من عتاد بما فى ذلك أربع عشرة قطعة مدفعية بينما اكتست الأرض بجثث القتلى .

كانت المعارك حـامية الوطيس حتى أن العـدو لم يجد الوقت الكافى لحمل عتاده . وقد كان ضروريا ألا نمنح الـعـدو فرصة التقاط أنفاسـه أو إعادة تنظيم صفوفه فاستمررنا فى مـلاحقته، وحتى نتمكن من هذا بسهولة خلفنا وراءنا كل شىء فى المطرية ، المدافع والعتاد وحوالى سـتمائة عثمانى أفلتوا من المذبحة .

وقد تصـادف وجود مـراد بك مع الوزير الأعظم ليُعـلمه باتفـاقه مع كليبر . وكان قد أرسل خلال الهدنة أحد مبعوثيه لطلب السلام . فما كان من كليبر إلا أن نقل إليه من خلال مبعوثه رغـبته فى أن يبتعد عن القتال، فالتزم بهذا ولم يظهر خـلال المعارك إلا من بعيد . وقد أراد الوزير الأعظم التفاوض ، ولكن جاءه هذا الرد :

« ليـأت من أوقعـوك فى هذا الموقف الحرج ليـخرجـوك منه، الذين يختبئون بحذر فى سفنهم على مسافة كافية من الخطر» .

عبـثا حاول وقف القـتال ، وعبـثا تضرع لنبـيه محـمد وعـوّل على مـعونة مائتى رجـل كان فى انتظارهم لسـحـقنا تبعـا لرؤية يقـول إنهـا جـاءته فى المنام. غير أنه أجـبر على المضى فى التقهقـر ، بينـمـا مضينا نحن فى ملاحقته بقوة . فى اليوم الأول اقتفينا أثره إلى ألوجا الواقعة على

بعد ستة فراسخ من القاهرة وأجبرناه على إجلاء هذا الموقع على عجل شديد ، حتى إنه اضطر مرة أخرى لترك عتاد ضخم وراءه .

ثورة القاهرة الثانية

أسهمت طلقات المدفعية التى لم تنقطع طوال الليل حتى بلغت مسامعنا فى إعلام الجنرال أن ثمة شَغَبًا فى القاهرة . فقرر إرسال بعض القوات التى تتألف من كتيبة من فيلقى كنت ضمنها ، وكتيبتين من الفرقة ٢٥و ٦١ ، علاوة على أربع قطع مدفعية بقيادة الجنرال لاجرانج .

تحركنا فى الساعة الواحدة من بعد منتصف ليلة الثلاثين من فانتوز. وما كدنا نصل الى القبة حتى رأينا جيشًا هائلاً من الفرسان قادم فى اتجاهنا ، ولكننا بدلا من التلهى بقتاله حرصنا على تفاديه ومضينا فى طريقنا صوب القاهرة . وقد لاحقنا مع ذلك فكنا نضطر من وقت إلى آخر إلى إقصائه عنا بطلقات بنادقنا . ولم يمنعنا هذا من بلوغ مركز القيادة فى حوالى الثالثة من ظهر هذا اليوم .

وقد علمنا عند وصولنا أن عددا كبيرا من المماليك والعثمانيين قد دخلوا المدينة وقلبوا علينا الشعب فى حركة تمرد وعصيان ، كما علمنا بمحاولاتهم العديدة للاستيلاء على مركز القيادة ومختلف المواقع الفرنسية ، وقد أملوا فى النجاح معوّلين على أننا لم نخلف فى هذه المدينة سوى الجرحى والمرضى ، ممن لم يتمكنوا من المضى معنا للتصدى لجيش العدو الضخم .

٢٢ مارس (١٨٠٠م)

فى الأول من جيرمينال عام ٨ اتخذت كتيبتى موقعها فى ساحة الأزبكية ، حيث كان كل شىء هادئًا فى الصباح ، ولكن قرب الساعة

الثامنة مساء وحينما أردنا الاتصال بمركز القيادة الفرنسى طالبين النجدة للأوربيين المعرضين للخطر، لقينا مقاومة لا قبل لنا بشراستها وتنظيمها من قبل ، فقد سدت الشوارع بمتاريس يصعب تجاوزها واضطرت قواتنا المتقدمة للتقهقر بعد إصابة الكومندان وعدة ضباط وجنود بجراح خطيرة . أما الثوار وقد زادهم هذا الانسحاب جسارة ، فقد بادروا بشن هجوم وانقضوا علينا بسرعة الصقر كعادتهم وبادر أكثرهم تهورا برفع الرايات فى مواقع متقدمة للغاية من الساحة ، بينما قامت زمرة لا تقل عنهم بسالة بالتنقل من بيت إلى بيت ، خارقين الحوائط التى تفصل بينهم حتى بلغوا المنزل الذى كان جنودنا يقومون على حراسته . وقد اضطروا إلى التنازل عنه بقوة السلاح ، وفقدوا فى هذا بعض الرجال . وحينما أرادوا تقليد حاملين الرايات والاقتراب منا أكثر ، أدركوا أن طلقاتنا لا تضيع فى الهواء . فقد قامت مدفعيتنا عدة مرات وبكفاءة عالية بتبديد جموعهم وصفوفهم بسرعة ، وبعد جهود خارقة تيقن من لم يسقط صريعا أن الأجدر ألا يواجهنا من المقدمة. فما كان منهم إلا أن تقدموا إلى الجهات الجانبية عن طريق منزل رينييه والحى القبطى لمداهمة مركز القيادة ، ففتحنا النيران من الجانبين لمنعهم ، مما أثناهم عن التقدم وأحبط من عزيمتهم بعض الشىء .

وقد هاجمونا فى اليوم التالى بنفس الطريقة ولكن نصيبهم من النجاح كان أقل . وقد اندهشنا بالفعل لمعاودتهم الهجوم فى اليوم الثالث بقطع من المدفعية التى استولينا عليها فى المطرية ، وغفلنا عنها وخلفناها وراءنا ، دون حتى أن نفسدها . وقد كاد سوء تقديرنا هذا أن يتسبب لنا فى عواقب وخيمة ، لولا وصول الجيش بكامل هيئته بقيادة الجنرال . وقد أزاح فى طريقه جيوش الوزير الأعظم وجعلها تفر إلى الصحراء ، وقام العرب بنهب عتاد العدو ، بينما استولينا على عدة قطع من المدفعية وكمية كبيرة من ملابس العسكر. وقبل هذا الانتصار الأخير، تعرض جزء من الجيش

خاصة سلاح الفرسان وأركان الحرب لخطر داهم على يد كريم على بعد عشرة فراسخ من القاهرة ، حتى كاد قائدنا أن يلقى مصرعه، فقد قام المماليك بتطويقه دون رغبة منهم فى تعريض حياته للخطر. وقد أسهمت براعته فى استخدام السيف فى حمايته حتى لحقت به فرقة التنين لتخليصه من هذا الوضع .

حينما وصلت جيوشنا تأهبنا للهجوم والدفاع على حد سواء على كافة الأصعدة . وقد تحصن الثوار بالمنازل وقطعوا الطريق بإقامة حفر عميقة ومتاريس منيعة بينما بدأنا فى تحصين الموقع ومركز القيادة بإقامة خنادق ومتاريس . وقد سد الجيش منافذ المدينة تماما ، حتى أصبح من العسير الدخول إليها أو خروج الأعداء منها . ولكن ميزة هذا الوضع أن العدو كان بإمكانه قصف المدينة ، الأمر الذى قام به عدة نوبات .

وقد طلب المماليك الدخول فى مفاوضات بعد أن أصابهم الفزع فى مواقعهم ولم تعد تحركاتهم سهلة . وقد أجيبوا إلى طلبهم. وبدأت المفاوضات فى العاشر من جيرمينال فى خيمة نصبت فى الساحة بحيث فصلت بين الأطراف المتناحرة . وقد تم إبرام اتفاقية بين النواب من المماليك وسكان القاهرة من جانب وبين الجنرال دوما والقائد العام من الجانب الآخر. بمقتضاها أجبر العدو على الجلاء عن المساحة فى ظرف ٤٨ ساعة وعلى التخلى لنا فى اليوم التالى عن مدفعيته وعدة مواقع هامة كضمان لكلمته .

وحينما أردنا فى اليوم التالى وفى الساعة المحددة الاستيلاء على المواقع ، طلب القائمون عليها إمهالهم بعض ساعات بزعم أنهم لم يتلقوا أية شروط من زعمائهم الذين ما كان منهم إلا أن اعتذروا عن إمعان جنودهم فى العصيان . هذه المناورة أظهرت لنا جليا أنهم ما أرادوا سوى كسب بعض الوقت للتحصين . وحتى لا نترك أنفسنا نهبًا لخداعهم ومكرهم فقد بادرنا نحن بالعدوان فى الثانى عشر من الشهر .

قمنا فى الثالث عشر من جيرميناال وفى الساعة الحادية عشرة مساءً بالهجوم على المنطقة الواقعة خلف حى الأقباط . كان إطلاق النار من جانب العدو مروعًا ومشؤومًا ، ولكن سرعان ما ضاعفنا من شجاعتنا حتى نشرنا الرعب والموت بين صفوف العدو وكسبنا بعض الأرض . وقد كان باستطاعتنا كسب المزيد لولا صدور أوامر عليا أوقفت مسيرتنا . ولأن بين النصر والهزيمة لا يوجد غالبا سوى خطوة واحدة ، فقد تعرضت قواتنا لهجوم يفوقها فى القوة فى اليوم التالى ، حتى اضطرت الى ترك جزء من مغانمها. وقد لقى العديد من جنودنا مصرعهم خلال هذه الهجمة ، كما أسر العديد من الرماة ، تم إعادتهم لنا مرة أخرى . (وهو أمر غير طبيعى بالنسبة لهذه الشعوب البربرية) .

أما مراد بك ، الذى طلب السلام - كما ذكرنا آنفا - فقد وصل إلى غرضه وعين واليا لأحد المناطق جزاء له . ورغبة منه فى تدعيم شيعته ، أرسل مبعوثين إلى المماليك وإبراهيم بك لجذبهم إليه . ولولا تصدى العثمانيين وقد كشفوا مقاصده لكان كسبهم لاريب ، ولو أنه نجح فى هذا لخدم قضيتنا كثيرا . وقد حدثت الشقة بين هذين القائدين منذ أن أبدى الوزير الأعظم مودة خاصة لإبراهيم بك ، واحتقاراً لمراد بك ، فوعد الأول بأفضل المواقع وأغفل الثانى تمامًا . وقد كان فى هذا الخلاف منفعة لنا لاستعادة القاهرة . ففى هذه الظروف قام رشيد المفوض الإمبراطورى والمتآمر الشهير بالتخطيط لكسب ثقة الفرنسيين حتى يكون آمنا عند خيانتهم . وحتى يمضى إلى غايته ، فقد تظاهر بالتفاوض بشأن بولاق التى أعلنت التمرد بدورها ، وقد أوهمنا أن غالبية سكان هذا الحى يمدون أيديهم لنا . . حتى اعتقدنا أن ما علينا سوى إصدار إعلان يتضمن قراراً بالعفو حتى نكسب الباقين . فما كان منا إلا أن أصدرنا بيانا بهذا المعنى وأرسلنا كتيبتى . ورحلنا تسبقنا الموسيقى وأغصان الزيتون فى أيدينا

وكأننا داخلون مدينة فرنسية منتصرون . وكم كان استنكارنا حينما بلغنا المكان وكدنا ندخله فعاجلتنا طلقات مدفعية مفاجئة مقدمة لنا التحية ! وعرفنا من هذه المدفعية أنها بالتأكيد ليست أصوات الموسيقى التى انتظرناها ، فما كان منا إلا أن قطعنا مسيرتنا الحماسية . وقد تقدم الجنرال دوما وخاطب الجماهير التى ردت عليه بأنها ستحذو حذو سكان العاصمة .

وعلى هذا ، عدنا إلى القاهرة لمشاركة الجيش مهامه ومصيره . وتابعنا الهجوم يوميًّا وتجددت المحاولات بلا توقف من الجانبين . فكنا أحيانا نقصف المدينة ، وأحيانا نستولى على بعض المنازل التى كنا نشعل فيها النيران على الفور . وكان العدو يفعل بالمثل فى الحى القبطى (وقد كان الحى الوحيد الذى كنا نحتله) حينما ينجح فى هذا .

الثامن من إبريل (١٨٠٠م)

فى الخامس والعشرين من جيرمينال عام ٨ ، قمنا بشن هجوم عنيف على عدة محاور فى حى بولاق المشؤوم المتكبر . فى البداية قاوم أهل هذا الحى بشراسة ، غير أننا بعد ساعات من القتال تمكنا من الدخول بالقوة وكم دفع غاليا هذا الحى البائس ثمن تمرده . فقد رأيت غالبية سكانه يسقطون صرعى إثر رشقهم بحرابنا ، وتعرض عدد كبير من منازلهم للحرق كما نهب كل شيء . وبعد هذه العملية القاسية الكئيبة كان سيشق على من شاهدوا هذا الحى التعرف عليه. ولكنها ويلات الحرب وقانونها !

فى الثامن والعشرين ، وبحلول الليل تم تفجير منزل رينييه وقد كان حصنا للأعداء ، وكم من المتمردين تواروا تحت أطلاله ، البعض سحقته الأنقاض بينما التهمت النيران البعض الآخر وراحت تتصاعد من جوفهم مخلفة رائحة غير محتملة .

قمنا بشن هجوم شامل وأطلقنا المدافع فى كافة الاتجاهات . كانت القنابل ترتفع عاليا فوق الساحة لتسقط على المبانى محدثة دويًا عنيفًا . وقد سيطرنا على عدة مواقع وأضرمنا بها النار ، وكان مشهداً مفزعًا بحق ! وكأننا فى الجحيم وقد سُعرت فى قلب هذه المدينة . أما من جلبوا لها هذه الويلات فقد طلبوا الاستسلام وقد أصابهم الفزع . . واقتصر ردنا على هذه الكلمات الرهيبة : «لا عفو ولا أمان» .

وقد عاودنا الرفض عدة مرات قبل أن نذعن لطلبهم . فقد فقدنا الكثير من رجالنا ، ولكن عدد من فقدهم العدو فاقنا بشكل قاطع . فطول هذا الحصار المشهود الذى امتد أكثر من شهر إضافة إلى خسائر المماليك والعثمانيين فى الرجال والعتاد وقلة بل ندرة مواد الإعاشة والانقسامات الداخلية وغضب الشعب كل هذا تكالب لإجبارهم على قبول الشروط التى أمليناها عليهم ، وقد ختمنا هذه العملية بتلاوة البيان الآتى :

من مركز القيادة بالقاهرة

الثانى من فلوريال عام ٨ الموافق ٢٢ ابريل (١٨٠٠م)

كليبر القائد العام إلى الجيش .

أيها الجنود :

لقد مضيت قدما فى المفاوضات والأعمال العسكرية لأجنبكم إهدار دمائكم ، ولعل أكبر عقبة ، كان علىّ تذليلها هى تأمين السكان ضد النهب والتخريب .

كان أكبر عائق أمامى هو إشاعة الطمأنينة فى نفوس السكان ، والتأكيد لهم أنهم لن يتعرضوا للسلب والتخريب . فقد كان ما حدث فى بولاق التى سمحت لكم بإشباع انتقامكم فيها حاضرا ببشاعته أمام أعينهم.

وراح كل واحد يفكر فى الأمر بطريقته ، واحد يقول إننا مهددون بعمليات إنزال قريبة وآخر يرد بأن الغرض من هذه الجلبة هو تغطية رحيل أو هروب كليبر .

بلغنا الرحمانية فى التاسع عشر من الشهر، حيث وجدنا قوات عديدة قد وصلت بالفعل . وبعد أن تأكد الجنرال بنفسه من وجود أسطول للأعداء وإن لم يعرف الغـرض الذى أتى من أجله قرر أن يستبـقينا ليـعود هو مع الأسف إلى القاهرة .

وبناء على أوامره ، اتخذنا مواقعنـا فى السلمية ، وهى قرية من قرى الدلتا واقـعة على الضـفة اليـمنى من مدينة رشيـد . ولكن أى أسى وغم شديد أصابنا حينمـا علمنا بعد وقت قصير بوفاة كليبر بعـد أن اغتيـل بيد آثمة .

ولو أن أبا عزيزاً علينا هو الذى فـقدناه ما كنا بكيناه بالمرارة والحـرقة التى بكينا بها هذا القـائد العزيز صديق الجنود . من لنا بخليـفة بمثل قدره يكن لنا القدر نفسه من المودة كهـذا القائد الكريم؟ أين نجده؟ وقد حمل لنا البيان التالى الإجابة عن هذا السؤال :

القيادة العامة بالقاهرة

السادس والعشرين من بريريال عام ٨ ، الموافق ١٥ يونيو (١٨٠٠م)

من الجنرال عبد الله مينو ، قائد فرقـة ، والقائد العام للجيش بالنيابة ، إلى الجيش :

أيها الجنود :

« سلبنا اعـتداء مروع القـائد الذى كنتم تكنون له المودة والاحـترام . هذا العدو غير الجدير سوى بالاحتـقار واستنكار العالم أجمع ، هذا العدو

الذى ما استطاع أن يقهـر الفرنسيين وهم تحت زعامة كليبـر الشجاع ، كان من الجبن بحيث أرسل قاتلا ليقـتفى أثره . و إننى أدين الوزير الأعظم أمام العـالم أجمع ، فـهو قـائد هذه الجيـوش التى دمـرتموها فى المطرية وعين شمس. فـبالتآمـر مع أغا الإنكشـاريين ، قام بوضع الخنجـر فى يد المدعو سليمان الحلبى ، الذى رحل عن غزة منذ ٣٢ يومًـا. لقد سلبنا قائد ستظل ذكراه عزيزة على كل فرنسى ، فعل هذا على يد أسوأ القتـلى .

أيها الجنود ، لقد نجح كليبر وهو يقودكم فى مسيرتكم فى تبديد هذه الهجمات البربرية التى قدمت من أوربًا وآسيا للهجوم على مصر . وبقيادته لقواتكم التى لا تقهر اسـتطاع كليبر استعادة مصر بأكـملها فى ظرف عشرة أيام . وقـد استطاع كليـبر إصـلاح أحوال الجـيش المالية حـتى إن جمـيع الرواتب المستحقة قد تم سدادها ، كما استتب السلام . وبإجراءات شديدة الحكمة ، استطاع كليبر إصلاح جانب كبير من مفاسد الإدارات الكبرى .

ولعل أكبر تحية إعزاز تؤدى لذكرى هذا القائد الشجاع هى فى الحفاظ على قوتكم وفخـاركم الذى ألقى الرعب فى قلوب أعدائكم فى كل مكان قادتـكم إليه أقـدامكم ، وفى الالتزام بهـذا النظام الذى يصنع الجـيوش . تذكروا دائما أنكم جمهـوريون وأن عليكم أن تكونوا دوما نموذجا للأخلاق الكريمة ومثالا يحتذى به فى طاعة زعمائكم ، كما كنتم دائما مثالا يحتذى به فى الشجاعة والجرأة فى المعارك .

أيها الجنود ، لقد حملتنى أقدمية رتبـتى بصورة مؤقتة لقيادة الجيش . وكل ما أسـتطيعه لكم الآن هو أن أتمسك بالجـمهورية بلا حـدود وبالحرية وبازدهار فرنسا .

سوف أصلى من أجل روح كليبر واستلـهم عبقرية بونابرت ، ومعكم سوف نعمل سويا لخير الجمهورية وصالحها .

وسأوالى إبلاغ الجيش بكافة تفاصيل المؤامرة الدنيئة التى أودت بحياة القائد، وسأعلمكم بالإجراءات التى سنتخذها للبحث عن القتلى وشركائهم ليلقوا جزاءهم .

عبدالله مينو

لم يكن ثمة حديث - مهما كانت بلاغته -.كفيل بمواساة الجيش فى خسارته الفادحة. لقد استبد به حزنه على كليبر حتى ما عاد يشغله سوى ذكراه . لقد تيقن الجيش من أن هذا القائد العظيم لم يكن يفكر إلا فى سعادة جنوده وعودتهم الى فرنسا ، حتى إنه استشعر الآن فداحة المأساة التى حلت به . ورغم الحكمة والبلاغة التى انطوى عليهما الخطاب السابق إلا أنه زاد من الإحباط العام ولم يبدده . فلقب «عبد الله» الذى حمله القائد الجديد لم يترك انطباعًا فى صالحه ولم يكن انتماؤه للجمهورية ليطفئ بداخلنا جذوة أفكارنا الدينية التى نهلنا تعاليمها من تربيتنا الأولى وعاداتنا القومية .

فهذا الرجل المرتد عن دينه - كما يقولون - الذى تخلى عن بلاده ليدخل فى شريعة محمد ويرتدى العمامة ، هل هو كفء لقيادتنا ؟ لقد ربط مصيره وعواطفه بامرأة من هذا البلد، فهل يفكر فى التخلى عن عائلته الجديدة ليعود من جديد إلى فرنسا حيث سيستهزأ به؟ وبدلا من التفاوض مع أعدائنا والاقتداء بكليبر ، ألم يفعل ما بوسعه لحملنا على البقاء فى مصر لنكون سنداً لقوته ومرافقيه فى منفاه الاختيارى ؟ كان أغلب حديثنا يدور عن هذا ، وهو إن لم يحمل توقعات حقيقية إلا أنه لم يكن خالياً تماماً مما يدعمه .

مراسم وداع كليبر

منذ أن ودع كليبر الدنيا وصوت المدفعية الحزين يدوى كل نصف ساعة ، فمنذ الساعات الأولى لليوم الثامن والعشرين من بريريال الموافق مراسم وداعه الأخيرة ورشقات المدفعية القادمة من القلعة تتردد من كافة الحصون ، وراحت أصداؤها تعلن عن اعتزام الجيش القيام بمراسم وداعه .

تحرك الموكب من مركز القيادة بساحة الأزبكية بعد إطلاق خمس طلقات مدفعية ، وعدة رشقات من البنادق ، واخترق المدينة بأكملها حتى وصل بجثمان الفقيد إلى مزرعة حصينة خاصة بإبراهيم بك. وقد تقدم هذا الموكب قوة من سلاح الفرسان، وخمس قطع مدفعية والفرقة ٢٢ مشاة الملقبة بالخفيفة ، والفيلق الأول من سلاح الفرسان بالجيش والمرشدين مترجلين والفرق الموسيقية للحامية بأكملها ، وقد راحت تعزف ألحانا تماثل فى حزنها هذا الاحتفال. أما جثمان الفقيد فكان فى تابوت من الرصاص محمولاً على مركبة جنائزية جميلة مكسوة ببساط مخملى أسود موشى بدموع نسجت من خيوط فضية، ومحاط بأسلحته التى جلبت له الانتصارات، وقد علا التابوت خوذة البطل وسيفه ، بينما راحت ستة من الخيول مكسوة بالسواد والرياش البيضاء تجر المركب ببطء .

تقدم حملة الرايات من المرشدين الموكب وخلفهم الجنرال مينو بلباس الحداد يحوطه الجنرالات ، وضباط الأركان يليهم مرافقو كليبر . يتبعهم الكومندان العام للموقع وقائد أركانه وإحدى الفرق وأعضاء المعهد والكوميسيرات وضباط الصحة والإداريين والمرشدين على صهوة خيولهم ، يتبعهم حسين كاشف مندوبًا عن مراد بك ويرفقته المماليك والأغاوات والقضاة والشيوخ والعلماء والرهبان والقساوسة اليونان والأقباط والكاثوليك

ومختلف الطوائف بالمدينة . وقوة من اللواء التاسع والثالث عشر والبحرية والكتيبة اليونانية والميليشيات القبطية وفرقة الهجانة وسلاح المشاة مترجلين وسلاح الفرسان والمماليك والسوريين على صهوة خيولهم وفى نهاية الموكب كان هناك مفرزة من سلاح الفرسان الفرنسى .

فى الساعة الحادية عشرة ، وصل الموكب إلى ساحة الحصن حيث شكلت القوات دوائر وراحت المدفعية تعلن عن المكان الذى سوف يرقد فيه جثمان قائدنا، الذى رُفِع بعض الوقت على قاعدة محاطة بشمعدانات من طراز قديم .

قام القائد العام للأركان بالترجل لتحية رفات رئيسه ، بينما تقدم جميع العسكريين من جميع الجيوش بمختلف رتبهم بتلقائية لوضع أكاليل الغار على قبره مبدين آلامهم الصادقة .

وقد تقدم السيد فورييه المندوب الفرنسى لدى الديوان ، والذى كلفه الجنرال مينو بإلقاء كلمة للتعبير عن الحزن العام ، واتخذ مكانا مرتفعا ، وحوله رئيس الأركان وكبار الضباط المدنيين والعسكريين بحيث يرى الجيش المتخذ هيئة كتيبة . وألقى بصوت مؤثر الخطاب التالى :

أيها الفرنسيون :

وسط هذا المشهد الجنائزى الذى يعد تعبيرا زائلا - وإن كان مخلصا - عن الألم العام ، أتيت أحدثكم عن اسم عزيز عليكم وضعه التاريخ فى سجله .

مضت أيام ثلاثة منذ أن بلغكم نبأ فقد كليبر القائد العام للجيش الفرنسى فى الشرق . هذا الرجل ، الذى طالما احترمه الموت وغفل عنه ،

والذى دوت أصداء انتصاراته العسكرية حتى بلغت شواطئ الرين ونهر الأردن والنيل ، سقط صريعا لاحول له ولا قوة بقبضة قاتل دنىء .

حينما تقع أعينكم على هذا المكان الذى أتت عليه النيران ، ووسط أنقاضه التى ستشهد طويلا على دمار خلّفته حرب مروعة ضرورية ، سوف تلمحون هذا البيت المنعزل الذى تصدى منه الفرنسيون لمدة يومين كاملين لجميع المحاولات التى قادتها عاصمة ثائرة ، أما نظرات المماليك والعثمانيين فسوف تتوقف شتتم أم أبيتم أمام هذا المكان المشؤوم الذى أودى فيه الخنجر بحياة القائد المنتصر بمستريخت وعين شمس . ستقولون : هنا مات قائدنا ، وصديقنا ، ولم يستطع صوته الذى تلاشى فجأة أن يدعونا لنجدته. وكم من الأذرع كانت ستهب للدفاع عنه . كم منا كان سيتوق لشرف إلقاء نفسه بين القاتل وبينه . اشهدوا معى أيها الفرسان البواسل ، يا من هرعتم لنجدته وقمتم فى كل لحظة بتشتيت كل هؤلاء الأعداء الذين أحاطوه من كل جانب ، هذه الحياة التى كان مدينا لشجاعتكم بها ، ها هو قد فقدها بسبب إفراط فى الثقة جعله يقصى حراسه ويضع سلاحه .

بعد أن طرد من مصر قوات يوسف باشا وزير الباب العالى ، صرع المتمردين والخونة وفر من بينهم من فر . حينئذ ، نبذ هذه الفظائع و إن أدت لانتصارات جيوش الشرق ، وأقسم أن يشرف بالعفو الاسم الفرنسى الذى خلده بالسلاح . وقد حافظ تماما على هذا الوعد . لم يدن أحدا ، ولم يحكم بالموت على أحد ، ولم يتعرض بالفعل للموت سوى هذا المتنصر الذى لقى حتفه وسط غنائمه . ولم يفلح إخلاص حراسه ولا شجاعته النبيلة الحديدية ولا الحماس المخلص لكل هؤلاء الجنود الذين أحبوه فى درء هذا المصير المحتوم عنه وتجنيبه هذه المنية التى وضعت نهاية

لحياة جميلة مشرفة ، ويالها من خاتمة لأعمال جليلة ومخاطر جمة ومآثر ساطعة .

في سوريا وقع اختيار قادة الجيش المنهزم على رجل أعماه تعصبه ليغتال القائد الفرنسي . وسرعان ما عبر الصحراء واقتفى خطوات ضحيته طيلة شهر كامل حتى سنحت له الفرصة المشؤومة ونفذ جريمته.

أيها المفاوضون ، يا من ليس لكم دين ، أيها الجبناء في كرمكم أنتم من اقترفتم هذا الجرم ، وسيظل لاحقا بكم مثل هزيمتكم ، لقد تخلى لكم الفرنسيون عن مواقعهم وفاءً بما عاهدوكم عليه . كنتم على أبواب العاصمة حينما رفض الإنجليز فتح البحر أمامكم. فلجأتم للفرنسيين وأبرمتم معاهدة مع حلفائكم الذين حنثوا بوعودهم. تركتم لهم الصحراء يحتمون بها ولكن الشرف والخطر والاستنكار أشعل الحماسة في قلوبنا وفي ظرف ثلاثة أيام ، تمكنا من تدمير وتشتيت جيوشكم . خسرتم ثلاثة مواقع وأكثر من ٦٠ قطعة مدفعية وأجبرتم على ترك جميع المدن والحصون من دمياط وحتى الصعيد .

وقد دعا الحذر الجنرال الفرنسي لمد حصار القاهرة ، هذه المدينة المشؤومة التي تركت دماء رجالها غير المسلحين تهدر على أرضها ، ورأيتم كيف انقض هذا الحشد من الجنود القادمين من قلب آسيا . فما كان منكم إلا أن عهدتم لأحد القتلى بأخذ ثأركم .

أيها المواطنون ، أي مكسب ينتظره أعداؤنا من هذا الجرم الكبير ؟ هل اعتقدوا أنهم بقتلهم هذا الجنرال المنتصر قد شتتوا جنوده الذين يدينون له بالطاعة ؟ وإن كان في يد دنيئة الكفاية لجعلنا نزرف كل هذه الدموع ، فهل بإمكانها أن تمنع تولى زعيم قدير قيادة الجيش الفرنسي ؟ بالطبع لا . وإن كانت الظروف الحالية تقتضي خصائص استثنائية ، وإذا كان حمل

عبء هذه العملية المشهودة يقتضى عقلية خاصة ليس عليها أى غبار وتفانى بلا حدود من أجل عزة ومجد الوطن ، فلا شك أيها المواطنون ، أنكم ستجدون كل هذه الخصال فى خليفته . لقد كان يحظى بتقدير بونابرت وكليبر ، وهاهو يأخذ مكانهم اليوم ، وبهذا سوف تتواصل آمال الفرنسيين كما سوف يتواصل يأس أعدائكم .

أيها الجيش الذى يجمع بين أسماء إيطاليا والرين ومصر ، لقد وضعكم القدر فى ظروف غير عادية ، وجعل أنظار العالم أجمع تتجه صوبكم ، كما أن الوطن يزهو بشجاعتكم الجسورة . وسيظل دائما معترفا لكم بالجميل لانتصاراتكم . ولا تنسوا أنكم الآن فى رعاية هذا الرجل العظيم الذى اختارته أقدار فرنسا ليصلح من مصير دولة زعزعتها المآسى التى ألمت به . فعبقريته لا تحدها البحار التى تفصلنا عن وطننا ، وهو مازال بينكم يملؤكم حماسا ويحثكم على الثقة فى رؤسائكم ، فبدونهم ليس للقيم ولا للفضائل القتالية التى أعطى لكم عليها المثل والبرهان من فائدة .

لنأمل أن تتوج جهود الفرنسيين خطوات حكومة مزدهرة . حينئذ ، أيها الجنود المبجلون سوف تنعمون بالمآثر المكرسة للمواطن الحق . وسوف تستعيدون ذكريات هذه البلاد البعيدة التى أخضعتموها مرتين . وتلك الجيوش التى ما دمرتموها إلا حينما قام نابليون بجرأته المعهودة باقتفاء خطواتكم حتى سوريا ، و هؤلاء الذين قام كليبر - الذى لا يقهر بشجاعته وإقدامه - بتشتيت أمرهم فى قلب مصر. أية ذكريات مجيدة ستحملونها معكم لتقصّوها على ذويكم ! علها تمنحكم سعادة تخفف عنكم وطأة أحزانكم !

لا شك أن اسم كليبر العزيز سوف يتردد دائما فى أحاديثكم ، ويقينا أنكم لن تتفوهوا به دون تأثر . . وسوف تقولون : «كان رفيق الجنود ، حامى دمائهم ومخفف آلامهم» .

صحيح أنه كان يناقش كل يوم آلام الجيش ولم يكن يفكر سوى فى الوسائل الكفيلة بوضع نهاية لها . لكم أقلقه تأخر رواتبكم العسكرية ، الأمر الذى كان لا مفر منه فى ذلك الحين ، وبغض النظر عن الضرائب الاستثنائية التى فرضها فكانت أقصى أوامر اضطر لإصدارها على الإطلاق ، فإنه لم يألُ جهدا فى سبيل تنظيم الشؤون المالية ، وتعرفون أنه نجح فى مساعيه . فقد عهد بالإدارة لأيد نظيفة كانت محل تقدير عام . وكان يفكر فى إحلال نظام شامل فى كافة قطاعات الحكومة . غير أن المنية وافته بصورة مفاجئة لتوقف سير هذا المشروع النافع . لقد خلف وراءه ذكرى عزيزة على جميع الفضلاء من الناس . ما من أحد أحب واستحق أن يُحَب أكثر منه . كان تعلقه بأصدقائه القدامى يزداد يوما عن يوم لأن خصالهم تشبه خصاله . ولابد أنهم سيجدون بعض السلوى والعزاء فى تقدير الجيش والإجماع العام على الحسرة على الفقيدة . وحدوا إذًا ولاءكم ، فأنتم لا تشكلون سوى عائلة قتالية واحدة دعتها بلادكم للدفاع عنها . أيها الفرنسيون ، ثمة مصير مشترك يجمع بينكم على هذه الأرض الأجنبية ، ولنذكر كذلك فى هذا اليوم بكل الحب والتقدير هؤلاء الشجعان ، فى معسكرات سوريا، وأبى قير و القبة الذين وجهوا أفكارهم ونظراتهم الأخيرة صوب الوطن فرنسا .

وأنت يا كافاريللى وقد جمعتك صداقة خاصة بكليبر، لك كل التقدير فى هذا اليوم ، فأنت نموذج للتضحية والفضيلة ، بتفانيك فى سبيل الآخرين ، وشدة عزمك على ذاتك .

أما أنت يا كليبر ، يا موضع تبجيلنا وحزننا فى هذا الاحتفال الذى لن تحضر بعده ، فلترقد روحك فى سلام أيها الشهم العزيز وسط آثار المجد والفن ، لتسكن هذه الأرض الشهيرة على مر العصور . ولينضم

اسمك لقائمة تضم أسماء جيرمانيكوس وتيتوس وبومبيه والعديد من القادة والحكماء ممن تَركوا مثلك على هذه الأرض ذكريات لن تنمحى » .

تبع هذه اللحظات خشوع مهيب ، خلفته الدموع الحارة التى ذرفت بفعل كلمات هذا المتحدث . ثم تتابعت القوات بعد ذلك الواحدة تلو الأخرى لتقف أمام التابوت وتطلق للمرة الثالثة رشقات من البنادق ، بينما راحت المدفعيات فى مختلف الأنحاء فى القلعة والحصون المواقع المنيعة تدوى في أنحاء بولاق[1] .

من يصدق أنه على الرغم من هذه الدلائل القاطعة على موت كليبر كان ثمة أصحاب تفكير غريب أو مغرض يروجون أن هذه المراسم هى مجرد خدعة ، وأن الجنرال رحل إلى فرنسا ، كما خطط فى السابق وأن تابوته الفارغ ما حُمِل فى هذا الموكب المهيب إلا لتغطية فراره . ولكن شهود العيان الذين شهدوا مصرعه ، والجزاء الذى لقيه قاتله وأعوانه سرعان ما بدد هذه الأفكار العبثية .

لقد اعترف القاتل بجريمته ، بل عدها مبعثا للفخار ولكنه لم ينعم بهذا الفخر طويلا ، إذ حكم عليه بقطع يده وبرفعه على خازوق كعادة البلاد . وقد تم إقصاء ثلاثة أعضاء من ديوان القاهرة لتكتمهم مخطط سليمان على الرغم من علمهم به ، بعد أن تم إقناعهم بهذا.

(١) تم نقل رفات كليبر إلى قصر إيف وقد اصدر الملك عام (١٨١٤م) أوامره بنقل رفاته إلى مارسيليا حيث لقى مراسم وداع تليق به كقائد عام . وفى هذا العام (١٨١٨م) وبناء على طلب الفريق دوما ، رئيس أركان كليبر السابق ، وبناء على تقرير رفعه وزير الحرب ، قرر سمو الملك نقله إلى ستراسبورج حيث ولد ، ليتم دفنه وسط مراسم تليق بذكرى هذا القائد الشهير وبخصاله النبيلة والخدمات الجليلة التى قدمها للوطن (عن صحيفة باريس ، الخميس ١٦ يوليو (١٨١٨م) - العدد رقم ١٩٧) .

حكم الجنرال مينو

ها قد وصلنا الآن لفترة حكم الجنرال مينو ، وسوف نعطى فكرة عنها من خلال بعض الأوراق الرسمية بدلا ترك هذا لخلفياتنا الخاصة . ولعل الوثيقة التالية تعطى فكرة للقارئ عن دخيلة قائدنا الجديد ووجهة نظره .

من مركز القيادة بالقاهرة

الثالث من ميسيدور عام ٨ الموافق ٢٢ يونيو ١٨٠٠

من مينو القائد العام للجنرال فردييه

أيها الجنرال ، لست أطمح سوى أن أكون جديراً بتقدير وثقة القوات ، وخدمة الجمهورية بكل طاقتى . سوف أكرس كل لحظة من اللحظات وكل يوم من أيامى لرفعة الجيش ورفاهيته وأية لحظة تمضى دون أن أكرسها لعمل يتم فى سبيله ستكون لحظات ضائعة .

بما أن العثمانيين البرابرة لا يملكون سلاح الفرنسيين ، أى الشجاعة ، فقد لجأوا لسلاح الجبناء ، الخنجر والسم . كما تعلمون ، لقد قام من لا دين لهم ولا ضمير ضد قانون البشر باحتجاز المفاوض ، رئيس اللواء بودو ولا يكفينى فيه مائة وخمسون سجينا .

لقد أبلغت يافا بهذا ، كما قلته للإنجليز الذين تنقصهم اللياقة بنفس القدر الذى تنقص به حلفاءهم. أما بالنسبة لموقفنا من مصر فعلى حكومة الجمهورية الفرنسية أن تقود مسيرتنا . لقد أصبح لمصر وزنها اليوم وقدره فى ميزان السياسة الأوروبية حتى أنه ليس لأحد سوى حكومتنا أن يقود خطانا ويحدد مسلكنا. وأتعشم أن أنباءً ستأتينا منها عما قريب .

أيها المواطن الجنرال ، كل ما أطلبه هو اليقظة والنشاط والمداومة على المراسلة سواء معى أو مع المدن المجاورة ، وكل شىء سيسير بصورة جيدة . سوف أعلم الجيش دائما من خلال الأوامر اليومية بالأنباء التى قد تهمه . وسأرسل إليه بالصحف .

برجاء تكليف أحد بقراءة هذا الخطاب على القوات التى تحت قيادتكم .

مينو

بدا هذا الخطاب وكأنه يعدنا للرضوخ. ولم تكن ميول الجنرال مينو مجهولة للجميع لتدهشنا نغمة هذا الخطاب . فنظرًا لتأييده البقاء فى مصر فقد عوّل على الأوامر التى ينتظرها من الحكومة الفرنسية لمد فترة بقائه وبقائنا فى هذه الأراضى الأجنبية . وأظهر نواياه بصورة أوضح فى الوثيقة التالية :

مجلس القيادة بالقاهرة فى الثامن من ميسيدور عام ٨ ، الموافق ٢٧ يونيو (١٨٠٠م)

القائد العام مينو إلى الجيش الفرنسى بالشرق

أيها الجنرالات والضباط وضباط الصف والجنود ، لابد أن تعلموا الحقيقة كاملة فهاكم إياها :

حينما تناهى لعلم الحكومة الفرنسية عام ٧ أن أعداء الجمهورية الفرنسية عاقدو العزم على الاستيلاء على مالطا ومصر ، قررت تفويت هذه الفرصة عليهم . اقتضت المصلحة العامة هذا نظرا لأهمية تجارة المشرق التى تبلغ أرباحها سنويا قرابة الخمسين مليونًا . لذا صدرت أوامر بالقيام بحملة على مالطا ومصر . وتكفل بونابرت بهذه المهمة . وتم ترتيب

الأمـور بحيث يتـوجـه سفـيـر فرنسي فى نفس وقـت رحيل الجـيش إلى قسطـنطينية ولم يدر السلطان قط بمـآرب الحكومة . وقـد استغل أعـداؤنا الروس والإنجليز بمهـارة هذه الظروف ، فأجـبروه على الدخول مـعهم فى تحالف يصـارع منذ سنوات ثورتنا وحريـتنا . وقد توجهت جـيوش تركـية بقيادة الإنجليز حـتى بلغت أبا قير ودمياط ، فاسـتطعتـم ردها من حيـث أتت . فما كـان منهم إلا أن أرسلوا جيشًا آخر بقيـادة الوزير الأعظم نفسه إلى سوريا، حيث تمت بعـض المفاوضات . وقد أبرمت اتفاقـية لن اسمح لنفسى بإبداء أى تعليق عليها . وتعلمون كـيف تم نقضها وما انطوى عليه الأمـر من خديعـة . علمـتم كيف أرادوا لـكم أن تكونوا أسرى حـرب ، وكأنكم خسرتم معركتين أو ثلاثًا ، ولم تكونوا دوما المنتصرين !

تقدمت الجيوش العثمانية وتعرضت لهجومكم فى المطرية وعين شمس فشتتوا جمعهم فوراً . ثم عادت جماعة منهم وانقضت على القاهرة وحتى اضطررتم لمحـاصرتهـا . ثم عـادوا للتفـاوض بعـد شهـر من الحصـار . وتعلمون أنه حدث اعتـداء سافر راح ضحيته زعـيم كلنا نبجل ذكراه . لم يستطع أحد قهـركم فى المعارك فلجأ أعداؤنا إلى الخنجر مـعتقدين أن هذا الحـادث المشؤوم سـيكون من شـأنه نـشر الفـوضى فى صـفوف الجـيش الفرنسـى . لـم يعرفوا أن اغـتيـال كليبـر من شأنه مضـاعفـة شجـاعتكم وجرأتكم وحذركم . ولأن تجمع الشرق كله لثأرتم من دمه لجنرالكم .

ولكن من يوجـهكم اليوم ؟ لا أحـد يجوز له هذا الحق إلا الحكـومة الفرنـسية . فليـس لأحد سواها أن يصـدق أو يلغى كل ما تم إبـرامه من اتفاقيـات ، أو إضافة أية اتفاقية تبـرم مستقبلا بين الجـيش الفرنسى وقوى العدو .

لقد قلت إن الجميع ، نعم الجميع (وأنا واثق من أن ليس ثمة استثناء) من لا يرضيهم إلا سماع صوت الشرف والارتباط بالجمهورية والصالح القومى ، سيشعرون أنه ليس من سبيل آخر ولا أية طرق شرعية ومشرفة لإبرام أية معاهدة مع الأعداء سوى هذه الطريقة . لو أننى رجحت كفة مصالحى الشخصية وغفلت للحظة عن كونى جمهوريًا أو استطعت إيثار كل ما هو شخصى على الازدهار العام ، لما ترددت مثلكم ولو للحظة فى الرغبة للعودة إلى بلادنا .

ولكن لا ، أيها الجمهوريون ، لا أنا ولا أنتم فكرنا على هذا النحو لأن مصلحة الجمهورية هى وحدها التى تقودنا . وإن استدعى الأمر ، فسوف نحارب ونكسب . وإن أرادوا التفاوض فسوف نصغى للمقترحات التى ستعرض علينا . ولكن لن يتم تنفيذ أية معاهدة إلا بعد أن تصدق عليها الحكومة .

تعرفون جميعا بونابرت الذى طالما قادكم إلى النصر ، بصفته قنصلاً أول ، فإنه وحده الذى يستطيع قيادتنا وإجلاء مسيرتنا . سيتم إعلامه بكل شىء ، ليعلمنا بالرغبة القومية .

هذا هو حديثى إليكم ، لا ولم أنطق إلا الصدق ولا شىء غيره . سوف أقتدى ببونابرت وكليبر ، وأعمل على كسب ثقتكم واحترامكم حتى استحقها . لن أضيع لحظة دون الاهتمام بأمركم ، ودون البحث عما هو أجدى لكم . كان كليبر قد شرع فى إصلاح الأمور المالية ، وسوف أعمل على إتمام ما بدأه .

سوف يتم من الآن صرف رواتبكم اليومية . كما سيتم تسديد الديون المستحقة . وسأعمل على القضاء على جميع التجاوزات . ولكن تذكروا أن الشر لا يستغرق سوى لحظة بينما يتطلب إصلاح ما أفسده وقتا كبيراً .

كل ما أطلبه من الجيش هو الطاعة الـكاملة لجميع رؤسائكم أيا كانت رتبهم ، والنظام والدقة والأخـلاق . هذا ما يحق لى مطالبتكم به . وهذا ما سوف أذكـركم دوما به . وفى كل الأحوال ، نحن جمـهوريون نعرف فضائل أن نكون هكذا..

ذات يوم ، حينما نعـود إلى وطننا سوف نفخر جميعـا بمشاركتنا فى حملة أصبح لها اليوم شأن عظيم ووزن كبير فى ميزان السياسة العـالمية .

عبدالله مينو

وعلى الرغم من أن فكرة البقـاء فى مصر لأجل غير مـسمى لم تكن لتروق لنا ، لأن هذا معناه أن نتخلى ربما للأبد عن المناخ الذى ولدنا فيه ، إلا أن مسألة تقرير الحكومة الفرنسيـة لما فيه صالحنا سواء بالإبقاء على هذا الغزو أو بسحب جيوشها لتستفيد منها فى مكان آخر أسهمت فى التخفيف إلى حد ما من المرارة التى كـنا نشعر بها ، وجعلتنا نتـهيأ للقيـام بالتزاماتنا بشجاعة . ورحنا نقول : «إن أراد إقـامة مستعمرة هنا ، وتدعيـمها ، فما من شك أنه سيمـدنا بالرجال والأموال ، وسيكون فى هذا مـصلحة لنا . وإن لم يشأ ، فسـوف يجد فى حكمته وقوته سبل انتـزاع بقايا جيش يضم بين جنباته صفوة المحاربين الفرنسيين» .

ولكن مع الأسـف ! لم يفـكر الجنرال مـينو فى هذا ولا ذاك ، بل تركنا نعتمد على مواردنا الخاصة . وإذا كان ربع هذا الجيش هو الذى تمكن من العودة الى بلاده فالفضل فى هذا يرجع لمزيج من الظروف السعيدة أكثر مما يرجع لرعاية أو عناية خاصة أولتها لنا الحكومة .

فبـعد أن أجلى لنا القـائد العام الموقف بهذه البـيانات ، بدأ عـملياته باستـدعائنا إلى القاهرة . فـرحلنا عن الصالحـية فى الثانى والعـشرين من

ميسيدور الموافق ١١ يوليو ، حتى بلغنا طنطا فى الثالث والعشرين منه وهى مدينة صغيـرة تقع على الدلتا حيث دفعنا الفضول لزيارة قبـر حمى محمد ونحن فى طريقنا ، ليس بوازع دينى بالطبع كمسلمين .

يحظى هذا القبر بشهرة واسعة فى هذه البلده ، وهو واحد من أجمل آثارها. وهو قائم فى مسجد شديد الاتساع والثراء ، فأبوابه مكسوة برقائق من الفضة كما زين من الداخل بمصـابيح عديدة مصنوعة من ذات المعدن . ويعد هذا القبر فى مقام قبـر النبى ذاته، فالمسلمون غير القادرين على الحج إلى مكة يحجون إلـى طنطا كما يحج الأسـبان ممن لا يستطيعون الذهاب الى روما الى القديس جـاك دى كومبوستال . ولابد أن يزور أتبـاع محمد الصالحين أيا من هذه الأماكن ولو مرة واحدة فى حياتهم ، إن أرادوا مرتبة عالية فى جنات النعيم .

بلغنا القاهرة فى السادس والعشرين من مـيسيدور الموافق ١٥ يوليو . وبقينا فى هذه الحـمية حـتى الثامن من ميـسيدور الموافق ٢٧ يوليـو حيث انتقلت الكتيبة ٧٥ إلى الجيزة .

فى مدح مينو

على الرغم من تحـفظاتنا فى البداية على الجـنرال مينو بسـبب تغيـيره اسمـه وحبـه لمصر ، إلا أننا لم نلبث أن اكـتشـفنا خصـاله وأعجبنـا بها وبعقليـته المنظمة الاقـتصادية وحبـه للعسكريين ومعـرفته الواسعـة بشؤون الإدارة وأخلاقه الكريمة . فبمعرفته التامة لدخيلة الإنسان ، حاول أن يقودنا بلغة الإقناع وليس بلغة الأوامر التى تتـسم بالقسوة والحدة . ولكن هذا لا يعنى أنه لم يكن حازما حـينما كانت الظروف تقتضى هذا كـما سوف نرى بعد حين .

لقـد دأب على تقـديم أية مسـاعـدة تقع فى نطاق مـسؤوليـاته لأقل جنـدى ، فكان يفتح لهم دائما بابه ويلقاهم بكل بشاشة . لقد كان واضحا تماما من أسلوب تعامله الراقى أنه تلقى تربية متميزة وأنه ينتمى لطبقة راقية من طبقـات المجتـمع . وقد تمكن من ردع شـراهة مصاصى الـدماء الذين اغتنوا على حسـابنا . كما استطاع بعـزيمته وفى وقت قصير اقـتلاع جذور بعض التجاوزات غير المقبولة . لقد أحاط نفسه بكل من يبدون له النصيحة والمشورة وينيرون له الطريق ليتمكن من الاضطلاع بمهمة الإدارة على أحسن ما يكون .

وقد أسس فى الخامس عشـر من فروكتيدور عام ٨ الموافق ٢ سبـتمبر (١٨٠٠م) ما سمى بـ «مجلس مصر الخاص» وهو مكون من ضباط سابقين برتب عليا . اخـتص هذا المجلس جمـيع شؤون الإدارة الداخلية والتـجارة والزراعة والماليـة والعلوم والفنون إلى غـير هذا ، باستـثناء شئـون الحرب والسياسة الخارجية . وقد احـتفظ القائد بحقه فى رفض أو قبول أو تعديل أى من قرارات المجلس . وعلى الرغم من المتاعب التى سببـها له من جراء تنافس أو تعارض وجـهات نظر بعض من أعـضائه ، إلا أنه حظى بتـقدير غالبية العسكريين . وقد استطاع أن يخرس بحزمه كافة الألسن التى أرادت الوقيعة ، ولم يتورع - كما سوف نرى- عن الإعلان عن أية انحرافات .

مركز الـقيادة ١٨ فروكتـيدور عام ٨ الموافق الخامـس من سبتمـبر عام (١٨٠٠م)

من مينو القائد العام للجيش

أيها الجنود :

عاهدتكم على مكاشـفتكم دوما بالحقيـقة . و ها أنا أوفى بوعدى . إننى مسـتاء من العديد منكم ، فـقد تعالت الأصـوات تكشف عن مظالم

خطيـرة ، كمـا ترتكب بعض المخـالفات والتـجاوزات . إذ يســمح بعض الجنود لأنفـسهم بمعاملـة السكان بغلظة وفظاظة . ما هذا ! كـيف تكونون جمهـوريين ولا تعرفون معنى الكرم ! كـيف تكونون فرنسيين وتتـصرفون بصورة تفـتقر تماما للتـحضر ! كم أود أن أعـتقد أن التجـاوزات التى يترك البعض منكم لنفسه الـعنان كى يرتكبها ما سببتـها لكم إلا حالة من النشوة والسكر . ولكنّ السكّير مجرد شخص مهتاج يَهذى ويترك نفسه نهبا لجميع التجاوزات ، بل بإمكَانه ارتكاب أبشع الجـرائم. ويحكم ! أتريدون التشبه بهؤلاء البرابـرة الذين أحلتموهم رمادا فى القبـة والمطـرية !

أيها الجنود :

ما فقد الكسـندر الأكبر الذى غزا بدوره مصر سمـعته فى نظر أغلب المفكرين على الرغم من شـخصيـته الاستثـنائية إلا بسبب التـجاوزات التى أطلق لنفســه العنان لها فى غـمرة سكره وانتـشائه، وقد كـان هذا الغازى المنتصر الشهـير كفيلا بألا يكون ســوى آفة من آفـات الجنس البشرى ، لو لم يقم بأعمال جليلة للتكفير بها عن الجرائم التى اقترفها.

أيها الجنود ، فلتتعلموا كيف تكونون كرماء مع المصريين ولكن ما هذا الذى أقوله لكم ؟ لقـد أصبح المصريون اليوم فرنسـيين ، إنهم إخوانكم . تعلموا احـترام الشيبـة ، تعلموا احتـرام النساء، تعلموا العدل. أى مـجد ستكسبونه بالإساءة لرجل يرتعد لمجرد مرآكم، أو حينما تخطفون أو تهينون امرأته . فلتعـاملوه مثلما تريدون منه أن يعاملكم إذا تـبادلتم المواقع . أيها الجنرالات ورؤساء الـوحدات والضبـاط من جمـيع الرتب ، فلتعـيدوا هذ الحديث دوما على مـسامع جنودكم . قولوا لهم إننى حينـما أضطر للجوء للوسائل الصارمة فهذا يكدرنى أكثر مما يكدر من يلقون عقابى . قولوا لهم إننى حينمـا أقضى الأيام والليالى لتوفـير بعض الرفاهية لهم ، فـمن حقى

عليهم بل من حقهم على أنفسهم أن يتصرفوا كجمهوريين كرماء بحق .

لقد بلغتنى أيضا شكاوى عن تجاوزات اقترفت فى الحمامات العامة، فهناك من يريدون اقتياد نساء للاستحمام معهم . إن هذا الجرم يعاقب عليه القانون فى جميع البلدان المتحضرة. فهو مدمر للعادات والتقاليد العامة ، ولا محل له فى المجتمع . وعلى هذا فإننى آمر جميع الجنرالات والكومندانات والقادة العسكريين أيا كانوا أن يردعوا ويعاقبوا بشدة جميع الجرائم التى أوردتها أعلاه .

مينو

لقد وعدنا الجنرال بإبلاغنا كافة الأنباء التى ترد من فرنسا . الوثيقة التالية تثبت إلى أى حد كان يحب الوفاء بكلمته .

مركز القيادة بالقاهرة

مينو القائد العام للجيش :

علمت لتوى بأن سفينة قادمة من فرنسا قد دخلت ميناء الإسكندرية . إن الجيوش الفرنسية جيوش منتصرة ، فقد جعلتنا معركة لم يشهد التاريخ مثلها سادة إيطاليا . تم هذا تحت قيادة بونابرت ذاته ، وقد شهدوا فى الرين نفس النجاح، وفى فانديه قام السكان أنفسهم الذين ثاروا ذات يوم برد الإنجليز حينما حاولوا النزول إلى البلاد . أما الحكومة الداخلية فهى محل احترام وطاعة . لقد استعدنا الثقة على كافة الأصعدة حتى غدت أحوالنا المالية على أحسن ما يكون . وبمجرد أن تأتينى التفاصيل سوف أحيط الجيش بها علما .

مينو

علمنا من خلال تفاصيل معركة مارنجو أن جيوشنا تُوجت بنصر جديد فى إيطاليا، وأن تنازل النمساويين عن عدة مواقع حصينة جعلنا نسيطر من جديد على بلد فقدناه بالعجز أو الخيانة . كان لوقع هذه الأنباء أبلغ الأثر فى نفوس جيش مصر الذى اشترك معظمه فى غزو إيطاليا الجميلة ولاقى ما لاقاه من آلام وهموم فى سبيل هذا ، فالجدير بالملاحظة أن الجندى العادى يفرح بانتصاراته فرحا يفوق ما يشعر به رؤساء الحكومات . ولكن سعادتنا كانت ستكون أصفى وأكثر اكتمالا لو لم يصل إلينا نبأ مصرع الجنرال ديزيه الذى كان قد رحل منذ برهة قليلة ، وهو من أحب الناس إلينا وكان محل تقديرنا العميق .

فى الاول من فانديميير عام ٩ الموافق الثالث والعشرين من سبتمبر (١٨٠٠م) دفع لنا الجنرال مينو كل مستحقاتنا المتأخرة وأعاد رواتبنا وكفلها لنا مستقبلا . وقد استطاع الوصول إلى هذا الحل السعيد بحكمته الإدارية وبوسائل تهدف كلها لرفاهية الجيش دون الإضرار بمصالح السكان ولا إرهاقهم .

ما عاد أمام ألد أعدائه ذاتهم إلا أن يمتدحوا مواهبه الإدارية والرعاية الدائمة التى يوليها لتحسين مصير العسكريين .

ولو أن العناية الإلهية رتبت لكى يكون لنا مستعمرة دائمة فى مصر فلا أحد كفيل بازدهارها وبتدعيمها مثله . ولكن يبدو أن هذا القطر البائس الذى نعم يومًا بالثروة والعلم قد حُكِم عليه طويلا بالتوحش والبربرية والبؤس وسوء الطالع .

فى الخامس عشر من فانديمير الموافق السابع من أكتوبر (١٨٠٠م) ، تحركت الكتيبة الثانية إلى الجيزة ولحقت بقوة من اللواء فى الجيزة . وفى الثامن عشر منه أبحرت من بولاق إلى الإسكندرية حيث بلغتها فى الثالث

والعشـرين من نفس الشهر . لم أعـتقد فى هذا الحين أنـنى تركت القاهرة إلى الأبد وكـذلك الأهرامـات وكل الأشـيـاء الجـذابة فى مـصـر . لم أستطع أن أودعهم إلا عن بعد ولم يبق لى منهم إلا الذكريات .

لم نعرف الأنباء التالية إلا فى الإسكندرية .

مركز القيادة بالقاهرة

الخامس عشر من برومبير عام ٩ السادس من نوفمبر (١٨٠٠م)

مينو القائد العام إلى الجيش :

يحيطكم القائد العام علمًا بأن السفينـة الحـربية سان فيليبو ، وقد أبحـرت من تولون فى الخـامس عـشـر من فانـدميـيـر دخلت إلى مـيناء الإسكندرية فى التاسع من برومبير حاملة مـعها برقيات من الحكومة . هذه رسالة موجهة من القنصل الأول إلى موظفى الأقسام .

(هذا الخطاب الذى لم نضمنه كـتابنا تناول مفاوضات لونيـفيل وقرار إمبراطور ألمانيـا بالتفاوض بصورة منفـصلة إن لم توافق إنجلترا على هذا ، كمـا أورد استعدادات الحكومـة الفرنسيـة لمساندة مصـالح الوطن بكل قوة وعزيمة) .

ثم نصل الى ما يخصنا بشكل مباشر .

إليكم خطاب الكومندان كـارنو وزير الحرب للجنرال عبـد الله مينو، القائد العام لجيش الشرق بتاريخ ٢٣ فروكتـيدور عام ٨ (الموافق ١٠ سبتمبر ١٨٠٠م) .

«اطلعت الحكومـة بكل الاهتمـام على جمـيع التفاصـيل الواردة فى برقـيتكم ، وهى إذ تثق فى قـدرتكم وحـرصكم الشديد على هذه الحـملة

الهامة وعلى ازدهارها ، تصدق على استمرار قيادتكم لهذا الجيش الشجاع الذى قادها المرة تلو الأخرى ودافع عنهـا بكل الجسارة . وإننى إذ أرفق خطاب اعتمادكم وكذلك خطابات اعتماد جميع الضباط الذين وافق الجنرال كليبر على ترقيتهم نظرا لخدماتهم الجليلة» .

لقد بادر القنصل الأول بالتصديق على هذه المناصب اعترافا بالرضا العميق الذى تكنه الجمهورية جمعاء لجيش الشرق وزعمائه الكرام لدأبهم وعملهم ومجدهم . وربما لن يمضى وقت طويل حتى يجازوا بأكثر من هذا ، حينما يرون الإنجليز الناكثين للعهود وقد أجبرتهم شجاعة هؤلاء البواسل التى لا تلين ولا تقهر على الارتعاد خوفا على أنفسهم بعد أن واتتهم يوما الوقاحة أن يعرضوا عليكم العار والدمار ، وسوف ينصاعون للشروط الكريمة المعتدلة التى سوف تعرضها فرنسا المنتصرة على أوربّا من أجل السلام. وسوف تعجلون أيها المواطن الجنرال من هذه اللحظة التى نتوق لها بسيركم على خطى سابقيكم ، وبصلابتكم وحزمكم لن تألو جهدا فى سبيل تدعيم الأسس التى ترسخت للحفاظ على مصر وازدهارها لحين يأتى سلام عام ليحدد بشكل قاطع مصير هذه الحملة المشهودة الغالية . أعلم أن الحكومة لن تهمل أيّا من الشؤون التى تهم جيش الشرق. فهذا محل رعايتنا واهتمامنا الدائم» .

كارنو

يا جيوش الشرق ، رأيتم أى اهتمام توليه لكم الحكومة ، ومدى أهمية مصر فى الميزان السياسى ، ومدى إعجاب أوربّا بكم وبنجاحكم فكل هذا محل عرفان قومى .

إننى أعلم القنصل الأول بأنه يستطيع أن يثق فى تفانينا وإخلاصنا المطلق وفى حزمى الذى لا يلين .

أيها الجنود ، أكرر على مسامعكم أننى لن أكف لحظة عن الاهتمام بشؤونكم وبكل ما من شأنه تحسين ظروفكم. ولكننى أنتظر فى المقابل ثقتكم التامة وطاعتكم و ولاءكم الكامل لى .

لتتذكروا أن علىّ دائما التوفيق بين مصالح الجمهورية بفرنسا والجيش والشعب المصرى التى عهد بها إلى . ولتتذكروا أنه من أجل الوصول إلى هذه الغاية فلابد أن آخذ من مصر جميع الموارد المالية التى يمكن أن تمدنى بها . إننى أعمل لخير سكانها ، ولابد أن أكتسب ثقتهم بالمعاملة الحسنة ، ولابد أن يشعروا بالفارق بين حكومتهم السابقة وحكومة الجمهورية الفرنسية. باختصار ، لابد أن يحكم الحزم والإنسانية والأخلاق والنزاهة جميع تصرفاتى . وسوف أعمل على أن أكون القدوة ولن أحتاج فى هذا إلا للاقتداء بخطوات بونابرت .

مينو

لقد جعلتنا أنباء الانتصارات التى تحققها جيوشنا فى أوربّا نتفاءل بانتصار الجمهورية ونتنبأ به ، وكانت فرحة جيشنا بها لا توصف. ولكن هذه السعادة تأثرت تأثرا بالغا بنبأ الاستيلاء على مالطا الذى وصلنا بعد بضعة أيام . وبقدر ما أعطتنا الأنباء الأولى الأمل ، بقدر ما جعلتنا الأنباء التالية نخشى استحالة عودتنا إلى وطننا. ورحنا نقول لابد أن الإنجليز يختالون زهوا الآن بهذا الانتصار الجديد ، وإنهم لن يرغبوا فى عقد أية معاهدة . كان هذا الإحساس عامًا . ولكن بعد إعادة التفكير فى الأمر بدأ يحدونا أمل مبهم ، يراود القلوب البائسة فيجعلها تنتظر بقدر أكبر من الشجاعة مستقبل غير مضمون. لم تبد لنا مسألة إبرام اتفاقية سلام شامل مشكلة عسيرة الحل، وكان هذا ما يعطينا الأمل. صحيح أن المعارك استؤنفت ، ولكن الجنرال مورو كان قد استطاع إحراز انتصار مشهود فى

الرين ، حيث استطاع أسر (: :)[1] رجلا . والاستيلاء على ٨٠ قطعة مدفعية و ٢٠٠ صندوق من الذخيرة . وعلى صعيد آخر ، دخل جيش هائل إلى إيطاليا واستطاع بالفعل الاستيلاء على توسكانا. وقد استطاعت جيوشنا فى كل مكان أن تحقق أفضل الانتصارات غير أن كل هذه المكاسب لم تحسن من وضعنا فى مصر. إذ لم يتم إرسال أية تدعيمات من الرجال لنا ، بينما كان جيشنا فى تناقص مستمر يوميا بسبب الأمراض وألف حادث آخر . ولم يكن من العسير التنبؤ بطردنا القريب . فقد كنا مهددين بجيش تركى ضخم وبهجوم محتمل من الإنجليز . وبما أن الشدائد تزيد من صلابة الإنسان ، فقد أصابنا التبلد حتى لم نعد نبالى بشىء ولا حتى بالحياة ذاتها ، لكن مع الاستعداد للتضحية بها وبذلها ثمنا غاليا لمن يتورع على مهاجمتنا ، ولم يكن فى وسعنا سوى الانتظار وترقب الأحداث .

٢٠ فبراير (١٨٠١م)

الأول من فانتوز عام ٩

رحلت الكتيبة الثانية إلى الإسكندرية وبلغتها فى الثانى من فانتوز . وقد تعرضت طوال الليل لعاصفة مخيفة وكأنها نذير بكارثة مشؤومة. وفى الثالث منه وصلنا إلى رشيد حيث أشارت علينا إدارة الصحة بعدة سبل متفردة للوقاية من الطاعون . بلغنا الرحمانية فى الخامس منه . وفى الحادى عشر وافانا نبأ ظهور أسطول إنجليزى أمام شواطئ الإسكندرية . كانت مفاجئة ، تلقينا على أثرها أمراً فوريًا بالرحيل نفذناه فوراً ، فرجعنا الى ذلك المسجد فى نفس اليوم ، وفى الثالث عشر وصلنا لمركز القيادة

(١) فى الكتاب الأصلى لم يتم توضيح العدد واستعاض عنه الكاتب بنفس العلامات الموضحة . (المترجمة)

لنعاود الرحيل مساء الخامس عشر ، وقمنا بتحركات اقتضتها الظروف وهى من الكثرة بحيث يستحيل سـردها ، بل إننى لا أجد فى هذا ضرورة .

فى السابع عشر من فانتـوز الموافق ٨ مارس (١٨٠١م) حوالى الساعة العاشرة صـباحا ، وصل الإنجليز إلى أبى قـير حيث قاموا بـعملية إنزال . وقـد اشتـبكنا مـعـهم ولكن الغلبـة كانت للـكثرة ، مما دعـا الـفرنسـيين للانسحاب إلى مـشارف رشيد بالقرب من البحر. وفى الـواحد والعشرين منه (١٢ مارس) قام الأعداء بتحرك ، وهرعنا لملاقاتهم وأعقنا تقدمهم .

فى الثامن والعشرين منه (١٩ مـارس) شن الإنجليز هجومًا على ثلاثة محاور ، وقد انقض عليهم الفرنسـيون . وعلى الرغم من تفوقهم الشديد علينا فى العدد إلا أننا قاتلنا بشراسة وفعلنا المعجزات حتى اضطروا للتسليم بالأمر الواقع بعد أن ألحقنا بهم خسـائر جمة وآثروا الانسحاب إلى مداخل رشيد .

فى التاسع والعشرين (٢٠ مـارس) وصل الجيش من القاهرة . وفى الثلاثين منه شن هجوما ، غير أن الإنجليز كانوا قد أقاموا خنادق منيعة فلم نتمكن من اجتيازها ، ورحنا نكرر الهجوم المرة تلو الأخرى دون جدوى . ولجأنا لحيل الحرب جميعها وكـل الجهود المتخيلة غير أننا اضطررنا فى نهاية الأمر للانسـحاب بعد الخسـائر التى لحقت بالجانبين. وتسـاءلنا إن كان من المجدى معـــاودة الهجوم بـدلا من الانسحـاب ، وبعد استعـراض جميع الأسباب التى تدعو للقبـول أو الرفض تقرر عودتنا إلى القاهرة وأخذ وضع الدفـاع . فقـد استـقر الرأى بنا على هذا لمـا لدينا من مواقع عـديدة فى أحيائها يفتقد إليـها الإنجليز ، فإن أرادوا أن تكون لهم فليس أمامهم سوى انتزاعها بقبضة الخنجـر . فنحن أقوى فى الدفاع عنا فى الهجوم ، وهذا ما نفذناه . إذ عاد جـزء من الجيش إلى القاهرة ، بينمـا بقى الجزء الآخر وأنا معه ، فى بحرى .

اعتقال بعض الجنرالات

بعد أيام اتخذت الخلافات القائمة منذ وقت طويل بين القائد العام والعديد من المنشقين منعطفًا خطيرًا فيه ضرر على أمن وسلامة الجيش. فقد احتدمت المناقشات بين الحزبين وُجّه خلالها حديث فاحش للجنرال الذى قرر بعد أن أعيته هذه المتناقضات وضع حد لتجاوزاتهما بموجب سلطاته. وفى الليل، قام بغتة باعتقال الجنرال رينييه ودوما، ومساعد الكومندان بوير والمفتش دور والعديد من أنصارهم وأرسلهم بحرًا إلى فرنسا. كان رد الفعل على هذا الحزم متباينا بين العسكريين. فقد أيده البعض لمعاقبته الجنرالات، وقالوا: «لقد كانوا وراء ما حاق بنا فى الثلاثين من الشهر»، بينما أضاف البعض أنهم سيخونون أو أنهم خانوا بالفعل. أما الجانب المعتدل، فقد اكتفى باتهامهم بالوقاحة وعصيان القائد العام. وعلى الصعيد المضاد اتهم البعض الجنرال بالتعالى وعدم التبصر والغفلة، وحجتهم فى هذا هى عناده وإصراره على التمسك بهذه المستعمرة. أما أكثر الأحزاب تعقلا فى رأيى فهم من تركوا للحكومة مهمة الحكم على هذا الخلاف، ولم يشغلوا بالهم إلا بأداء واجبهم.

خلال شهر جيرمينال، استولى الإنجليز على رشيد وقطعوا وهدموا سد البحيرة فانتشرت مياهها فى كل الاتجاهات وسرعان ما بلغت بحيرة المريوطية فزاد منسوبها حتى لقد استخدمها الإنجليز خلال شهر فلوريال فى تسيير مراكب الجيش - كما فعلنا بالمثل - وقمنا بشن بعض المعارك عليهم وكانت لنا الغلبة فى معظمها.

فى التاسع عشر من فلوريال الموافق ٩ مايو (١٨٠١م) دارت معركة فى الرحمانية، قمنا على إثرها بإجلاء هذا المكان فى الليلة من ١٩ إلى ٢٠ منه.

في ٢٠ بريريال الموافق ٩ يونيو وصلت السفينة هيليوبوليس إلى ميناء الإسكندرية ، وقد أعلمتنا بقرب وصول تدعيمات من الأميرالاى جانتوم ، وانتظرنا دون طائل .

في الثلاثين من بريريال الموافق ١٩ يونيو ، لحق بنا فيلق الهجانة وأمدنا بأخبار مطمئنة عن القاهرة . وفي الحادى عشر من ميسيدور ، احتفلنا بذكرى الاستيلاء على الإسكندرية بإطلاق رشقات من المدفعية من جميع القلاع على كافة الجبهات ، وكان هذا للمرة الأخيرة . في العشرين من ميسيدور الموافق ٩ يوليو ، بدأ الإنجليز في التفاوض ، وأعلمونا باستسلام جميع القوات الرابضة في القاهرة والقلاع المتاخمة لها . ولم نكن لنصدق هذا لولا البيان التالى :

مركز القيادة بالإسكندرية

٢٠ ميسودور عام ٩ الموافق ٩ يونيو (١٨٠١م)

القائد العام إلى جيش الشرق بالإسكندرية :

السادة الجنرالات والضباط وضباط الصف والجنود في جميع أسلحة الجيش . استسلمت القوات الفرنسية الرابضة في القاهرة القلاع المجاورة دون مقاومة ودون أن يشن عليها هجوم منتظم . ولن أسمح لنفسى بالخوض في أى تعليق على هذا الحدث الاستثنائي الذى ربما لم تشهد مثله هذه الحرب خشية أن أصيب بالخزى رجالاً أظهروا حتى الآن من الكرامة ما يجعلهم جديرين بأن يكونوا فرنسيين وجمهوريين .

أعلمكم أننى اجتمعت والليوتنت فريون وروميون ورؤساء الفرق سونجى وديستان وزايونشيك ورئيس اللواء سامسون وكومندان الفرقة الملقبة بالجينى .

وقد كـان رأيهم جميـعا أنه لابد من التـصرف مع هذا الموقف مـثلما يفعل الرجال الذين لا يعرفون من سبيل إلا الشرف والتعلق بالوطن .

أيها الجنود، برهنتم حتى الآن على تضحيتكم وصبركم وشجاعتكم ، مما يجعلنى لا أشك لحظة فى رد فعلكم وسلوككم . سـوف نثبت للجميع كيف يكون الجنود الشجعان . وسوف ندافع حتى الموت . ولكن ، إن كان بيننا من الفرنسـيين من يشعرون أنه لم يعـد لديهم الطاقة والعزيمة الكافـية لمقاتلة أعـداء الجمهورية بعض الوقت من جـديد فالأبواب مفتـوحة لهم ، وسوف أرسلهم إلى رشيـد حيث ستتجـمع عما قليل جميع الفـرق القادمة من القاهرة .

مينو

هذا البيان وغيره من نفس النوع وإن كانوا مبنيين على الشرف والعقل الرشـيد إلا أنهم أثـاروا استـياء الجـنود ، فقـد سلبـوهم كل أمل لهم فى استتبـاب الأمور والعودة إلى الوطن ، فراحوا يغبطون مـصير إخوانهم فى السـلاح الذين سيـبسطون تحت أبصارهم الشـراع فى طريق عـودتهم إلى بلادهم ، بينمـا ينظرون هم إلى حالهم وهم مـحاصـرون فى الإسكندرية ومعرضون لشتى أنواع المخاطر والحـصار ولفظائع المجاعة . فكل ما كانت هذه المدينة المحرومة من أى اتصال بينها وبين بقـية المناطق فى مصر تستطيع منحه لسكانها والمدافعين عنها هو شـريحة من نوع سيئ من الخبز المالح ، وبعض ملاعق من الأرز أو الفاصـولية وست أونصات من اللحم فى بعض الأحيان . كانت هذه هى كل حصتنا من الطعام يوميا . أحيانا ما كان يأتينا البدو ويبـيعـون لنا بعض القمح ولكنهـم كانوا يأخذون وزنه ذهـبا . وكنا بالكاد نسـتطيع شراء لحم الجـمال أو الخـيول أو الحـميـر. أضف إلى هذا عذابات العـمل المتصل وخـدمة لا هوادة فيـها ونقص النقـود والعديد من

الأمـراض التى يصعب مـداواتها لنقص الـعقـاقيـر ، كل هذا يعطى فكرة واضحـة عن وضعنا . وإن انفلتت بعض الهـمهمـات من الأفواه أو بعض الشكوى ، كـان نداء الشـرف يجـعلهـا تموت على الأفـواه وكـان يؤجج شجاعتنا ويهيئنا لتحمل جل التضحيـات .

المعارك التى وقعت حول الإسكندرية

منذ خمسة أشهر والجيشان مرابضان حول الإسكندرية دون حدوث أية عمليات عسكرية من الجانبين ، أولا ، لأن الإنجليـز كانوا مشغولين بجيش القاهرة ، وثانيـا ، لأن عدد الفرنسـيين لم يكن كافيـا للهجوم . غـير أن رحيل زملائنا بالقـاهرة هيأ الفرصة لأعدائنا كى يوحدوا جـهودهم ضدنا . فبدءوا قرب نهـاية شهر تيـرميدور فى إرسال كـميات مـذهلة من السفن الحربية والزوارق المحملة بالمدفعية عبـر بحيرة المـاريوطية ليتمكنوا من القيام بعـملية إنزال بالقـرب من المدينة التى غـدت منيعـة بفعل مـا شيـدوه من تحصينات .

فى التاسع والعشرين من ترمـيدور الموافق ١٧ اغسطس (١٨١٠م) قام العدو بشن هجوم على خطوطنا فكانت لهم الغلبـة ، لا سيما على الجانب الشمالى من قواتنا وهو موقع مميز غيـر أن فرقنا تمكنت بعزيمتها من حملهم على الرحـيل بعدها بوقت قـصير . لم نحـقق نفس النتائج عـلى الجانب الأيمن حيث تمكنوا من الاستيلاء على أحد معـاقلنا المتقدمة فأحدثوا قلاقل شـديدة على طول خطوطنا . وقـد حـاولت إحدى الكتـائب وقـوتان من المدفعية استردادها ، بيد أن جـهودهم باءت بالفشل . وقد حاول العدو فى نفس اليوم الـقيام بعـدة عمليات إنـزال ولكننا كنا لهم بالمرصاد . ومـساء الثلاثين منه وصلت الكتيـبة الثانية التابعة للفرقـة ٧٥ إلى أحد معاقلنا التى كنا نسميها بومبيه لقربها من فرقة بومبيه .

فى صباح الرابع من فروكتيدور تمكن العدو من الاستيلاء على حصن ماريوط بعد قصف عنيف بالمدفعية استمر ثلاثة أيام ، كما أقام جبهة من المرسى وحتى بالقرب من الحصن التركى ، فسبب لنا إزعاجا كبيراً .

فى السابع منه ، شن العدو هجومًا واستطاع الاستيلاء بالقوة على عدة تلال واقعة بالقرب من الحصن التركى ، بعد أن تمكن من أسر كتيبة من الفرقة ١٨ التى تمكن أغلب رجالها من الفرار تحت جنح الليل .

وفى الثامن عشر ، قام العدو بقصف جبهتنا بالمدفعية أمام باب رشيد ، فأصابنا بضرر بالغ ، بينما قام بنشر عتاد ضخم على خطنا الأيمن مما أثار مخاوفنا بشأن المستقبل ، وحثنا على طلب الهدنة لبضعة أيام ، فمنحت لنا فى الليلة من ٨ إلى ٩ ، وفى مساء الثانى عشر منه أبرمنا اتفاقية استسلام تم التصديق عليها يومى ١٤ و ١٥ ، تنازلنا بمقتضاها عن خطين من خطوط القتال وحصن مثلث وانسحبنا إلى نطاق منطقة العرب . وتعهد الإنجليز بنقلنا إلى الأراضى الفرنسية . وقد وقع على هذا الاستسلام كل من مينو والجنرال الإنجليزى هاتشينسون تحدد موعد إبحارنا فى اليوم العاشر بعد التصديق ، أى فى الخامس والعشرين من فروكتيدور عام ٩ الموافق ١٢ سبتمبر (١٨٠١ م) .

غير أن ظروف اضطرارية أجبرت الإنجليز على استخدام السفن التى خصصوها لنا لنقل قواتهم لمختلف بقاع أوربا حيث دعت سياساتهم إلى هذا . وبدلا من الرحيل دفعة واحدة اضطررنا إلى الإقلاع على التوالى بمجرد إصلاح إحدى سفننا ، حتى إننا بعد شهر من هذا التاريخ كنا مازلنا فى مصر .

كان من المفترض أن يبدأ إبحارنا الذى راح يتأجل يوما بعد يوم منذ الأول من فاندمير عام ١٠ الموافق ٢٣ سبتمبر (١٨٠١م) غير أن بُطء القائد العام ، (وهو ما كان يعيبه بطبيعته) جعلنا نتأخر ثمانية أيام أخرى .

أقلعنا بالفعل يوم ٢ فاندمير الموافق ١٢ أكتوبر ، هذا اليوم الذى طالما انتظرناه ورغبنا فيه بشدة . كان هذا بعد ٤٨ يوم من التصديق على الاتفاقية . كان اسم السفينة التى أقلتنا «لاساكرا فاميليا»[1] وهى سفينة تجارية . وقد غمرتنا سعادة جمة ونحن نغادر هذا القطر المشؤوم ليس على الفرنسيين قديما فحسب بل حديثا أيضا ، فهو قطر ألمت به جميع آفات البشر من طاعون وعمى وقطع طريق وفقر وفوق كل هذا استبداد الشرق . وكم أسفنا لفقد كل هؤلاء الرجال ، ولسكب كل هذه الدماء ولتحمل شتى صنوف التعب والحرمان ، ولعدم تمكننا من إقامة مستعمرة على شاكلة مستعمرات أخرى كثيرة ، ولكن وقت البعث لم يكن قد حان بعد .

أما عنى فكم افتقدت العزيزة البائسة زليمة وكم أسفت عليها ، ولم يكن ثمة ما يشفينى من الجرح الذى ألم بى لفقدها سوى رؤية وطنى . كتبت لها رسالة من رشيد بعد استسلام القاهرة ، لأحثها ، بعد أن تسمع أنباء الاستسلام بيننا وبين الإنجليز ، على اللحاق بى فى الإسكندرية لنصحبها معنا إلى فرنسا . وقد تمكنت بالفعل من الهرب من دمياط فى الخامس والعشرين من فروكتيدور متخفية فى ملابس فرنسية مع خادمتها المارسيلية الأمينة غير أن جماعة من المماليك ألقوا القبض عليها واستجوبوها واكتشفوا من لهجتها أنها ليست فرنسية . وقد أخذوها سبية بعد أن رأوا شدة حسنها بينما تركوا المارسيلية تذهب لحال سبيلها بما أنها تنتمى لدولتنا ، وبالتالى فإن معاهدة الاستسلام تشملها . ولست أدرى ما الذى ألم بزليما وكيف سارت الأمور بها ، وربما توفاها الله من شدة الهم والحزن . وقد علمت بهذه التفاصيل من خادمتها التى

(١) أى العائلة المقدسة (المترجمة) .

تمكنت من اللحاق بنا والرحيل معنا ، وقد أسعدها حظها برؤية ذويها وديارها فى مارسيليا.

فى الأيام الأولى ، لم تمكنا الرياح غير المواتية من التقدم كثيرا، بل إن الرياح كانت معاكسة تمامًا لنا فى اليوم السادس حتى إنها قطعت علينا تقدمنا . ولم نتمكن سوى فى التاسع والعشرين من السير بمحاذاة رأس «سانت جان» بجزيرة كاندى . ومنذ ذلك الحين أخذت آلهة الرياح تنفخ فى قلاعنا وحملتنا إلى شواطئ صقلية بين رأس مورو دى بوركو ولا فينيات الواقعة بعد سيراكوس ، ثم هدأت تماما حتى إنها تركتنا فى خطر محدق. وبدلا من الخروج من هذا المكان انحرفنا لندخل ناحية الشاطئ . وقد فقد بحاراتنا صوابهم ، وبعد أن استشاروا دليلهم لم يجدوا أى مخرج لمأزقهم سوى الدخول إلى فينيات . وقد فعلوا ما فى وسعهم للرسو فى هذا المرفأ على الرغم من أنه غير آمن . وبينما هم يبذلون قصارى جهدهم إذ بريح لطيفة تنتشلنا من هذا الموقف السيء . وما كدنا نتجاوز رأس مورو دى بوركو التى يرتاد أنحاءها بحارتنا المحنكون منذ أربعين أو خمسين عامًا ، حتى انفجرت أساريرهم وندت عن سعادة غامرة واعترفوا لنا بأنهم أبدًا ما واجهوا خطرًا على هذا النحو .

فى نفس اليوم ، اضطررنا أن نرسو فى أوجستا، وهى مدينة صغيرة بصقلية أولاً لإصلاح التلفيات التى لحقت بنا وانتظارا لريح ملائمة كنا نحتاج اليها لاجتياز منار ميسين الخطر . وقد أحسن حاكم هذه البلدة وفادتنا مع اتخاذ جميع الاحتياطات الصحية المتبعة . ومن خلال اتصالاتنا غير المباشرة علمنا أن السلام قد أبرم بين الجمهورية الفرنسية وحكومة سانت جيمس .

٢٨ نوفمبر (١٨٠١م) :

رحلنا عن أوجستا فى الرابع من برومير ولكن المسافة التى قطعنا لم تكن كبيرة بسبب الرياح غير المواتية .

فى الخامس منه أجبرنا هذا السكون على ملازمة سفح بركان إتنا الذى ظل ينفث دخانا كبريتيا من قمة فوهته . وقد رأينا أثناء الليل بعض شرارات اللهب تتطاير منه وتتساقط على الحقول الجميلة والبنايات المجاورة . بدأت الريح تشتد فى ليلة السادس من برومير مما أتاح لنا فرصة متابعة طريقنا ، ورحنا نتأمل مدينة ميسين على ضوء القمر وهى تستحق التأمل بحق ، وهى تقع عند سفح سلسلة من الجبال . وهى ليست فى الواقع سوى براكين تطل على البحر مما يجعلها بهجة للناظرين .

ثم دخلنا إلى المضيق الذى يفصل صقلية عن كالابر فى مضيق سيلا وشاريبد الشهير الذى طالما خشى عقباه خلال العصور الوسطى والذى يطلق عليه اليوم اسم منار ميسين .

لم تتح لنا عتمة الليل تمييز أى شىء ومع هدوء الرياح فى السادس منه اضطررنا للرسو بالقرب من سترومبولى . وهو أحد الجبال الواقعة وسط البحر على بعد أربعين ميلاً من المنار، والذى يُشكل خطراً محدقًا بخواره وزئيره وحممه أكثر من جبل إتنا ذاته الذى تفصله عنه عدة جزر لا سيما جزيرتى فولكينو وليبارى . وعند حلول الليل قامت عاصفة امتدت حتى الصباح مما أثار قلقنا . وقد رأى القبطان استحالة الصمود فى البحر دون التعرض للاصطدام بالصخور الواقعة أمام سترومبولى مما دعاه فى السابع منه إلى اتخاذ قرار بالعودة إلى المنار . وقد استطعت حينئذ أن أرى بسهولة عند مدخل كالابر جبل كان يرتفع كثيرا عن سطح المياه ذات يوم ولكنه دك عندما وقع زلزال عام (١٧٨٢م) أو (١٧٨٣م) . وفيما يبدو أن

هذا هو المكان الذى كانت تقع فيه سيلا . أما عن شاريبد فلم ألحظ شيئًا عند الشواطئ المقابلة لصقلية تشبه ما روى بشأنها فى العصور الوسطى . صحيح أننى لاحظت عن بعد بعض الدوامات التى من شأنها إعاقة الملاحة لا سيما مع ضيق عرض البحر فى هذا المكان . كما لاحظت على طول الشاطئين عند سفح سلسلة من الجبال المتقابلة تلالا منحدرة بهيجة وقد أحسنت زراعتها ، وبيوت ريفية جميلة وقرى مشيدة بصورة جيدة ، مما يمنح العين مشهدا جميلاً .

بلغنا ميسين عند الظهيرة ، حيث رسونا فى انتظار ريح مواتية . وقد وجدنا فيها عدة سفن بعد عدة أيام مما هون علينا إلى حد ما حظنا السيئ . هناك ، شاهدت بقايا بيوت رائعة وقد ازدان بها المرفأ ، وربما شكلت واجهة ضخمة قبل زلزال (١٧٨٢م) الذى ابتلع هذه المدينة البائسة . وقد قام السكان شيئا فشيئا بتشييد البنايات خلف هذا الصف من الأطلال الذى لم يجرؤ أحد على إزالته خشية حدوث كارثة جديدة .

هذه البنايات التى شيدت لا تشبه القديمة فى شىء ، فهى لا تتعدى الطابقين كما أن معمارها أقل فخامة . وقد أرسل لنا حاكم ميسين عقب وصولنا بقليل بعض العازفين ليمتعونا بشىء من الموسيقى. وقد نفحناهم ببعض النقود فسعدوا بكرمنا حتى إنهم عادوا مرة أخرى فى صباح اليوم التالى . فكافأناهم بنفس الطريقة . وإن كنا مددنا إقامتنا أكثر من هذا فى تلك الأنحاء لكانوا عادوا كل يوم . فالصقليون أشد إلحاحا من باقى الإيطاليين حتى إنه لا يخجلهم مد أيديهم بصفة مستمرة .

وفى هذه المدينة ، عرفنا تفاصيل السلام المبرم بين فرنسا وإنجلترا . وقد بقينا فيها حتى الرابع عشر حيث فردنا القلوع . غير أن البحر كان هادئا فاحتجزنا عند مشارف ستروميولى حتى مساء الخامس عشر منه. إلى أن دفعنا ريح طيب مساء التاسع عشر إلى مرسى كولون. وكنا نأمل أن

ينتهى بنا المطاف من حيث بدأنا ، قبل ثلاثة أعوام . ولكن أوامر عليا صدرت لنا بالتوجه إلى مارسيليا وكأنه يشق على فرنسا استقبالنا ، فلم نستطع الرحيل قبل الثانى والعشرين منه .

حينما بلغنا ميناء مارسيليا قرابة الساعة التاسعة مساء ، واتتنا رياح معاكسة وجو فظيع دفعتنا دفعا صوب البحر من جديد . مما اضطرنا لإطلاق مدفع الاستغاثة. وقد هب لنجدتنا أحد البحارين وقادنا الى مرسى ولكنه كان من السوء بحيث لم نشعر بالارتياح فيه . وقد أبحرنا فى الرابع والعشرين إلى حيث الحجر الصحى . وفى الخامس والعشرين من برومير عام ١٠ الموافق ١٦ نوفمبر (١٨٠١م) بدأنا بالفعل فترة الحجر الصحى. وحينما أنهينا هذه الفترة استقبلنا وطننا بين أحضانه .

المشروع القومى للترجمة

اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت : محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : لطفى عبد الوهاب / فاروق القاضى / حسين الشيخ / منيرة كروان / عبد الوهاب علوب
مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بلبع
مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
الرواية العربية	روجر آلن	ت : د. حصة إبراهيم المنيف

الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت
نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
التراث المغدور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوييا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد

السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود
السياسى العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلى
نقد استجابة القارئ	جين . ب . تومبكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	ت : حسن بيومى
فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
چاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمرى
الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوى
مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	ت : محمود السيد على
مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالى
موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	ت : عبد الرازق بركات
طول الليل	جمال مير صادقى	ت : أحمد فتحى يوسف شتا
نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العنانى
الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
وسم السيف	ميجل دى ثربانتس	ت : محمد إبراهيم مبروك
المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
هوية فرنسا	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحى
النص الروائى (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبى	ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
قبر ابن عربى يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
أوبرا ماهوجنى	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	ت : عبد العزيز شبيل
الأدب الأندلسى	د. ماريا خيسوس روبييرامتى	ت : د. أشرف على دعدور

صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى المعاصر	نخبـة	ت : محمد عبد الله الجعيدى
ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
فعل القراءة	ڤولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

(تحت الطبع)

الشعر الأمريكى المعاصر
الجانب الدينى للفلسفة
الولاية
المدارس الجمالية الكبرى
مختارات من الشعر اليونانى الحديث
بارسيفال
العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل
عدالة الهنود
چان كوكتو على شاشة السينما
الأرضة
غرام الفراعنة
نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية والقوانين المعالجة
القصة القصيرة (النظرية والتقنية)
التجربة الإغريقية : حركة الاستعمار والصراع الاجتماعى
العنف والنبوءة
خسرو وشيرين
العمى والبصيرة (مقالات فى بلاغة النقد المعاصر)
وضع حد
التليفزيون فى الحياة اليومية
أنطوان تشيخوف
من المسرح الإسبانى المعاصر
خطبة الإدانة الطويلة
تاريخ النقد الأدبى الحديث (الجزء الرابع)
حكايات ثعلب
شامبوليون (حياة من نور)
الحورية الهاربة
الإسلام فى السودان
العربى فى الأدب الإسرائيلى
آلة الطبيعة
ضحايا التنمية
المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر
أيديولوجى
تاريخ الكنيسة
فن الرواية
ما بعد المعلومات
الورقة الحمراء
موت أرتميد كروث
علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
المهلة الأخيرة
الهيولية تصنع علمًا جديداً
قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى
مدرسة فرانكفورت نشأتها ومغزاها